يوسف رخا
التمّاسيح
رواية
دار الساقي

التماسيح

تصميم الغلاف: سحر مغنية

يوسف رخا

التماسيح

دار الساقي

ISBN 978- 1- 85516- 878- 7

الطبعة الأولى، دار الساقي، 2013
© دار الساقي، 2013
جميع الحقوق محفوظة

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 2033 - 6114
هاتف: 866442 -1 -961+، فاكس: 866443 -1 -961+
e- mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com
تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi
27.09.12

إلى هبة ومهاب

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ – سورة يوسف، 16

حاوية التماسيح: الملف الأول، 2012
العشاق: 1997 - 2001

"كان لهذه الأفكار أو المشاعر أو الترهات فوائدها. كانت تحوّل وجع الآخرين إلى ذكريات خاصة. كانت تحوّل الوجع، وهو شيء طبيعي ودائم ينتصر عليك إلى الأبد، إلى ذاكرة شخصية: شيء بشري ومؤقت يتملص منك إلى الأبد. – روبيرتو بولانيو، "2666"، عن ترجمة ناتاشا ويمر الإنجليزية، 2007.

"وعندهم أن الأعمال المكتملة تخفي النقص الضارب في أعماقها عن طريق وحدة مصطنعة. وحدة هدفها إنقاذ ذات كاتبها. أما الأعمال الناقصة فلا تتحرّج من ذلك النقص بل تمده إلى آخره، وكأنها تقول إنك لا تستطيع أن تكتب بمفردك أبداً. هيثم الورداني، "جماعة الأدب الناقص"، 2003.

"فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح، ومرارة الذكر منه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج. وإذا وُضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة... وهو من الحيوان الذي يعيش ألف سنة على ما ذُكر وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه. – شهاب الدين الأبشيهي (1388–1446) في وصف الأسد.

1. يوم عيد الميلاد الواحد والعشرين لشاعر مفتَرَض من جماعتنا تعوّدنا أن نسمّيه نايف ولا أهمية كبيرة لاسمه الحقيقي – في 20/6/1997، بالتحديد – ذهبتْ المناضلة رضوى عادل تزور قريبة لها في أحد أحياء القاهرة؛ لا أذكر أين. لا يوجد سجّل موثّق لحكاية أشهر أعلام الحركة الطلابية أو جيل السبعينات من النساء – أقصد المناضلة، وقد نسمّيها المثقفة أو الكاتبة أو المفكّرة الكبيرة: كلها مترادفات – بل إن هناك خلافاً حول ما إذا كانت قريبتها المعنيّة تسكن في الدور الحادي أو الثاني عشر. لكنّ ما فهمتُه مع مرور السنين من كلامي العابر مع أصدقاء مقرّبين إليها من دائرة المثقفين التي تكونت فيها جماعتنا، هو أن رضوى عادل لاعبتْ أولاد قريبتها قليلاً ثم استسمحتهم في قيلولة داخل غرفة النوم ذات الشرفة. لم يكن في البيت سوى الأولاد الصغار؛ وما إن ارتد باب الغرفة خلفها حتى خرجت إلى الشرفة وقفزت من فوق السور.

2. كانت رضوى عادل في السادسة والأربعين من عمرها. وحين أحاول أن أفصّل قفزتها التاريخية في رأسي، أتخيلها جالسة على الحافة الخشبية – لا أعرف لماذا أتخيل حافة السور خشبيةً – تتدلّى رجلاها من ذلك الارتفاع المدوّخ وهي تواجه الشارع أو السماء... بينما الأولاد في الصالة لا يخطر لهم أن "طنط رضوى" قد تكون بصدد قتل نفسها في هذه اللحظة، أتخيلها ترخي ذراعيها على

جانبيها ومثل لاعب جمباز على المتوازيين تقبض على الحافة؛ بالتدريج تبدأ تُحمّل ثقلها على يديها وتُزحزِح مؤخرتَها إلى أسفل فوق الخشب، شيئاً فشيئاً. وقبل أن تصبح مؤخرتُها في الهواء فتشعر بوزنها كله في ذراعيها، ترفع يديها وتفرد الكفّين أمامها كمَن يحاول إيقاف شيء آت في وجهه وتغمض... لا خلاف على أنها ماتت فور ارتطامها بالأسفلت.

3. يوم عيد ميلاد نايف الواحد والعشرين – وخلال ساعات من انتحار رضوى عادل – وُلِد الشعر المصري السري في ميدان الدقي بعد منتصف الليل بقليل؛ وبدا أن الفَرح الشعبي الذي غطّت ضجته على أصواتنا في المقهى – الشعبي أيضاً – أقيم خصيصاً للاحتفال بذلك. كان الفرح في داير الناحية على بعد خطوات من الرصيف الذي انفردنا بقسم منه بحذاء جزارة "السوبكي" في شارع التحرير، و لم يكن باستطاعتنا أن نرى شيئاً من حيث جلسنا. في النهاية لم ننهض بغية التفرج على الاحتفال، لكن النعيب الخارج من مكبر الصوت تُبَرْوزه تلك النغمات الإلكترونية المغثية، وشا إلينا باستمتاع عارم في الوقت الذي قدّم فيه تأكيداً إضافياً على صحة اعتقادنا بأن الشعر، الشيء الذي يمكن أن نصدّق أنه شعر، لا بد أن يكون سرّياً.

4. وقتها كان لنا ستة أشهر نتكلم بلا توقف في تعريف ذلك الشيء، أنا ونايف وشاعر ثالث من جماعتنا مولع بالفوتوغرافيا، كنا قد تعوّدنا – بافتراض أن اسم عائلته أبو الليل – أن نسمّيه باولو؛ إلى الآن لا أعرف إن كان أبو الليل اسم عائلة باولو فعلاً، لكن الأغرب أنني

لا أذكر له اسماً آخر. كنا أصغر سناً قليلاً ممن بدأوا ينشرون في مجلتي "الجنادب" و"الأدب المغاير"، وكنا نقول لبعضنا إن هؤلاء – عماد أبو صالح أو جرجس شكري، بهاء عواد، أو علية عبد السلام التي كتبت، سنة 1998: **"أمام الله سأعترف/ أن دموعي قريبة/ والحكام أوغاد والفقراء شر/ وأن الحب مرض/ والناس شياطين صغيرة"** – كنا نقول إن هؤلاء وصلوا إلى الحافة و لم يقفزوا من فوقها.

5. لأسباب ستَرِد في فقرة لاحقة قررنا أن نسمي أنفسنا التماسيح. استقر كلامنا على جماعة لما أطلقنا عليه الشعر السري وتعاهدنا على أن لا نكتب غيره؛ وهذه هي الجملة الأولى في التأريخ لحركة التماسيح للشعر المصري السري.

6. اليوم – من حيث أسترجع كل ذلك في بدايات شهر 1/2012، مترقباً اندلا ع الثورة الثانية أو الثورة الحقيقية يوم 25 – لا أظنه من الإجحاف إقصار الآباء الشرعيين للشعر السري علينا ثلاثتنا، وإن كان لا قيمة لأبوة كهذه في ضوء اندثار ذلك الشعر نهائياً خلال أربعة أعوام، خاصة أنه بسبب فلسفتنا في الكتابة لم يعلم بوجودنا أحد: كنا نأخذ عهداً على أعضاء الجماعة بأن لا ينقلوا أخبارنا إلى الآخرين إذا ما غادرونا؛ ورغم أنه لا شك عندي في أن العهد كان يُنقَض كل مرة، لم يسمع أو يهتم بنا عدد كاف من الناس ليصبح لنا صيت أو نلفت الانتباه. ليلة إعلان الجماعة في الدقي كان معنا ثلاثة أو أربعة شعراء متحمسون، وبعدها أقمنا لقاءً تأسيسياً في بيت أهل نايف في المريوطية حضره عدد أكبر؛ لكن الآخرين لم يساهموا في التنظير للحركة وأشك في أنهم اقتنعوا بها كلها. كان الطموح يقف

بينهم وبين الاقتناع كما سيقف بين باولو ونرجس وكما وقف دائماً بين ما اخترناه وما أردنا اختياره.

7. ورغم زيادة عدد التماسيح الدرامية في الشهور التالية، بحلول 1998 لم يبق ممن انضموا إلينا في البداية سوى واحد أو اثنين من غير ذوي الموهبة. تحت تأثير الفنانة التشكيلية التي يحبها، كان باولو قد بدأ يُنظِّر للمعادلة بين كتابة الشعر السري والنجاح الأدبي بمعانيه التقليدية (كان النجاح الأدبي طبعاً هدفاً مستحيلاً في تلك الفترة في مصر، لكنه ظل بشكل أو آخر مطروحاً في الدائرة)؛ أما نايف، فبينما يحقّق ذاته في مجال الحاسوب من قبل أن يحصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة القاهرة ويترجم شعراً أمريكياً من الخمسينيات، كان يفكّر دورياً في الكف عن الكتابة.

8. طوال 1997 و1998 كنا نصاحب باولو إلى ميدان الأوبرا حيث معمل تحميض في خلفية محل "مصوراتي" عجوز كف عن استخدامه من سنين، كان باولو قد استأجره منذ شهر 12/1996 بسعر مخفض، وهناك ندخن معه البانجو وهو يحمّض الأفلام "الأبيض وأسود" أو يغلّفها بعد أن تجف وأحياناً وهو يطبع صورة في الضوء الأحمر.

9. مساء 23/6/1997 – وبعد صمت طويل في الطريق إلى ميدان الأوبرا – سيقول لي نايف على مسمع من باولو: "فاكر بطلة الحركة الطلابية، صاحبة ليث وبهاء؟" يقصد "ليث الحيوان" و"بهاء زايد"؛ ثم مشيراً إلى كتابها الوحيد المنشور قبل موتها: "التي كتبت **المبسورون**. وعندما أبطئ لأسأله "رضوى عادل؟" سيستدير بانسيابية ولا يكف عن الحركة وهو يومئ بحماسة وقد

سبقني وارتسمت على وجهه نصف ابتسامة. لن تتأثر سرعته مع أنه يمشي إلى الخلف الآن: "رضوى عاااادل!" ثم بنبرة تداني البهجة: "حدفت نفسها من البلكونة أول البارح. - "لا يا رجل،" لا بد أنني قلتُ بذلك المزيج التسعيني من عدم التصديق واللا اكتراث، "ماتت فعلاً؟"

10. والحقيقة أنني نسيتُ رد فعلي، سوى أن الموضوع لم يَرد أو يخطر لي ثانية طوال ذلك الصيف. كان باولو المغتاظ منذ تشاجر مع نايف قبل إعلان الجماعة بيوم يدير وجهه ليرمقه باشمئزاز منذ بدأ الكلام، لكنه لم يتمالك ضحكاته المنفجرة حين سمع: "بنت المجنونة! من أين عرفتَ؟" وما إن أخبره نايف أنه عرف من ليث لأنه اتصل به صدفة صباح أمس حتى عاد باولو يرمقه شذراً. لم يعلّق أحد على أن رضوى عادل ماتت يوم إعلان الجماعة، ولعل أحداً لم ينتبه إلى تزامن الحدثين.

11. وعند رضوى عادل أن المبسور هو مَن تبدأ أو تنتهي دورته قبل أن يكون جاهزاً - الآن أتذكر - مثل مولود لا بد من وضعه في الحضانة أو فاكهة تُقتطَف وهي خضراء. فبالنظر إلى انتهاء جماعة التماسيح للشعر السري تقريباً من قبل أن تبتدئ، يبدو لي أن صلة عميقة كانت تربطنا بالمناضلة أو برؤيتها رغم أننا لم نلحظ ذلك أو لم نلحظه على الفور.

12. هناك كلام في إحدى قصائد وديع سعادة لا أذكر سياقه عن **"مستقبل يتدلى، يرسم له القائل شبكة في الوادي ليصل سليماً أو على الأقل لحقيبته التي يجلس فيها وهكذا يصل."** الآن أعرف أننا لم نرسم

لمستقبلنا شباكاً أو لحقيبته. كنا نحمل الحقيبة بلا اكتراث ونطرحها على الأرض كيفما اتفق. ولعلنا ظننا المستقبل أرقى من أن تتحكم في شكله حقائب. هكذا لم نعترف بنهاية التماسيح في وقتها، وبعد أربع سنين حدث شيء خارق للطبيعة في حياتنا.

13. كان لنا ستة أشهر نتكلم حين أعلنا الجماعة، وللحظة في إحدى جلساتنا حدستُ أن كلامنا خائب لأنه ليس وراءه كتابة. كانت الكتابة أمامه، في حقيبة المستقبل التي لم يحملها سوى واحد منا وهو لا يدري. واحد عليه الآن أن يكتب ليجعل لكلامنا معنى بعد كل هذه السنين.

14. يبدو لي الآن، من مكاني الافتراضي في مستقبل كان يتدلى أمامنا حتى 2011 ونحن لا نراه، أن الأسد هو السر الأكبر: الأسد الذي ظهر لنايف. بوضوح لم يكن ليتسنى وقتها، يبدو لي أن ظهوره ليس الحدث الخرافي الوحيد وسط الملابسات. ورغم أنه الشيء الوحيد الخارق للطبيعة بالفعل، عن نفسي، لم أشكّك لحظة في حقيقة الأسد. فقط، عن بُعد، أيقنت أنه لم يكن وحده الغريب. كانت أشباح تجثم على مصائرنا طوال الوقت؛ وفي لحظات كانت تتجسد على شكل فكرة أو حدث، تماماً مثل قصيدة تأتي من حيث لا يعلم مؤلفها: أبخرة عدد هائل من سوائل الحياة المختلطة بلا منطق وقد تكثّفت في قطرة واحدة ثمينة.

15. يبدو لي مثلاً أن مون – حبيبة نايف التي اعتدنا أن نناديها بهذا الاسم لأن أهلها سموها قمر، ولم تستمر علاقتهما على عنفوانها سوى بضعة أشهر – كانت مجرد تبلور من هذا النوع؛ وبالفعل منذ

نهاية حكايتهما لم يسمع أحد شيئاً عن مون أو يعرف مصيرها. كأنها وُجدت فقط لكي يقع نايف في حبها؛ ما إن يغب حتى تتبخر، وكما قال باولو عن حبيبته أيضاً وإن بقيت الأخيرة، رغم هجرتها، حضوراً مؤرقاً في حياتنا: **"التجسد البراق لشيء خرافي يختفي بغياب الرائي"** من هذه الزاوية كانت مون شعراً خالصاً، وكان اختفاؤها كشبح هو الوفاة النهائية للتماسيح.

16. باولو الأشقر دائم الامتعاض: كان شكل جسده يختلف باختلاف زاوية النظر رغم الحدبة المميزة أعلى ظهره (لأن حدبة باولو طفيفة، كانت تساهم في تداخل الخطوط العريضة لهيكله أكثر مما تعلن عن نفسها)؛ مرة يبدو نحيفاً ومرة عريضاً، وإذا سمن قليلاً يبدو أقصر مما كان.

17. لكن الشيء الذي يقفز أمام عينيّ كلما تذكرتُ باولو، فضلاً عن شعره البني الطويل، هو جلد وجهه الأفتح بدرجة ملحوظة من جلودنا: رغم صغر سنه كان سميكاً ومعرّجاً كلحاء الشجر، الأمر الذي أكدته ذقنه النابتة على الدوام، وكان مادة مناسبة لامتعاضته أو الغضب المتجمد في ملامحه حتى في أكثر لحظاته استكانة. أعرف أن وجه باولو ليس حاضراً عندي إلا لأنني رأيته في ميدان التحرير قبل شهور – وكان الجلد قد صار أسمك مع جمود أشد؛ فيما الجسد لا يزال يتحول كلما تغيرت زاوية النظر، كان الشعر قد فُقد وضرب الذقنَ البياض – لكنني حين أستحضر باولو اليوم من مكاني الافتراضي، يهيأ إلي أنني أراه على ما كان عليه في صيف 1997. أراه أيام التماسيح وأسمع صوته العميق الملحون بنغمة فلاحية لا تكاد تُحس...

18. باولو الأشقر، ونايف الجميل: لا أذكر شيئاً من ملامح نايف؛ فقط أنه كان أقرب إلى السُمرة والطول ووجهه – مثله في ذلك مثل جسده – أملس ومتناغم بدرجة ملفتة. يرتبط نايف في رأسي بتلك المرارة الملازمة لصوته، والتي كانت تتحول إلى سخرية قاسية (لكنها أيضاً مضحكة) ممن يتكلم عنهم مع مرور السنين: كانت ابتسامته دائماً حاضرة، لكنك لا تعرف أبداً إن كان يضحك معك أو عليك؛ وكان في نظرته إلى المآسي بالذات استخفاف يداري حزناً أو يأساً أو كآبة: شيئاً، على كل حال، عميقاً وأسود. الذي أذكره من نايف خلاف صوته وخطوته الواثقة، تلك الانسيابية العجيبة وهو لا يكف لحظة عن الحركة، والتي – على طرف النقيض من باولو لم تؤثر أبداً على رسم هيكله أينما وُجد من عينيك. كان نايف جميلاً مثل النبي يوسف أو إله إغريقي، ومع أن أحداً منا لم يلتفت أبداً إلى ذلك، أظن جماله كان نبوءة بمصيره المأساوي.

19. سيأتي وقت أتشاجر فيه مع نايف أنا أيضاً ويلعن كل منا دين الآخر وأكرهه. ومع ذلك، اليوم يحزنني أنني لن أتعرف عليه لو رأيتُه صدفة. أن أراه صدفة شيء غير ممكن طبعاً، لكن كوني لن أتعرف عليه يحزنني على كل حال. يحزنني بالذات أن أتخيل أحدنا يواجه الآخر بنفور كهل متعب ويزمجر في وجهه: من أنت أصلاً؟

20. عن نفسي، أنا لا أحد. يوسف أو أي شخص كان يسكن مع أهله في شارع سليمان جوهر أيام كان الشارع لا يزال سوق خضار. أي كاتب مصري من مواليد 1975 (أو 1973، أو 1976): ولدنا بغض النظر عن تواريخنا بعد حرب أكتوبر وقبل الثورة الإيرانية.

21. طز في الأسماء. الآن وأنا على مشارف الأربعين، أدركتُ أن كل أسمائنا مستعارة، حتى المسجّلة منها على بطاقات الرقم القومي مصحوبة، فضلاً عن صورة نبدو فيها في اللحظة نفسها مصعوقين ومنوّمين، بتاريخ ومحل الميلاد وعنوان السكن والديانة. وكسائر أعضاء جماعة التماسيح للشعر المصري السري – منذ ظهور الإنترنت وعوالم السايبر في حياتنا أواخر التسعينيات، ثم تجذرها في الألفينيات بشكل نهائي – لا شك أنني استخدمتُ أسماء مختلفة في سياقات مختلفة وطلعت على الناس بأكثر من وجه بحسب شُبّاك الاتصال.[1]

22. باولو الأشقر ونايف الجميل، أقول... ثم أنا. "لا أنا. لا" (وكما كتب أحد معلمينا الذين لم نعرف بوجودهم حتى ماتوا)، "لست أنا" أو إنني – خلاف أن أكون من يحكي الآن – لا وجود لي بين صديقيّ. لست أنا، أو قل إنني أقصرنا وأغلظنا ملامح – كنتُ أُعرف في الدائرة باسم "الفتيس"، لأن رأسي بالنسبة إلى جسدي مثل مقبض فتيس السيارة بالنسبة إلى جذعه تماماً – لكن ربما كنت أيضاً أشعرنا بمقاييس القصيدة السرية ومن ثم أقلنا طموحاً أو أقدرنا على متابعة ما يصير.

23. كنا ثلاثتنا غرفة مغلقة مصنوعة من التطلع إلى الشعر أو حياة تشبه قصيدة، هذا المهم. بالنظر إلى الوراء موضوعياً، يبدو لي اليوم أننا فعلاً كنا أكبر تماسيح البركة حجماً وأكثرها نشاطاً في اصطياد

1 Internet؛ واختصارها: "النت" Net؛ Cyber؛ شباك بمعنى Window في سياق الحاسوب.

الثدييات الصغيرة الآتية للشرب ثم التناوب على قضمها بشهية لا تعرف الرحمة.

24. اليوم أيقنت أننا كنا غرفة لم يتمكن من دخولها غير ثلاث حبيبات. وبينهن تبدو مون في الذاكرة أو الخيال، رغم أنها آخرهن وصولاً إلينا، هي الطيف الذي واربنا باباً من أجله؛ وكأنّ الأخريين دخلتا عن طريق الخطأ. هل لأننا لم نعرف أبداً من أين أتت وإلى أين ذهبت بعدما انتهت الحكاية؟ هل من أجل صفات "التومبوي" الصبيانية التي كانت لتغوينا في امرأة من دائرتنا أكثر من سواها؟ مون هي الأقرب إلينا سنّاً وهي الوحيدة الشاعرة. ربما من فرط ضآلتها وحفاظها، رغم النحافة وصغر الحجم، على جاذبية هصور، ربما لأنها الأكثر تقلباً وتطرفاً والتي استحال توقع سلوكها من يوم إلى يوم... واربنا باباً من أجل مون.

25. في المساء أفكر في مون من حيث تصلني أخبار الأحداث عن بُعد. بُعد شديد كما يبدو. وكلما انتبهت إلى بلطجة الجيش ثم كذب القيادات العسكرية وطاقمها السياسي–الإعلامي، كلما انتبهت إلى استعداد الناس لتصديق الكذب، أستريح أكثر لبعدي. هنا سأكون معزولاً وآمناً بما يتيح التذكر. ظريف حقاً أن أمضي وقتي أدوّن بخلو بال بينما مصر تحترق. وأفكر أن المشكل – ربما – أنها لا تحترق بما يكفي: أن هناك من يتحدث عن خطورة التظاهر على عجلة الإنتاج وضرورة تنشيط الاقتصاد بينما الشباب يُختطفون ويُعذبون؛ هناك من يرشّح نفسه لمقاعد البرلمان بدعوى أنه عارف

1 Tomboy.

ربنا بينما الأزهريون يُقتلون بالرصاص الحي. لهذا، لأن الأحداث رغم كل شيء محدودة ولأن مدلولها يضيع مع استعداد الناس لتصديق الكذب، أشعر بضرورة التذكر وأستريح لبعدي.

26. في المساء أفكر في مون من حيث تصلني الأخبار وأمتن للملف الذي أمامي على شاشة الحاسوب وهو يمتلئ شيئاً فشيئاً بالكلمات. أهنّئ نفسي على فتح حاوية سميتها التماسيح ليكون أول ملفاتها لأنني، منذ فعلت، لم يعد يراودني النزول إلى معترك الأحداث في ميدان التحرير أو شارع قصر العيني ولا أشعر بالذنب. أوقاتاً – هذا كل ما هناك – تكتسحني الفجيعة. ضوء قارص يبرق في رأسي يعميني ويشلني كل مرة بضع دقائق فأرتجف وأفيق على ألم حاد في بطني. بعد ساعة، ولا دمعة، تأتي رغبة حارقة في البكاء. لا أعرف أحداً ممن قُتلوا معرفة شخصية؛ ورغم أنني كثيراً ما أضع نفسي مكان أهلهم وأصحابهم – أعرف بعض أصحابهم – لا أظنني مفجوعاً فيهم. الوجع الذي يقرصني ضوؤه علامة شيء آخر لا أعرف كيف أصيغه. كأنك نمت في بيتك المريح وصحوت لتجد نفسك عارياً على قارعة الطريق. كأننا ليس عندنا سوى هذا...

27. أفكر في مون وأتذكر أنه، في 12/2010 أو 1/2011 إثر اندلاع احتجاجات تونس – بينما الشرطة التونسية تقتل الناس في الشوارع – ظهر أحد الموالين لحكومة زين العابدين بن علي على قناة الجزيرة يسأل بنبرة استنكار: "هل أن الحل هو إحراق البلد؟ هل أن الحل هو إحراق البلد؟" الآن بعد سنة أو أكثر من اندلاع الاحتجاجات في مصر، أردد كلماته بشعور مختلف وصوته يرن في

أذني بينما تصلني الأخبار: هل أن الحل هو إحراق البلد؟

28. ولأنني أفكر في مون... يبدو لي موضوعياً، بالنظر إلى الوراء، أنها هندست حياتها بحيث تحصل على أقصى قدر ممكن من محبة أقصى عدد من الناس، حتى لو كانت المحبة – وفي ضوء أن مون "فشّارة" ولا تبذل مجهوداً صادقاً مع أحد، كان لا بد أن تكون – سطحية وزائلة. وحدنا نحن وربما اثنان أو ثلاثة غيرنا عرفناها بما يكفي لنحبها أو نكرهها من قلبنا... لكن هذه قصة لاحقة.

29. في نهمها للمحبة رخيصةً أو بلا مقابل وفي كونها – حتى هي – متزوجة ومستعدة أن تحب على زوجها، كانت مون تشبه الحبيبتين الأخريين؛ فقط يبدو لي أنها تجاوزتهما في شيء جوهري. ربما كانت أذكى من أن تصدّق الودّ المجاني المتقلب بلا توقف في دائرتنا. لا أقصد أنها كفّت يوماً عن السعي إليه بالتفاني ذاته؛ لكنني أظنها، عكس صبا ونرجس، كانت تدرك أنه لن يفيدها طالما هي غير مستعدة لتأدية ثمنه؛ لذلك لم يبد أنها تترجمه إلى معادل مباشرة بالمنهجية نفسها.

30. كانت صبا تجمع الناس حولها بالنفخ في بوق يعجبهم صوته ثم تستخدمهم بشكل يومي في حياتها وفي إحساسها بالتحقق في الحياة؛ أما نرجس فكانت تستدرجهم بوصفها ضحية للفقر والقبح والتخلف تمكنت من الانتصار على هذه الأشياء؛ تقتنيهم كما تُقتنى أعمال الفنانين، شيئاً فشيئاً، ثم وقت الحاجة تشهرهم في وجه مسائليها كالشهادات والمناصب... لكن مون كانت تفعل شيئاً أنبه بما لا يقاس. ولا أعرف كيف أصف ما تفعله مون حتى بعد أن أستعيد

كل ما أعرفه عنها، لكنني أظنه وطيد الصلة بالالتباس: كانت مساحة الالتباس عند مون – في اختفائها وظهورها، في تقلّب مظهرها، في اهتمامها بعملها السكرتاري ربما أكثر حتى من الكتابة – كانت مساحة الالتباس عندها أوسع من أي شيء؛ وهو ما أهّلها لأن تستريح في غرفة مغلقة كنّاها أنا ونايف وباولو، حيطانها مصنوعة من التطلع إلى الشعر.

31. أيام تأسيس التماسيح كانت قصائد مون قد بدأت تظهر في الدائرة على استحياء. كنا نعترف إنها أفضل بكثير من الأعمال النسائية الأخرى. ومع ذلك، حتى سنة 2001 عندما صارت جزءاً من حياتنا على غفلة، لم نلتفت إليها بأكثر من إشارة إعجاب عابرة.

32. "دماء" (من قصائد مون الأولى): **اليوم أيضاً/ زهور الخشخاش الحمراء الفاقعة/ تتفتح داخل ملابس/ لا يراها سواك/ وأعلى من وشيش السيارات المسرعة في الخارج/ صوت "إيديث بياف"/ يخبرني أن هذا الوجع/ هو طفلك الذي لن ألده// لماذا تذكرني الموسيقى أنه ليس ورداً/ أن وظيفته تزيين المخدر/ أنه يبدو بريئاً وهو شر// كل شهر/ ببهجة أكبر من أن يستوعبها تشريحك/ تحلو لي الخديعة/ حين أتأوه حتى تشفق علي من ألم/ يجعلني ضعيفة ومشتهاة/ وبينما تلحس دموعي تتفجر بداخلي ضحكات شرسة/ وأنا أقتل طفلاً آخر/ من أطفالك.**[1]

33. الآن تبدو مون أساسية وحاضرة إلى درجة أنني لا أصدق أنها لم تكن قد ظهرت بعد ليلة الألفية، أنه – بينما نحن في طريق عودتنا من الحفلة الرسمية الكبيرة المسماة "تويلف دريمز أوف ذا سان" أو

---

1 Edith Piaf.

"أحلام الشمس الاثنا عشر"، والتي أقيمت على هضبة الهرم في فجر 1/1/2000 – بالكاد كان في الحياة شيء اسمه مون.[1]

34. ليلة الألفية. وثبنا نصرخ من سيارة نايف "المازدا" الحمراء قبل أن تتوقف بينما هو يقودها في دائرة ضيقة، سيفرمل كالمجنون ما إن تكتمل. أصبحتْ السيارة تسد نصف الطريق تقريباً، أبوابها مفتوحة والموسيقى تصخب من سماعاتها. وكنا نتمايل بأقدامنا على حز الرصيف نتحدى الجاذبية حين بدأ قط يعبر نصف الطريق الباقي في مرور سيارة "همر" هي الأخرى ولا بد عائدة من الحفلة؛ لم نكن قد رأينا همر في حياتنا – لعل هذه السيارة كانت ضمن طلبية الهمر الأولى التي تصل إلى مصر – وكان حجمها ووزنها من البشاعة بحيث تأكد تعاطفنا مع الضحية: قط أشقر بشعر هائش حول وجهه جعله يبدو هو الآخر مثل أسد منمنم، الأمر الذي أبقاه ذكراً في ذاكرتي. صادف أن الموسيقى سكتت لحظة مرور الهمر، وكان الشارع هادئاً إلى درجة أن سمعنا عظامه تطقطق. الهمر كانت قد اضطرت إلى الإبطاء لتتفادى سيارتنا لكنها ما إن تخطتها حتى عادت تسرع. و لم تتوقف بعدما داست القط ولا انتبه سائقها على الأرجح إلى أكثر من مطب، أو ندبة.[2]

35. كنا صامتين تماماً حين عاد أحدنا مطأطئ الرأس بعدما تهادى إلى حيث الجسد الصغير وقد تسطّح تقريباً بحذاء الرصيف المقابل واختلفت معالمه، كأن القط تحوّل إلى مخلوق سوريالي سيسمّيه باولو

---

1 Twelve Dreams of the Sun.

2 Hummer ؛Mazda.

"سمكة الأسفلت" في قصيدة لاحقة. وسمكة الأسفلت هذه لم يجرؤ أحد منا على لمسها... لم نعلّق على ما حدث لا وقتها ولا في ما بعد. فقط وقفنا نشاهد كما اعتدنا أن نفعل منذ بدأنا نعي أنفسنا كشعراء، إلا أننا هذه المرة كنّا مبهوتين. ولا أعرف إن كان لمقتل القط دخل في الأمر أم أنه أثر الأقراص التي لم نكن قد كففنا عن ابتلاعها منذ غروب الشمس، لكن نايف عندما عاد إلى مقعد القيادة ليصف السيارة بعد الحادث مباشرة كان ينهنه بحرقة ملفتة.

36. شاهدنا القط واكتشفنا بشاعة الموت البطيء كما سنكتشف أن الحيطان التي تجعلنا غرفة سواء أسكنتها الحبيبات أم لا مثل الكيوف: لو صفيّتَها من أوهام أوّل جرعتين لا تنفع في شيء – بلا أوهام، تصبح الصداقة نبرة كلام مشتركة والحب "بورنو" تفاعلي – وأننا بالتالي لا يجب أن نقلّل من شأن الأوهام في حياتنا. كنا خضراً لا نزال مع أننا نكبر، مع أن أشياء تحدث تزيل خضارنا عنا. وأظننا بُسرنا حقاً بلا حاجة إلى أحداث سياسية ولا أفكار كالوطن والشعب. في الفترة ما بين إعلان التماسيح وحفلة "جان–ميشيل جار" تلك، حيث خليط سخيف من الصوت والضوء وزحمة رهيبة رغم غلو التذاكر وكون الأماكن الجيدة محجوزة للمسئولين، أظننا بُسرنا ثلاثتنا ولم تكن مون قد ظهرت في حياتنا. وربما كان لا بد أن نبسر.

37. حتى أرباب الحركة الطلابية – هكذا أحدس حين أتأملهم – ربما كانوا سيصبحون مبسورين بغض النظر عن الأحداث والأفكار التي كيّفت حياتهم أو بدا أنها تفعل. أحدس أن "أحلام الشمس الاثنا عشر" كانت بداية إدراكنا نحن التماسيح لمعنى الحياة، يوم

اتسعت أمامنا مساحة الرغبة إلى ما يتجاوز شهوة الجسد. وبدأنا نشك في أننا خُوزقنا.

38. سنة 1997 (وربما بعد ذلك) كان قد بدا أن جماعة التماسيح هي أهم شيء حدث أو يحدث، وبدرجة لم نعر معها موت رضوى عادل بالاً ومع ذلك، كانت أشياء أخرى مهمة تحدث، ليس في الدنيا من حولنا فحسب ولكن أيضاً – عبر هذه الدنيا – فينا نحن. كانت تحدث لنا تحولات. ولعل تحلّل الجماعة عملياً خلال عام من إعلانها (وإن ظللنا أنا وباولو ونايف ثلاث سنين أخرى نتعامل على أنها حية بشكل ما) لعل تحلّلها من قبل أن تترك أثراً دليل إضافي على أنها لم تكن بالأهمية التي توهمناها، بالذات في ضوء أن أشياء كانت تحدث...

39. حدث التالي – مبدأياً – قبل عيد ميلاد نايف الواحد والعشرين بنحو عام: وقع باولو في غرام امرأة متزوجة تكبره بعشر سنين أو أكثر، وتعلّق بها إلى حد أن بقي معها، وهو ينتظر أن تُطلَّق، أربع سنين. ينتظر أن تطلق أو تعترف به، على اعتبار أن الطلاق كما بدأت تقول له (في منتصف المدة تقريباً) غير مناسب لعمر ابنها الطفل الصغير. ومع تعلقه الصاروخي بها ظل يعذبه افتراض أنهما معاً ثم اكتشاف أنها في مكان آخر، مرة بعد مرة بعد مرة. أربع سنين.

40. وقع باولو في الغرام وبدأ يحكي لنا عن مَن يحبها وما يريده لهما معاً، الأمر المذهل في حد ذاته لأن باولو فيما يخصّ أشياءه العاطفية كان صموتاً صمت الفيل. بدأ يحكي لي أو لنايف أو لكلينا معاً، وباحترام غريب عليه حيال الشخص الذي يحكي عنه – لم يأبه

باستغرابنا أو ضحكنا وهو يواصل الحكاية – احترام أو تطلّع، كأنه إكبار. و لم تقف حكايته عند جسد منمنم ومصقول ولا عند طاقة تكفي، على حد قوله، ثلاثة عصور أدبية. لم تقف عند ابتلال شفتيه وجفاف ريقه، ولا ابتسامات صافية بدرجة لم نكن قد حسبناه قادراً عليها. بدأ يحكي و لم تقف حكايته عند لمعة في عينيه لم ندرك أنها دموع محبوسة حتى انبجست أمامنا مرة أو مرتين. وكان انبجاسها غير مسبوق لكنه لم يزعجنا ولا يُخجل باولو. على الأقل لم يجعله يكف عن مواصلة الحكاية.

41. بدأ باولو يحكي وكانت حكاية سمعناها من قبل. إما هذا أو أننا من كثرة ما تصورنا حدوثها بدا أننا سمعناها. كانت حماستنا لها – فضلا عن أننا سعيدان بأن باولو يحكي – مثل حماسة كاتب سيناريو يرى أحداث الفيلم الذي يسعى إلى كتابته منذ الأبد تتحقق أمام عينيه. لهذا صدقنا الحكاية ستة أشهر وربما ثلاثة إضافية. أنا ونايف. صدقنا الحكاية فعلاً وشجعنا باولو على أن يعيشها. إلى أن بدا أنه يعيشها بمفرده. بدت مختلفة عن ما يحدث في الواقع وبدا أن لا معنى، من ثَم، لتصديقها. عندما واجهنا باولو بأننا لم نعد نصدق الحكاية كان ذلك قاسياً جدا عليه، وبدأت قسوته تتجلى في صياغات متجددة ظل ينتجها للحكاية نفسها ثلاثة أعوام أخرى.

42. كان باولو يعيد إنتاج الحكاية من أجل نفسه طبعاً وإن بدا أنه يسعى، مع كل صياغة جديدة، إلى إقناعنا. لكنه سيضحك معنا من قلبه وهو يعترف، بعد أربع سنين من لقائهما، بأن بطلة حكايته تستخدم صياغاته للحكاية في الترويج لإنجازاتها الفنية، بالذات

بعدما علا نجمها في دائرتنا. وكأنه لم يحبها إلا ليصبح مؤهَّلاً لتأليف برنامج تسويقي مناسب لـ"كارير" سيقتضي اختفاءه.[1]

43. حدث هذا الشيء وكان غير مسبوق إن لم يكن في الدائرة ففي جماعتنا؛ ولا أظننا فهمناه تماماً، ولا باولو نفسه فهم، حتى 2001.

44. ولكي أبرهن لنفسي على أننا حتى ذلك الحين كنا ندخل في العلاقات ونخرج منها بسرعة، بلا غرام، أذكر أن باولو عندما التقى بحبيبته هذه كان قد انتهى لتوه من علاقة شهر واحد مع ناشطة حقوقية معروفة بلغت منتصف الثلاثينيات أو جاوزته: صبا - كنا نعرفها جميعاً من بعيد، بهيكلها الطويل وشعرها البني المشعث، وإن تكفّل كتمان باولو المعهود بأن لا نسمع بعلاقتهما؛ سأقيم أنا مع صبا علاقة أعمق كثيراً بعد ثلاث سنين، لكنني لن أعلم بأمرها مع صديقي حتى شتاء 2007، قبل أربعة أعوام من التحرك الكبير، انتفاضة أو ثورة أو احتجاجات 25 يناير على اختلاف تسمياتها بحسب وجهة نظر المتكلم - ولعل باولو ذاق مع صبا شيئاً لم يستطع أن يفلته للمرة الثانية، خاصة وأنه وجده في شخص (كما بدأ يصف لنا حبيبته الجديدة، ونحن نصدّق) هو نفسه - أقصد الشخص - عبارة عن قصيدة سرية.

45. لم يمر أسبوع على انفصال باولو عن صبا - أقول - حتى شُغف بقصيدة سرية اسمها نرجس، كانت وقتها قد تخطت الثلاثين. لم يكن أحد منا قد سمع بنرجس مع أنها رسامة طليعية موهوبة، كانت جُرأة لوحاتها في التعبير عن أزمة الفتاة المتحررة حين تقرر أن تعيش

---

1 Career.

لوحدها في مجتمع مغلق قد بدأت تلفت إليها النظر منذ بضع سنين. ومع ذلك، لن ينتشر اسم نرجس في الدائرة حتى تقيم معرضاً كبيراً في "التاونهاوس جاليري" إثر افتتاحه سنة 1998، ولن يكون باولو قد تمكن من الاختلاء بها طوال عامين سوى مرتين أو ثلاثاً.[1]

46. في بدايات 1996 تقريباً – قبل وقوع باولو في نرجس بقليل – بدأ اهتمام نايف بحركة أو مدرسة أو لوثة "البيت جينيريشن جيل الخمسينات الأمريكي، والذي اشترك أربابه مع جيل التسعينات المصري في التمرد على المجتمع بتعاطي الكيوف والتجريب الجنسي وعدم التوقف عن الكلام، مطابقين بين الكتابة وحياة غير تقليدية صحبة المتشردين والصيّع وإن فعلوا – أقصد شعراء البيت جينيريشن – بجرأة واستغناء لم يتوفرا لأرباب دائرتنا في العموم. كان أرباب دائرتنا، فيما أسترجع، أقل استعداداً للمغامرة أو الحب وأكثر إقبالاً على الرفاه، وكانت الحياة التي يطابقون بينها وبين كتابتهم محكومة بقواعد لا يأتي ذكرها في الكتابة.

47. وقت وقوع باولو في نرجس بدأ اهتمام نايف بالـ"بيتنيكس" وبأشهر شعرائهم على وجه التحديد: ألن جينزبرج، ابن الناس اليهودي الذي لم يستقم له النوم مع امرأة واحدة طوال سبعين عاماً عاشها بالطول والعرض وكل الزوايا المحتملة... وهو ما سيقود نايف خلال أربع سنوات وعبر تسلسل لا معقول إلى مون، ثم عبر مون إلى آخر حكايتنا؛ ولكن إلى أن يجيء وقت هذا الكلام.[2]

1 Townhouse Gallery: أحد أشهر مراكز العرض الفني في وسط القاهرة.

2 الـ Beat Generation جيل "البيت" والكلمة إشارة إلى دقة إيقاع موسيقى "البي–

48. نتيجة تعليمه في المدرسة البريطانية في الزمالك إلى نهاية المرحلة الإعدادية (سيحصل على الثانوية البريطانية من مدرسة "المانور هاوس" توفيراً للمصروفات)، ونتيجة إقباله على القراءة بالذات، كان نايف يعرف الإنجليزية أفضل من أي مصري قابلتُه. ورغم أنه، كما أعلمني، يكره الشعر الإنجليزي بصفة عامة – حتى الحديث منه، والمعاصر – اشتعلت دائرة كهربائية في رأسه عندما وقع في يده كتاب مختارات من أعمال البيتنيكس تضمن قصائد لـ"جاري سنايدر" وطفل الشوارع "جريجوري كورسو"، لـ"كارل سولمون" زميل جينزبرج في مستشفى المجانين و"لورانس فارلنجيتي" الذي بادر بنشر أعمال الجميع، فضلاً عن مقاطع طويلة من روايات **على الطريق** لـ"جاك كارواك" **والشمام والغداء العاري** لـ"وليام باروز" قال لي نايف إن جينزبرج أكثر من أحبه من كل هؤلاء، وإن ترجمته إلى العربية قد تكون هي التحدي الأمثل للشاعر المصري السري.[1]

بوب" Bebop (تطور مزامن في الجاز Jazz) وإلى التعب أو الهزيمة سواء، ويُعرفون أيضاً بالبيتنيكس Beatnicks. كون هذا الجيل حركة مؤثرة في أدب الخمسينيات في أمريكا، تمركزت في نيويورك وكان لها معادل في سان فرانسيسكو سمي الـSan Francisco Renaissance، كان من أعلامها Kenneth Rexroth و Robert Duncan. والشاعر Allen Ginsberg المولود عام 1926 والمتوفى عام 1997 من أشهر شعراء أمريكا على الإطلاق.

1 اسم المدرسة Manor House والمقصود بالثانوية البريطانية شهادة GCSE بمستوييها: O Levels و A Levels. أما أشهر كتّاب البيتنيكس المؤسسين فهم الروائيان Jack Kerouac مواليد 1922 ووفيات 1969 و William Burroughs 1914 و1997م. وكذلك الشاعر Allen Ginsberg صاحب قصيدتي Howl (عواء) و Kaddish ("الكاديش في الشريعة اليهودية هي صلاة بالآرامية يتلوها الابن البكر في المقبرة قبل دفن أحد الوالدين؛ وقد يعاود تلاوتها يومياً بعد الصلاة، لمدّة أحد عشر شهراً.) فضلاً عن القصيدة القصيرة "الأسد يجد" ("الأسد على حق") أو "The Lion for

49. هكذا كان نايف قد أمضى شهوراً يقرأ كل ما استطاع أن يحصل عليه من أعمال جينزبرج حين شُغف باولو بقصيدة سرية اسمها نرجس. كانت نرجس امرأة متزوجة تكبر باولو بعشر سنين. و لم يمر أسبوع على انفصاله عن صبا حتى شُغف بنرجس.

50. كانت نرجس فتاة طموحة هربت من قريتها في المنيا وتزوجت في عمر مبكر من شاعر يساري معروف تركته إلى آخَر أصغر سناً لكنه أيضاً يساري وشاعر، ثم غابت بضعة شهور في سوريا أو اليونان (لا يعرف أحد على وجه اليقين وقد تضاربت أقوال نرجس نفسها). وبعدما عادت بعام أو اثنين، استقرت في الإسكندرية مع مهندس مدني موسر حاصل على دكتوراة من أمريكا، تزوجته وأنجبت منه الولد الصغير. هذا المهندس – اسمه، كما أتذكره أو أتخيله، أشرف – كان يهوى الفن المعاصر وصحبة التشكيليين أو الإنفاق عليهم، وقد عشق نرجس سراً منذ التقاها عبر أصدقاء له أيام كانت تدرس في كلية الفنون الجميلة في الزمالك بدعم زوجها الأول، قبل عودتها من سوريا أو اليونان بنحو ست سنين.

51. كانت نرجس فتاة طموحة هربت من قريتها لكنها نادراً ما اعتمدت على نفسها مادياً. و لم ينتبه أحد إلى هذه المعلومة مع أن افتراض أنها استقلّت بحياتها هو سرّ احترام دائرتنا لها وإقبالنا على أعمالها المبتعدة أكثر فأكثر، منذ معرض التاونهاوس، عن مساحة

Real" "على الطريق": On the Road؛ "الشمام": Junkie؛ و"الغداء العاري": Naked Lunch. ومن شعراء البيتنيكس أيضاً Gary Snyder و Gregory Corso و Carl Solomon و Lawrence Farlinghetti مؤسس مكتبة ودار نشر City Lights الشهيرة في سان فرانسيسكو، وكان الأخير صديقاً لشاعر المهجر العراقي سركون بولص.

الجرأة والانتماء التي استطاعت أن تشغلها بمرونة مقنعة في البداية. كانت نرجس فتاة طموحة وأعتقد أنها أحبت باولو فعلاً – لا داعي لنكران أنها أحبت باولو – لكن باولو هو الآخر فعلاً أحبها، بجنون.

52. ولم يمر أسبوع على انفصال باولو عن صبا حتى بدأ يحكي. كانت حكاية سمعناها أو حكاية تخصنا (لا تشبه الوقائع المسرودة في الفقرتين السابقتين وإن لم تناقضها بالضبط)؛ ومهما نفينا ذلك لاحقاً أو حاولنا أن نترفّع عنه: حكاية الفتاة الريفية حين تعبر نهراً من الفقر والتخلف على متن مركب اسمه الثقافة. وتتبيّن نفسها شيئاً جميلاً على الضفة الأخرى. هذا العبور يخصنا. أن تكون الثقافة مركباً (أو الكتابة، الفكر، النضال...) أن تكون التي عبرت فتاة أو أن تصبح شيئاً جميلاً قبل أن تتبين نفسها كذلك. وكم هي رائعة الأشرعة والمجاديف بغض النظر عن أن أحدنا أحبها.

53. بعد معرض التاونهاوس – خلال عام ونصف تقريباً من بداية تشكيكي أنا ونايف في صدق الحكاية التي يحكيها – سيخفت جمال العبور في عيني باولو نفسه وقد نفر من جوع نرجس للـ"نيتووركينج" والسفر شهوتها لأن تكون سيدة مجتمع داخل دائرتنا على حساب وقتها معه، دعك من أسرتها في الإسكندرية، ثم قدرتها الملفتة على إقامة علاقات.

54. كل هذا وليلة الألفية لم تأت؟ ولا مون؟

55. باستثناء أشرف، ربما، لم تنم نرجس مع أحد غير باولو أثناء

1 Networking: التفاعل عبر شبكات اتصال (Networks) لإقامة وحضور التظاهرات الثقافية.

علاقتهما، لكنها لم تكف عن إقامة علاقات. وبما أنها تتعمد التصرف كما لو كانت رجلاً منذ مراهقتها في المنيا (الطريقة الوحيدة للحصول على حريات من قبيل الخروج لوحدها، الجلوس في مقهى شعبي بعيد عن قريتها، أو الرجوع إلى البيت بالليل؛ وهي حريات لن تحصل عليها حتى تغادر المنيا على كل حال) لكن شرطها – أن تكون رجلاً أو مثل الرجل – سيظل يمنحها مصداقية في الدائرة؛ وبما أنها تفعل كل ما في وسعها لإثارة حقد نظيراتها أيضاً، ولا تكف عن افتعال القضايا: مباريات أذى مجاني أوسخ إجمالاً من أن يكون لها صلة بالإبداع، لكنها تؤكد لنرجس حضورها وتستفز المحيطين.بما يكفي لشن حملات صحفية عليها تشعرها بأنها مهمة ومثيرة للجدل... بما أنها تستعين على كل ذلك بأناس يمكن أن يعينوها، ظلت علاقات نرجس كلها مع رجال، الأمر الذي لم يتَح لباولو الاعتراض عليه لأنهما، على حد تعبيرها، شخصان كبيران ومتحضران.

56. ولم يُتح لباولو الاعتراض، تحديداً، لأن نرجس كانت تحدّثه عن كفاحها. كانت حكايتها حكاية كفاح أيضاً وكانت حكاية مبتذلة – الأمر الذي لن يتضح إلا لاحقاً – لأنها ستُحكى عشرات المرات في حياتنا: حكاية كلّ مثقفات دائرتنا تقريباً، منذ التسعينيات: من تسلط أسرة فقيرة إلى إهانات ذوي اليد العليا في أماكن العمل المؤقت والفضاءات الثقافية، أو شبقهم: حماستهم لاقتناء شيء رخيص وجاهز نادراً ما يتوفر بهذه البساطة – الشبق الذي لم تستفد منه نرجس ولا مرّة واحدة طبعاً والذي لم تؤججه أو تستغله، ولا تخلط بين استقباله والتحرر بدافع استغلال – ثم رجالها الساعين

إلى السيطرة عليها: هل تعرف كم هو صعب أن تحافظ امرأة على استقلاليتها بأن يظل دخلها أعلى من دخل زوجها فيما تبقى زوجة وفيّة أو مطلّقة لا يتجرّأ عليها الرجال؟ هل تعرف كم هو صعب أن تفعل وتتحقق إبداعياً في الوقت نفسه؟ هه؟ هل تعرف؟ وإلى أن أصبح لها اسم معتمد في الدائرة وأصبحت، في عيون أصدقاء لا تفرق معهم الحقيقة، ربة أسرة ناجحة فضلاً عن عبقرية الجيل...

57. المثاليون في الحياة كثيراً ما يكونون أقل أخلاقاً من غير المثاليين في النهاية، كما يكون المتدينون أقل إيماناً والمسيّسون أقل التزاماً بأيديولوجياتهم. كذلك الرومانسيون – أفكّر – يكونون أقسى من سواهم بما لا يُقاس. تكون رومانسيتهم سطحاً والعمق استرخاصاً للحياة وقسوة. قسوة رهيبة تكون عند الرومانسيين.

58. وأتذكر أن ليلة الألفية لم تكن قد جاءت بعد حين انجذبنا إلى صبا جعداء الشعر ونرجس مدورة التضاريس... لكن القط – بعدما عرفناهما – لم يمت على الفور. اليوم أفكر أن وقوفنا مسمرَّين بحجة الاستماع إلى الموسيقى في هواء الشتاء بينما القط يحتضر عرّفتنا للمرة الأولى أننا – مثل جيل السبعينات وأرباب الحركة الطلابية – نحن أيضاً مبسورون.

59. شاهدنا القط كما سنشاهد الصداقة والحب يدفعان أحدنا إلى أن يتمنى الأذى للآخر، يتحوّلان من شيء مفرح يجعل شخصين يسلكان معاً إلى شيء كريه يجعل كلاً منهما يتحاشى مسلك الآخر أو يخبّئ له سكيناً وراء ظهره على المنحنى. لا شيء أبشع من أن تجد نفسك راغباً في الشر لحبيب أو صديق، ولا فائدة من فكرة الصلح

والغفران لأنّ القط يكون قد اندهس بالفعل. تشعر أنك الآن بالتودّد إلى الذي كنتَ معه إنما تكذب أو تنتقم بطريقة عكسية، أو تشعر أنك مازلت تبحث بلا جدوى عن روعة زالت في شيء أصبح قبيحاً؛ زالت، أو لم تكن عمرها موجودة وأنت هلوستها ثم أفقت. وفي كل الحالات تكون مضطراً إلى الاعتراف بأن خلاصك، ما حسبته يغنيك عن الطموح إلى حياة مجدية إن لم يكن للتحقق، ليس سوى شيء أنت هلوستَه قبل أن تفيق.

60. هكذا سيتضح حرص نرجس على حضورها في مجتمع الرجال بلا أي اعتبار لغير السطوع؛ ومع أن سطوعها سيظل معتمداً على الحكاية التي علّمها باولو أن تحكيها بصياغات جديدة، لن يكون لباولو حق الاعتراض على هذا الحرص.

61. دعك من غيرتها هي على باولو (نرجس تصر على أنها ليست بالمرأة الغيورة وأنها لم تغر على أحد في حياتها، لكن غيرتها على باولو هستيرية): ظل تحفظ الحبيب على العضو الافتراضي الذي تلوّح به حبيبته من مركز دائرتنا إلى أطرافها يُعامل بوصفه تخلفاً وتعسفاً ذكورياً. بينما الحقيقة، كما اعترف لي ذات مرة بنفسه ونحن نحشّش طوال الليل في شقة أهلي في شارع سليمان جوهر قرب ميدان الدقي، أنه يوجعه أن يراها تبدّي حياتها الاجتماعية المقترنة كلها بـ"كاريرها" على وقتهما معاً، حتى وهي تخبره باكية بأنها لم تحب غيره في حياتها وتفضّل الموت على أن لا يكونا معاً. و لم يكن نومه مع أخريات أجمل وألطف من نرجس ولا استعداد بعضهن للارتباط به يخفف وطأة الوجع.

62. أظن حديثنا وقع في شتاء 1999: في شتاء 1999 كان الحشيش المغربي قد بدأ يظهر و لم نعد مضطرين إلى الاعتماد حصرياً على البانجو؛ أذكر بوضوح أننا كنا ندخن حشيشاً أشقر عبقرياً في جلسة اعتراف باولو تلك.

63. نرجس تنتفض في ذراعيه بما يؤكد له أنها تحبه – هكذا أخبرني باولو – لكنه يوجعه أن تبقيه خارج حياتها العلنية لأنها (فيما هو لا يزال طالباً في جامعة الأزهر) زوجة وأم، مع أنه لم ير زوجها معها أو يسمع بأنهما التقيا إلا في افتتاح معرض التاونهاوس؛ وكان انطباعه أن علاقتها بابنها تتلخص في إيجاد من يحمل عنها همه حين لا يكون وقت أشرف مواتياً، ثم تركه في رعاية أشرف بقية الوقت. أن تُبقي باولو خارج حياتها بينما تملأها برجال تسميهم أصحابها ولا تخجل من استضافتهم بعد الخامسة صباحاً في الستوديو الذي استأجرته لوحدها في وسط البلد، ويكون من طبع أشرف أو طبيعته أن يسمح لها بأن تفعل: كان ذلك يوجع باولو فعلاً بغض النظر عن التخلف والتحضر، عن هوسها بإثبات أنها الأشطر والأكثر استقلالاً عبر رجولتها، وعن رغبته في أن تكون له وحده. وامرأة.

64. ليلتها، بعدما ذهب باولو، خطر لي للمرة الأولى أن الشيء لا ينتفي بنقيضه. وكما أن الجهل يؤدي إلى مشاكل لا يحلها العلم بالضرورة، هناك أذى يوّلده التخلف حتى بعد أن يحل التحضر محله بالكامل. يظل الأذى يتولّد لمجرد أن التخلف كان ذات يوم هناك.

65. وقع حديثي مع باولو سنة 1999؛ سنة 2009 – كما سأكتشف – هو سرّب هذا الكلام إلى إحدى مساحات التعليق على موقع "يو–

تيوب"، أسفل فيديو لا علاقة له بشيء: كمن يعبّئ الهواء في قناني، حكت لي عن غياب المرجعيات. كيف كانت تتحرك من دماغها. لا شيء يقاس ولا أحد يستحق. فتاة طموحة في المدينة. وعوضاً عن القرية، نُقود تجيء بطلوع الروح وأسرة بديلة من الأصدقاء. ليس فيهم من يُعيلها، لكن الألفة تنز بالوصاية. وبالتدريج تصير المدينة هي الأخرى قرية، الفرق أنها بلا مرجعيات. كنت دائماً أسألها لماذا تتمسك بالحياة الزوجية. وذات ليلة كمن يعبئ الهواء، حكت لي كيف ألقت دعائمها في سلة القمامة. حيث الأماكن فخاخ والكتب أغلى من الأغاني، ستنجز مشروعها منفردة. وقبل أن يغمز لها الإنجاب باحتمال أن تتغير، لن يخطر ببالها أن امتزاج الدماء قد يكون مؤشّراً للتوازن. كانت تحدّق مذهولة كل بضع عبارات. وبدا لي أنني أراوح الذكريات في درجة اقترابي من مكانها على الكنبة وقد صارت لقاءاتنا تمثيلية مربكة. نقطة البداية مفتوحة الآفاق. لكن أحداً من الجناة لن يختفي، ربما لأنهم ليسوا الجناة. أو أن هوساً أصبح يجاور هوس أن يصير الناس جسوراً، من أن يصيروا عراقيل. لهذا تبدّل رفاق الدرب دون أن يتضح اتجاه الرحلة. وعبر المحطات ظل الطريق أضيق من أن يتسع لاثنين.1

66. سنة 1999 وقعت أشياء كثيرة بالتوازي مع إحباط باولو في نرجس. وخلاف الأحداث الأدبية التي كان من شأنها أن تعدّل شروط النشر والانتشار: لم نع ما يجري لنا بوضوح – ولا أننا في طريقنا إلى أن نكبر، فجأة – لكننا بدأنا نرى كيف يتحول الناس داخل العائلة البديلة التي تنطوي عليها دائرة المثقفين في القاهرة إلى جسور يعبر فوقها أقرانهم نحو مستقرات أقرب إلى مراكز المال والسلطة،

1 YouTube.

وكيف يتحولون أيضاً إلى عراقيل في طريق بعضهم إلى تلك المراكز. كانت أنماط سلوك من شأنها أن تستتبع تخويناً أو أبلسة في الدائرة ثم دهشة وذعراً في المجتمع الأوسع تبلغ ذروتها سنة 1999؛ وكنا من حيث نرى أنفسنا تحت خطر الدين والتقاليد وأمن الدولة نتعاطف مع أصحابها ونرى الجسور التي خلّفوها وراءهم شيئاً عادياً ومتوقعاً ومختلفاً عن العراقيل.

67. العراقيل شر متعمد يتواطأ مع الوضع القائم – هكذا كنا نراها – أما أن يجد أحدنا في آخَر من طبقة أو بلد أخرى سبيلاً إلى وضع جديد في الحياة، فهذا جيد ومشروع وعلى أي حال أقل بيضاناً من أن يبقى على وضعه. أقل فشلاً. يخطر لي الآن أننا كنا نحب كلمة تطور كثيراً مع أن معناها الوحيد الممكن، وسط الأوضاع التي نعيشها، هو التسلق الطبقي. كيف ظل التطور، في كلامنا، ضرورة تتحقق عبر وثبات حرة في الفراغ؟

68. وبعد عشر سنين من نهاية حكايتنا فعلاً سأرى، قبل بضعة أشهر من الآن. في 9/10/2011، سأرى لماذا العادات والتقاليد ولماذا العيب والحرام ولماذا التجارة بالقيم من خلالهما. كل مرة. لماذا المهرب الوحيد من هذه الأشياء هو الانتماء إلى طبقة أغنى أو أقدر. سأرى كثرة الكلام وعلو نبرته عن أننا مصريون أو عرب أو مسلمون أو، داخل دائرتنا، عن أننا لسنا كذلك. وسأرى شبلاً يفر بحياته من زوج أمه الآتي لقتله في البرية. لهذا يبدو كل شيء كأنه نسخة زائفة مما يجب أن يكون؛ سنة 2011، فقط – بعد اعتصام الثمانية عشر يوماً

1 المقصود بالأبلسة Demonisation.

الذي أودى برئيس الجمهورية أو اسمه بعشرة أشهر، وقبل اندلاع احتجاجات أخرى على قيادة الجيش التي ورّثها الحكم قبل أن يرحل – سأرى مريضاً مذعوراً يتباهى بصحة مفقودة وهو يخطف يد الشخص الذي أمامه مرتعشاً لينحني عليها يقبّلها طلباً في المساعدة، وسأرى أن حكايات العبور هي بالضرورة كاذبة لأنه لا مكان يعبر الطامح إليه. فقط التسلق الطبقي؛ وإلى أن تشغل مساحة تُمكّنك من التعالي على الآخرين، العادات والتقاليد والعيب والحرام أو كثرة الكلام عن أننا عرب ومسلمون.

69. سنة 1999 وقعت أشياء كان ضمنها صدور فيلم "ذا ميتريكس" شاهدناه في بيت مستعرب أمريكي عنده شاشة سينما صغيرة و"بروجيكتور"؛ وشاهدناه بلا كيوف لأنه، كما قال لنا ذلك المستعرب بعامية الشوارع، "فيلم برشامة." فعلاً ذهَلنا "ذا ميتريكس" أكثر من أي فيلم كنا قد شاهدناه حيث عبّر، مع الأكشن ونهاية آملة، عن فكرة عميقة تنطبق على حياتنا كما نراها.[1]

70. لم يكن "ذا ميتريكس" مجازاً لما قد يحدث في حياة البشر إثر النظام العالمي الأحادي والثورة الإلكترونية فقط ولكن أيضاً للتمرد على وضع قائم أو إنقاذ الإنسانية بواسطة جماعة ثورية تعمل في الخفاء: إن كل ما نراه ونحسه ونفعله عبارة عن واقع افتراضي يضخه في رؤوسنا حاسوب عملاق تطور حتى تجاوز السيطرة البشرية وامتلك الأرض. وبينما الدنيا خراب، الناس في غيبوبة وأجسادها من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت حبيسة حاويات متصلة بالحاسوب،

1 The Matrix: Action: Projector.

كل غايتها أن توفر للحاسوب وللماكينات الملحقة به الطاقة التي تحتاجها مقابل حد أدنى من الغذاء يحقنها به إلكترونياً... إلى أن يظهر، وسط المعارضين الذين تمكنوا من استرداد أجسادهم في الواقع الملموس وإدراك ما آلت إليه الإنسانية، مخلّص كان البشر قد تنبأوا بمجيئه قبل سنين.

71. سنة 1999 ذهَلنا فيلم "ذا ميتريكس"، وتعدّلت شروط النشر والانتشار. كان شيء يتغير منذ بداية التسعينيات – شيء سيؤدي إلى تفتت التماسيح وإحباطنا والثورة، بعد ظهور الأسد – ليس فقط في تحول الإسلام السلفي من نشاط سياسي تحت الأرض إلى وجيب اجتماعي فوقها. كان شيء يفتح مجالاً للعمل ويحرّك الأموال قليلاً فيما الحكومة تجتر مدخول الخصخصة. وكان "فكري إبراهيم" قد طرح نشراً مستقلاً عن طريق دار جنوبيات بعد عودته من النرويج سنة 1991، السنة نفسها التي صدر فيها أول عدد من "الأدب المغاير" (كتب هاني فولة في الافتتاحية: "ننظر خلفنا بقسوة وعنف، وأمامنا بتحديد وإصرار. فأفسحوا لنا الطريق!")

72. معتمداً في التمويل على مساهمات الكتاب، سنة 1991، كان فكري إبراهيم قد طرح نشراً. والآن بعد ثماني سنوات، بينما سمحت أجواء أكثر انتعاشاً لمحمود هشام بتأسيس دار سيرين في القاهرة ولبهاء زايد بإطلاق مجلة أجواء في الإسكندرية – على عكس وليام ويلز، المواطن الكندي الذي أسس التاونهاوس، لم يلجأ أيهما إلى تمويل أجنبي قد يُفقد المشروع مصداقيته أو يعرّضه لحملات صحفية – بدأ رغي التسعينيات يقل.

73. كانت طاقة شعواء لم تنتظم بما يكفي لتنجز تجد لها مستقرات نصف آمنة أو نصف شرعية، وكنا نتناسى أن ما ينشره محمود هشام مثل ما ينشره فكري إبراهيم في طبعات محدودة بالكاد يصل إلى المكتبات ونلاحظ بسخرية أن الإسلاميين في البرلمان حين يثيرون فضائح تستتبع مصادرة، لا يستهدفون سوى مطبوعات وزارة الثقافة. لكن الانتعاش الحاصل فتح ملاعب جديدة؛ أصبح أمام فنانة مثل نرجس فضاءات عرض خارج وزارة الثقافة والصالات التجارية الموالية، وأصبح هناك من يرى أعمالها من الأجانب والأغنياء المهتمين بالفن والعرّابين المحيطين بهم بالذات، المستعدين لدفعها في اتجاهات بدا أنها متقدمة ومتطورة ويمكن أن تسمح بحكاية عبور آخر، أو تجاوز.

74. بالتدريج ستهجر نرجس الرسم بالزيت والأكريليك على القماش والورق إلى الأعمال المجهّزة والفيديو؛ سيستهويها، مع الوقت، الـ"كونسيبتيوال آرت" وستبدو حتى لوحاتها الأولى القوية، في ضوء الأعمال الجديدة هذه، كأنها أشباه أعمال مصنّعة للإبهار. لستُ ناقداً تشكيلياً ولا أعرف كيف أشرح، لكن مع نجاحات نرجس المتتالية بدأتْ أعمالها تبدو كأنها مظاهرات فئوية، في مقابل المظاهرات المواطنية الهادفة إلى إسقاط النظام. كأن الفنانة، بذكاء أو بخبث أو شيء بين الاثنين، تستبق رد فعل الناظر لتعطيه ما يريد مُحوّراً فقط قدر ما تقتضيه الإثارة، وبلا اعتبار لشيء قد تريد أن تقوله له. تبدع من أجل أن تثبت شيئاً أو أن تحصل على شيء، أقصد، ليس تعبيراً عن إرادتها.[1]

1 الأعمال المجهزة: Installation. و Conceptual art هو جنس فني معاصر يقوم على

75. كنتَ تحس أن نرجس رسمت أشياء تشبه الحكاية التي يحكيها باولو، وبذلت مجهوداً أكبر في إثبات أنها حكايتها من المجهود الذي بذلته في الرسم. هكذا كانت تبدع ثم تعيش ما أبدعته بغض النظر عن ما ترغب فيه أصلاً من أعمافها... على عكس ما نؤمن به من أن الخبرة هي التي تنتج الإبداع: أن الإنسان يعبر أو يتطور أولاً ثم يصبح شيئاً جميلاً. بسرعة عرفنا أنا ونايف أن نرجس بهذا المعنى تبدع لتعيش، لا تعيش لتبدع. وعرفنا أن هذا سيفسد كل شيء.

76. بالتدريج، سنة 1999، أصبح هناك أناس يتعيشون من نشاطات عالمية ليس لها فائدة سوى أن المفروض أنها تشجع الإبداع، درجوا على تنظيمها في مساحات مسيّجة ومنفصلة عن المجتمعات بامتداد العالم. وحيث تماهى بعض مبدعي دائرتنا مع ما تتيحه هذه النشاطات لهم هم، أصبح من السهل أن ينسوا الإبداع نفسه، دعك من طموحهم إلى ذيوعه خارج حدود الدائرة.

77. بعد معرض التاونهاوس، ستستقر نرجس في الستوديو بمفردها بشكل دائم؛ وحين يحدث - ويكون باولو قد تخرج من الجامعة وحصل على عمل بالقطعة كمصور فوتوغرافي في جريدة "الأهرام ويكلي" - سيظن أن فرص لقائهما قد زادت وأنه يمكنها الآن، وقد استقلت بحياتها نسبياً و لم يعد هو مجرد طالب، أن تتخذ الخطوة التي وعدته بها منذ ولجها للمرة الأولى في الإسكندرية. أن تُطلَّق. خاصة وأن علاقتها بأشرف منتهية عملياً من قبل أن تلتقي بباولو، كما ظلت

المفهوم (concept) يوظف وسائل غير تقليدية قد تستغني عن الوسائط التشكيلية بشكل كامل.

تؤكد له منذ ولجها فبدا له أن الكون كله التأم واستتب. إن الطلاق ليس سوى إجراء. منذ التأم الكون كله.[1]

78. سنعلم أن الولد يتنقل بين أبيه وعمته، وأن أشرف رغم استيائه من غياب نرجس وغضبه من علاقتها بباولو حين عرف، ما زال حريصاً على وحدة وانسجام أسرته الصغيرة. وسنعلم أنه ما زال خائفاً من انهياراتها العصبية التي عادة ما تستتبع محاولات انتحار (تظل المحاولات خطرة حتى لو لم تكن جدية). لم ينتبه سوى نايف إلى أن الفنانة التي أحبها باولو رغم ما تُحدّثه به من غرام نهائي ليست مستعدة أن تضحي – في سبيل أن يكونا معاً لليلة أو لأسبوع أو لشهر – بحفلة واحدة أو عشاء، دعك من معرض بين نابولي ومارسيليا وبارسيلونا أو محاضرة في أوستين–تكساس أو حتى ندوة في شبين القناطر... ولا أن تغامر أكثر مما ينبغي بتعاطف زوجها مع مرض بدأ نايف يقول إنها توحي له – لأشرف – بأن باولو أيضاً من أعراضه.

79. وأذكر أن باولو نفسه، بعد خمسة عشر عاماً – ونحن نشرب الشاي في المقهى الوحيد المفتوح أثناء استراحة قصيرة من اعتصام الثمانية عشر يوماً من 28/1 إلى 11/2، وكان شارع شامبليون في تلك الفترة هو المكان الذي نهرب إليه من الزحمة والإجهاد – سيأخذه الحنين إلى أيام التماسيح ويقول كلاماً يوحي بأن الأمر لم يكن كله بريئاً، بأن نرجس كانت نموذجاً للنجاح قدر ما كانت تجسداً للتجاوز، بأنه رأى في الارتباط بها فرصة لتخطي حيطان اجتماعية غبية كما دعاها، الأمر الذي ما كان ليصدقه أيّنا في حينه حتى لو

1 Al Ahram Weekly: الإصدار الإنجليزي الأسبوعي لمؤسسة الأهرام.

اعترف به باولو (ولعله اختلق هذا الدافع في ما بعد ليخفف وطأة هزيمته في الغرام لكن لعل الدافع كان أيضاً حقيقياً، على نحو ما): باستثناء نايف، ربما، إننا في مساحة خبيئة كنا نريد أن نستغل من أحببناهن في القفز فوق أسوار ظنناها ستواجهنا على الطريق.

80. عندما يصبح الناس جسوراً، يصبحون أيضاً عراقيل. الذين يعبرون فوق من أحبوهم إلى حيث يرون شيئاً يتطلعون إليه، هؤلاء أكثر من يجدون في المحبة سلاسل تقيّد تقدمهم أو صعودهم، حتى عندما تكون المحبة في خدمة أغراضهم المباشرة. ومثل تاريخ الإنسانية بحسب الرواية الماركسية، تظل حياتهم محكومة بالحركة إلى الأمام في خط مستقيم. الذين يكرهون أنفسهم لأنهم عبروا فوق من أحبوهم ثم لم يجدوا شيئاً على الجانب الثاني أو لم يكفهم ما حصلوا عليه بالعبور، هؤلاء أول من يكونون على استعداد لقطع الطريق على عابر جديد.

81. من مكاني الافتراضي الآن أفكر أن أصدقاءنا صاروا على هذه الشاكلة أكثرهم للسبب نفسه الذي جعلهم يحتمون بالدائرة في البداية، لأنهم جاءوا من وراء الجاموسة ويعلمون. الإشارة الأكثر رواجاً إلى احتقار الريف: من وراء الجاموسة. لكن الجاموسة التي تشغلني ليست رمز الجهل والفاقة كما يُقصد عادة بالإشارة. وهي طبعاً ليست محددة جغرافياً. أنا أتحدث عن المكر والمهادنة، الجبن الذي يؤدي إلى التكتل حتى لو كان الانطلاق مدفوعاً بالتمرد على الكتلة الاجتماعية. التكتل، أقصد، أو الحياة دائماً تحت أعين أناس لهم ذات الصفات. وبغض النظر عن ألف صيغة معقدة للتباهي

على أولئك بنجاحات ستبدو رغم بُعدها عن الريف هي أيضاً كلها من وراء الجاموسة... أقنومنا. الجاموسة التي تتغوط روثاً يحوّطنا ونضرب بذراعينا حتى نطفو على سطحه في قلب القاهرة: بالجهل والفاقة أو بدونهما، أشك في أنها كما منعت حكاية نرجس من أن تكون جمالاً يمكن أن يصدّقه مَن أحبها، هي التي تمنع الناس من أن يكونوا أناساً بدلاً من عراقيل أو جسور.

82. اليوم يدهشني أن أسئلة تبدو بسيطة لم تحسم إجاباتها في رأسي بعد عشر سنين: هل كانت نرجس ذات شخصية حدّية فقط ببساطة، وهل كانت رضوى عادل ببساطة فقط عندها اكتئاب ثنائي القطبية (وأنت تعرف أن موتها تحقق في ثالث محاولة انتحار)؟ ربما كانت صبا التي حاولت أن تنتحر أكثر من مرة قبل زواجها ثم كفت فريسة الاكتئاب المزمن والعلاقات المتكررة دواءها. ربما كل ما في الأمر خلل في كيمياء المخ. بهذا المعنى ليس سلوك نرجس دليلاً على شيء؛ ربما كان أشرف محقاً في اعتبار باولو عرضاً مؤقتاً لمرض لن يزول. في هذه الحالة يصبح من الصعب أن تفهم أي جمال ظل أشرف يراه في زوجته، مع ذلك، أي صدق ظل يستهويه في حكايتها.[1]

83. يدهشني أن أسئلة عن صبا ونرجس لم تحسم، لكن مون تدهشني بالأخص. أحلف لك أنني لا أذكر كيف عرفت تفاصيل حياتها الجنسية مع نايف؛ لكنني أعرفها بدقة مذهلة. أعرف تفاصيل غرامهما مع أنني لم أتلصص عليهما، ونايف نادراً ما كان يتطرق إلى

1 الشخصية الحدية: Borderline personality؛ الاكتئاب ثنائي القطبية: Bipolar disorder (manic depressive)؛ الاكتئاب المزمن: Chronic depression.

تلك التفاصيل. هل مون التي حكت لي؟ هل نمت معها حقاً ذات ليلة منسية من خريف 2001 (إذا لم أكن قد فعلت، كيف عساني أراها عارية، في ذاكرتي، بمثل هذا الوضوح)؟ وهل حدث بينما نايف يبحث عنها في الساحل الشمالي؟ كيف واتانا خداعه على هذا النحو، حتى لو كنا نفعل بعد مشاجرتي معه التي لم أره بعدها...

84. أسأل نفسي إن كان للعنف والتعذيب في غرامهما، أقول – ذلك الذي لم يكن ليفهمه أحد منا وقتها ولا حتى هما، الذي يبدو لي الآن براقاً كالأساطير – إن كان للتعذيب والعنف الجسدي الذي حكم غرامهما صلة بشيء خارق أعرف أيضاً أنه، مع شِعر لم يقرأه أحد، كان مقدمة ثورة سيتضح خلال شهور من قيامها أنها لم تكن سوى صدى صيحة في الفراغ.

85. وأتذكر أن مون ونرجس كان لهما تعبير واحد ملازم لكليهما، هما الاثنتين: "يناسبني ليس "يعجبني" ولا "يقنعني وليس "تمام" أو "حلو" ولا حتى "مناسب"، لا "يناسبني كأن العالم مخلوق من أجل مناسبة لحظية تحددها المتكلمة من مكانها على إطلاقها.

86. في مرحلة لاحقة سيكتب نايف، موجهاً كلامه إلى مون: **"سننصح الآخرين بالانتظار، حين تَلوح الحيوانات الصغيرة واحداً بعد واحد، تشخلل أثداءها وتمد أفواهها إلى المياه. ودونما يبدو منا سوى بريق البركة المنحسرة، نقضم الأقرب كَرَمشة عين. البركة أصبحت شلالاً، وجلدنا الأخضر في كامل بهائه. لكننا لن ندع فكاً يقترب، لن ندع فكاً واحداً يقترب منا يا قمري، حتى نأتي على القلب والرئتين. حينها فقط سنزحف إلى حيث**

الشمس، ونرقد جنباً إلى جنب هناك." سيكتب نايف هذا الكلام لمون ويقرأه علينا، لكنه – خلال يومين أو ثلاثة – سيعود يصرخ في وجهها، إثر مشاجرة غير متوقعة في الزمالك: "التماسيح أكبر منك أصلاً!"

87. مون التي رفضت أن تنتمي إلى التماسيح في النهاية لم تَطْلع على العالم ولو بقصيدة واحدة من 1999 إلى أن انقطعت أخبارها تماماً في 2001؛ بين 2007 و 2008 (كما سمعت) سيبحث باولو عنها بلا فائدة. كشاعرة لم تَنشر كتاباً و لم تُتداوَل قصائدها إلا ثلاثة أعوام عملياً، من 1996 إلى 1999؛ إذن – هذا ما يحيرني – لماذا ظلت مشغولة إلى هذا الحد بمن يقلّد كتابتها (تلتقط لنظرائها، خاصة النساء منهم، ما تظنهم نقلوه من الشعر المترجم وتقول إن ما تكتبه، عكس ما يكتبونه، ليس له مصادر ولا يعتمد على شيء)؟ لماذا كل هذا الحرص على إثبات أنها لا تقلد أحداً وأنها متفردة؟ ثم إذا كانت تعرف أن حب الآخرين من داخل الدائرة سطحي وهي عميقة – ظلت قناعتي، رغم كل شيء، أن مون عميقة – كيف ظل يرضيها ذلك الحب؟ وإذا لم يكن يرضيها فلماذا تسعى إليه؟

88. هل لأنها تسعى إلى شيء لن يرضيها غادرتْ مون إلى الأبد في النهاية؟ لا أصدق أن أحداً منا لم يكن قد رأى وجهها بعدُ يوم قال لي نايف، إثر صمت طويل في الطريق إلى ميدان الأوبرا، "فاكر بطلة الحركة الطلابية يا فتيس؟"

89. الإجابات لم تُحسم في رأسي وربما لهذا أصبحتُ مشغولاً بالحكاية. لكن الذي أطلق هذا الملف بهذه السرعة – حان وقت

أن أخبرك – أنني التقيتُ بماهر عبد العزيز بعد فراق طويل قبل شهرين تقريباً، بينما الشباب يصابون بعاهات مستديمة في شارع محمد محمود ثم خارج مجلس الوزراء وبامتداد شارع قصر العيني. وقع لقاؤنا بالقرب من محل إقامتي منذ أربع شهور تقريباً، خارج كل الملاعب المحتملة. كأنّ مكان لقائنا بعد الفراق خارج الدنيا؛ ومع ذلك، كأنّ ماهر يلتقي بشخص موجود في تلك الدنيا بالفعل، ليس صوتاً مفترضاً يقتات على مكوناتها من مساحة مجاورة.

90. فجأة أقبل هيكله النوبي الذي لم يتغير – ماهر ترك من هويته النوبية كل شيء إلا هيئة الجسد هذه وربما أشياء أعمق من اللغة والثقافة اختبأت في طبقات لا تُرى مختلطة بأعراف وسط البلد والمعادي، لا سبيل إلى معرفة ما تكون؛ لم يبق سوى لون الجلد وتدويرة الملامح وامتشاق السلالة – وكان ود صادق يضيء وجهه رغم العصبية التي تُقلّص أطرافه وتبعثر عينيه في أرجاء المكان. وفيما كنا نتعانق بدفء أيتام عادوا إلى الملجأ للمرة الأولى بعد زمن وننتحي جانباً من مطعم مهجور نرشف ماءً غازياً ونأكل الخبز المقرمش، بدا الكاتب الذي يقترف الشعر أحياناً كما يقول عن نفسه عجوزاً جداً لكن أقل كآبة مما تذكّرتُه.

91. ليلتها استرخى ماهر في جلسته قبالتي وبطريقته التي اكتشفتُ أنني أتذكرها جيداً – الكلام يَخرج باندفاع مفاجئ كأنه لم يخطر له إلا لحظتها أو كأنه يمكن أن يرجع فيه في أي لحظة، ومع ذلك لا يهتز هدوء نبرته المسالمة المحايدة – قال لي ثلاثة أشياء.

92. أول شيء قاله لي ماهر: إن هناك صدعاً في رأسي منذ عرفني

قبل عقدين، إن وعيي مجروح وإن كان ذهني يقظاً وإن من شأن هذه التركيبة أن تُبقي صاحبها وحيداً. في مرحلة متقدمة من الجلسة أضاف على سبيل الاعتراف إنه يرى الآن أن جيل التسعينات لم يتجاوز جيل السبعينات في أي شيء جوهري ولذلك لم يكن له دور مباشر ولا كبير في أحداث 2011. هل توقع أحد أن يكون له دور؟ ولهذا أيضاً – هكذا فكرتُ بينما هو يتكلم – ربما لن تؤثر أحداث 2011 جوهرياً في شيء. عندما أخبرتُ ماهر بأنني مشغول بانتحار رضوى عادل، حكى لي إنه في اليوم التالي على الواقعة – ليلاً على أحد مقاهي وسط البلد – جاءه خبر موت وائل رجب الكاتب الشاب الذي عاد من بعثة دراسة إلى باريس بعدما أصيب بالسرطان خلال شهور من وصوله إلى هناك. قال إن موت رضوى عادل صدمه فعلاً لكنه ذاب في حزنه على وائل مع أن وائل لم يكن صديقاً مقرباً إليه.

93. "أظن المسائل خربت من وقتها،" قال. "لكن لماذا لا تكتب عن الذي يشغلك؟" هكذا أردف ماهر، كعادته، فجأة: "أنت كنت بعيداً بما يكفي لترى، لكنك قريب من الكلام...

94. لعله فزع الإنسان البدائي المحفور لا يزال في "الدي–إن–إيه"، من أن تفترسه زمرة لبؤات يحرسها ذكر ب"لبدة" كما يسمى عُرف رئيس جمهورية الغابة – حاكمها العسكري – أو الوبر المحيط بهامته: وحده الزئير يولّد غثياناً من نوع لا يثيره أي صوت لحيوان أو لآلة مهما كان عالياً وقبيحاً؛ ولا يخفف ذلك الغثيان أن يكون بينك وبين مصدره مسافات أو حواجز. لعله الخوف البدائي من صوت لا تصدره إلا حناجر أربعة فصائل سنورية (من عائلة القطط) تنتمي إلى

جنس النمر، تَقتُل كلها بعضّة واحدة في عنق الفريسة فيأتي الاختناق قبل النزيف. لوهلة رأيت أجدادنا يركضون عراة وأذرعهم حول أعناقهم، حين اكتشفت أن علماء الحيوان أنفسهم حاروا في تفسير عمق وقوة صيحة تُسمَع على بُعد كيلومترات وتثير دفعتها عواصف: مرة يقولون إن ذلك نتيجة انشطار أكبر من المعتاد بين شقي العظمة اللامية عند السنوريات المعنية، ومرة إنه نتيجة طول وتركيب جدران حناجرها. لكنني سأعود أرى أجدادنا في الخلاء وأعجب كيف أن الزئير لا يشبه أي صوت.

95. في شتاء 1996، أقول – بينما باولو يقع في نرجس – كان هوس البيتنيكس قد تمكن من نايف. وربما كان من الطبيعي أن يَعتبر موت ألن جينزبرج بسرطان الكبد في شهر 4/1997 تكليفاً غيبياً بترجمة أعماله – لم يكن نايف قد سمع بسركون بولص، دعك من ترجماته الممتازة لجينزبرج – الأمر الذي أكدته وفاة وليام باروز روائي البيتنيكس الأكبر بعد أربعة شهور من تاريخه – فابتدأ نايف بقصيدة "عواء" ثم مرثية جينزبرج لأمه: "كاديش" أظن الترجمة كانت، بالنسبة إليه، بديلاً ضرورياً عن الكتابة. أظنها كانت تعويضاً عن شيء يتهاوى إيقاعه بلا سبب واضح منذ إعلان التماسيح، كما كانت تنويعاً على تيمة عمل ينمّل الأعضاء لقاء أجور تتزايد شيئاً فشيئاً في تعريب برامج "ميكروسوفت" و"أدوبي" من أجل سوق الحاسوب الجديد.[2]

1 DNA أو Deoxyribonucleic acid: الحمض الجيني. جنس النمر: Panthera. = العظم اللامي: Hyoid bone.

2 Microsoft، Adobe.

96. في 12/2000، قبل شهور من لقائه بمون، سيشرع نايف في ترجمة قصيدة جينزبرج المفضلة لديه... وبعد أن ينتهي من "عواء" و"كاديش" – الملحمتين الطولتين – إضافة إلى بعض القصائد المتفرقة القصيرة. **عدتُ إلى البيت لألاقي أسداً في غرفة معيشتي/ هرولتُ على الدرج الخلفي أصرخ: أسد! أسد!/ اثنتان تعملان في تدوين ما يملى عليهن باختزال الكلمات شدتا شعرهن الأدكن وصفقتا النافذة/ أسرعتُ إلى بيت العائلة في باتيرسون وبقيت هناك يومين// هاتفت محللي النفسي العجوز المشتغل بمنهج "رايخ"/ ذلك الذي طردني من جلسات العلاج لأنني دخنت المايروانا/ "حصل" لهثت "هناك أسد في غرفة معيشتي"/ "يؤسفني أنه لا قيمة لأي مناقشة"** وفصل الخط: صياغة محتملة لأول ثمانية سطور، أمينة على الأصل الإنجليزي. لكن نايف حار بينها وبين صياغة أقل أمانة بدت له الأسلس والأقرب إلى الحياة التي نعيشها في القاهرة: **عدتُ إلى البيت فوجدت في الصالة أسداً/ وجريت على بير السلم أصرخ: هناك أسد/ جارتي السكرتيرة لمت شعرها وقرعت شباك المنور/ سافرت عند أهلي في البلد وأقمت يومين// كلمت طبيبي النفسي الذي يجمع بين ماركس وفرويد/ وكان قد أوقف الجلسات حين عرف أنني أحشش/ قلت له لاهثاً "أخيراً وجدت في الصالة أسداً"/ لكنه قال "لا كلام لك معي" وأغلق الخط.**[1]

97. هكذا بدأ نايف يترجم "الأسد" بطريقتين مختلفتين بعد أربع

1 Wilhem Reich 1897 م. و 1957 م. أحد أهم تلامذة فرويد من مؤسسي مدارس التحليل النفسي، ماركسي القناعة؛ "تدوين ما يملى عليهن باختزال الكلمات" إشارة إلى الـ shorthand أو الـ stenography وهي اللفظة المستخدمة في النص؛ Patterson مدينة في ولاية أونتاريو

سنين من إعلان جماعة التماسيح. لكن خلال السنين الثلاث، كانت أشياء أهم من إعلان الجماعة تحدث.

98. قبل عام من عيد ميلاد نايف الواحد والعشرين – وهي المعلومة الأولى التي أوحت لي بأن تزامن وفاة المناضلة مع صعود الشعر السري لم يكن مجرد مصادفة – كان التالي أيضاً قد حدث: اتصلت رضوى عادل تستغيث بمجاب حرب طليقها منذ بضعة شهور وآخر من ارتبطتْ به قبل انتحارها. لم يكن أحد منا يعرف مجاب جيداً، لا بوصفه شاعراً تسعينياً من الفيلق السكندري الذي بدأ في الظهور منذ الثمانينيات – بهاء زايد وليث الحيوان بالتحديد كان لهما تأثير قوي على جيل التسعينات وإن تنصلوا لذلك – ولا بوصفه زوج مناضلة سبعينية تكبره بعشر سنين أو أكثر.

99. لم يكن أحد منا يعرف مجاب جيداً مع أنه كما سيتضح، ورغم أنه أكبر منا بكبشة سنين، هو الوتر الوحيد الحقيقي الذي يشد التماسيح إلى رضوى عادل. كان هناك فيلق طنطاوي أيضاً – محمد المزروعي وعادل عصمت وحسني حسن وآخرون – فضلاً عن الفيلق الدقهلاوي الأوفر عدداً وفيلق آخر من دسوق. وكانت بعض أحياء القاهرة (فيصل، مثلاً) تمثل فيالق في حد ذاتها. لكننا لم ننتبه إلى المنشأ أو نتصور أنه يمكن أن يؤثر في شيء، بالذات وأنه في كل الحالات تقريباً يعود إلى الريف ولو عبر جيل أو اثنين. أحياناً أسأل نفسي إن كنتُ قد أخطأت في ذلك أيضاً، إن كان يجب أن أنتبه إلى المنشأ أكثر وأنا أقيّم مصائر الرفاق.

100. في التسعينيات كانت رضوى عادل قد خرجت على

جماعة المناضلين التي انتمت إليها منذ أواخر الستينيات وشاركتها اعتصامات الطلبة ضد السادات سنة 1972 ثم "انتفاضة الخبز" بعدها بخمس سنين. هذا ما فهمتُه من كلامي العابر مع أصدقاء من دائرتنا، كان بينهم بهاء زايد ومجاب نفسه فضلاً عن زوجها الأول الذي التقت به وهما طالبان في جامعة القاهرة وانفصلت عنه بعد عام من زواجهما، ثم المترجم أحمد حسان الشهير الجنتل. لم تكذب عقيدتها الماركسية تماماً بعد انهدام حائط برلين سنة 1989. لكنها كانت قد هاجمت، واحداً واحداً، كل زعماء ما سُمي الحركة الشيوعية الثالثة، وبالتحديد حزب العمال، حيث كان لها موقع قيادي كما يسمّون المناصب الكبيرة في التنظيمات السرية.

101. هاجمتهم واحداً واحداً، تلك الشخصيات الخارجة من روايات دوستويفسكي ورضوى بينهم بمثابة الأبله أو "أليوشا": هاجمت وصوليتهم وطمعهم في السلطة واستعدادهم لإيذاء بعضهم بلا رحمة دفاعاً عن أي تنظيرة تداري تطلعاً شخصياً؛ وكلها أشياء ربما عادية. لكنها أيضاً هاجمت احتماءهم بفكرة أنهم خارجون على المجتمع والأمن يطاردهم من أجل أن يمارسوا أنواعاً من الاستبداد والتعسف أشد وأبشع من تلك السائدة في مجتمع الرجعية (هكذا كانوا يسمون مصر ما بعد عبد الناصر)؛ وليس لأعضاء الحزب القليلي الحيلة مخرج لأنهم بلا سند سوى الحزب: لا أسرة ولا عمل ولا حتى سكن مستقل في حالات كثيرة. (هل تكرر هذا معنا بحجة اجتماعية بديلاً عن الحجة السياسية؟ فكرة مجتمع بديل تتحطم فيه التابوهات وتتكشف ضحالة ثقافة بنت وسخة...)

102. واجهتْهم بذلك ثم كتبته وتخلصت منه لتعود تكتبه من جديد.

103. ومثلها مثل شيوعية أخرى منتحرة تدعى سهام صبري، رغم أنها خرجت على جماعة المناضلين وعملت في جريدة "العالم اليوم" المرفوضة لأن تمويلها خليجي، لم تستطع رضوى عادل أن تخرج على فكرة الجماعة. لا أذكر مَن من الأصدقاء قال لي: "كان الفراغ يأكل روحها." لسنين ظلت تجرب أشياء. سافرت إلى إسبانيا وعملت نادلة في الغردقة. وخلاف النسخة الأولى من المبسورون التي أنهتها ثم ألقتها في القمامة أثناء لوثة اكتئاب في الأندلس، لا أظنها كانت تكتب.

104. ليس سوى بصيص انتماء إلى أشخاص أصغر سناً في أماكن أخرى، أدهشها أن أسماءهم معتمَدة في الدائرة ومع ذلك ليسوا مسيّسين. كانت منجذبة إلى ما يقولونه عن أنفسهم أو ما يقال عنهم من أنهم يعيشون كأفراد كما قررت هي أن تعيش بعد انتحار الحركة الشيوعية. وتبعاً لذلك البصيص، كما فهمتُ، التحقتْ بموضة الذهاب إلى الإسكندرية. بعد 1991، كانت قد ظهرت في الدائرة تلك الموضة. ولأن بهاء زايد وليث الحيوان هناك، كانت تحدث تجمعات حولهما غاب عنها أولئك الذين سيصبحون التماسيح لكن لم يَفُتهم حدوثها. حين تسأل شاعراً تسعينياً قابلته صدفة في المقهى – وهو مثل الجميع عاطل عن العمل ولا يكتب شيئاً – "ماذا تفعل هذه الأيام؟" كان يتنهد ويقول لك بنبرة المقدم على مشروع خطير: "رايح إسكندرية"!

105. رأس سنة 1993: الآن لا أذكر كيف أمضيتُ الليلة. لا نايف

ولا باولو كان معي رغم أننا جميعاً في القاهرة. و لم أكن قد رأيتُ هستيريا رش الماء وإلقاء الأشياء القديمة من النوافذ التي تنتاب أهالي الإسكندرية مع منتصف الليلة الأخيرة من كل عام؛ ستبقى هذه العادة بضع سنين إلى أن تذوي تماماً بالتزامن مع تفجير كنيسة القديسين في رأس سنة 2011، قبل خمسة وعشرين يوماً بالضبط من اندلا ع التحرك الكبير يوم 25/1. سنة 1993 – سيبلغني – كانت رضوى هناك.

106. لا أعرف كيف كان لقاء مجاب برضوى. في رأس سنة 1993 حدث أكبر تجمع لجيل التسعينات وسط الكحول والزجاج المكسر ورذاذ النوة يضرب أكثر من باب خلف عتبته صديق: علي عاشور الرسام وإسلام العزازي المخرج وعبد العزيز السباعي الكاتب وسكندريين كثيرين. هكذا وُضعت رضوى في حساء جديد عليها. صُبت عليها المرقة وانسجمت مع الخضروات. وبدا لها، بحسب ما فهمت، أنها انسجمت مع مجاب بالذات.

107. سأعرف من مجاب نفسه أنهما لم يتكلما تقريباً في تلك الليلة – لن تبدأ قصتهما قبل ستة أسابيع بعد أن يلتقيا مجدداً في القاهرة ثم في الإسكندرية – لكنني ما زلت أتخيلهما نقطة بعيدة وسط الكورنيش والشمس تشرق على أول أيام 1993.

108. كأنني أنظر إليهما من فوق تمثال سعد زغلول في محطة الرمل، والأصدقاء المخمورون بين نائم ومغن في الشبابيك: مجرد نقطة بعيدة متجهة إلى القلعة على الجانب الآخر من المياه. ستقول رضوى لمجاب في معرض مصارحة لاحقة إنها حلمت بأن يعطيها سنة من عمره. سنة فقط. (لن تأخذ رضوى عادل من عمر مجاب حرب سوى سنة

فعلاً، للمفارقة.) "وحين خرجنا إلى البحر كنت على استعداد أن أحملها على كتفي،" هكذا قال لي مجاب. "كل شيء تقرر في لحظة.

109. لا أعرف كيف كان لقاؤهما. حكى لي مجاب عن ليلة ثانية جمعتهما أظن بهاء ذكرها في سياق آخر. هناك ليال، مثل رأس سنة 1993، كأنها علامات ترقيم التسعينيات.

110. في تلك الليلة الثانية، اجتمع الجحفل كاملاً مع عباس بيضون شاعر النثر اللبناني عند عبد الرازق شعبان: الشاعر السبعيني الذي كان يصدر، مع علي داوود وعفت يس الذي سينضم بشراسة إلى التسعينيين، مجلة "نبرات" (بينما انتمى حسين البوهي وعهدي عامل وخيرت فتاح إلى جماعة–مجلة تدعى "إنارة 77"). كان الكلام أيامها لا يزال كثيراً وعنيفاً، كما بلغني. لا فرق بين النقد والتكسير. أقصد الكلام عن الشعر.

111. وبحسب بهاء ومجاب كليهما، ظل عبد الرازق شعبان طوال تلك الليلة يحاول أن ينتزع من عباس بيضون اعترافاً بأن الجيل الجديد، جيل بهاء وليث وجيل جرجس شكري وعماد أبو صالح، ذلك الذي اقتربت لغة كتابته من كلام الشوارع وصوره من أشيائها، والذي بدأ حضوره يحَسّ بقوة في الدائرة... بحسب بهاء ومجاب، ظل عبد الرازق يحاول أن ينتزع من عباس اعترافاً بأن هذا الجيل لم ينتج شيئاً ولا يَعد بشيء. وبخبث شديد، كما بلغني، لم يُشف غليله عباس.

112. في شهر 10/2010، بلا مناسبة واضحة، سيكتب عبد الرازق شعبان عن حفل زواج مجاب ورضوى، "النقية فلذة الكبد" بحسب

تعبيره، مستاءً من "العريس الشاب" كما سمّى مجاب – "كأنه يخاف الاعتراف بالزواج، كأنه يخاف أهله والأصدقاء" – معبراً رغم ذلك عن تعاطف مقنع مع رضوى، تعاطف يبدو حقيقياً، مع أنه يكشف علاقاتها الخاصة ويؤوّل سلوكها بمنطق نميمة المقاهي.

113. حين أقرأ ذلك المقال الآن يبدو لي أن عبد الرازق شعبان يضع رضوى على المسافة المناسبة من الكتابة النسوانية فعلا ويلتقط شيئاً أصيلاً في تكوينها: "كأنها خجلى أو مغتاظة." لكن يبدو لي أيضاً أنه يضع نفسه على المسافة نفسها ليس من تلك الأقلام فقط وإنما من كل أقلام الدنيا، مع أنه ليس امرأة ولا مسيساً ولا منتحراً أو متزوجاً من مجاب... ورغم سواد ضمير المتكلم لا يقول عن نفسه شيئاً. دعك من افتراض أن رضوى، سواء كامرأة أو كمثقفة، حكر على جيل السبعينات ومن ثم في اقتران التسعينيين بها تَعَد على هويتها: كأن عبد الرازق كتب ليقول "أنا رضوى" أو "أنا المناضلة"، كأن في كونه من جيلها سَنَد كاف لذلك.

114. لم تحضر رضوى جلسة عباس بيضون سنة 1993، لكنها أعلمت مجاب أنها تنتظره في بيتها فخرج من عند عبد الرازق شعبان إلى هناك، وما كاد يجلس حتى سلّمته ورقة مكتوبة بالقلم الرصاص تحدثه فيها عن نفسها: أول "جواب" قرأه وهي تُعدّ لهما الشاي، وهو ما زال لا يفهم أنها انجذبت إليه! بعد ثمانية عشر عاماً من جلسته هذه في مدينة الصحفيين، غير بعيد من المهندسين حيث سأمضي معظم مساءاتي سنة 2010 – وأمام شاشة حاسوب مثل التي أمامي ولكن في الكويت – أتخيل عيني مجاب تدمعان بينما أصابعه تضغط

الأزرار ليقول لي إنه لم يكن عنده من الثقة بالنفس ما يجعل وقوع رضوى في غرامه احتمالاً.

115. يخطر لي الآن أننا التقينا أنا ونايف وباولو على طرف لوح خشب مخلخل يصل بين منتصف القرن وآخره، بين 1952 و2001، وأننا ظللنا سوياً إلى أن انقصم اللوح. يخطر لي أن مجاب ورضوى التقيا في نفس المساحة تقريباً، وإن انفصلا قبل الانقصام.

116. شيء حدث في التاريخ في الخمسينيات جاء بكتابة الستينيات ربما؛ وربما شيء في كتابة التسعينيات – بشكل خارق للطبيعة ولا يصدق، بشكل غير مباشر إلى درجة أسطورية – سيساهم في حدوث تاريخ آخر بعد نحو خمسين سنة من انقلاب الضباط الأحرار سنة 1952. لكنْ بداية من احتلال أو تحرير العراق من جانب أمريكا سنة 2003 ومروراً بالضربة التي خلخلت اللوح على مرحلتين بصعود الدولة الإسلامية في إيران سنة 1979 ثم سقوط الإمبراطورية السوفييتية في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى أوائل التسعينيات، إلى انكساره النهائي مع تفجيرات 11 سبتمبر في نيويورك: كان لوح الخشب الذي التقينا على طرفه أنا وباولو ونايف يهتز... لا أظنه من الإجحاف القول إن السبعينيات كانت ذيل الستينيات والثمانينيات مقدمة التسعينيات حتى في الشعر.

117. حين صدر العدد الأول من "الأدب المغاير"، سنة 1999، كان أحمد عبد الهادي تهامي هو الستيني الوحيد الباقي داخل الدائرة، باستثناء محمد عفيفي مطر الذاهب إلى حد الدفاع عن صدام حسين أثناء حرب الخليج على طريق التمسك بالقومية العربية. وكان قد

تولى رئاسة تحرير مجلة "خلق" الصادرة عن وزارة الثقافة وجعل حسين البوهي مدير تحريرها؛ أقصد تهامي: بداية من افتتاحية عنوانها "الصفوة والحرافيش"، سيظل الشاعر الكبير – وكأنه يحفر خط التماس الرئيسي لأشرس حرب أهلية داخل دائرة المثقفين في القاهرة – يسب ويلعن الشعر الجديد لأنه غير موزون ولأن كتابة الشعر بلا عروض شيء محرم.

118. "ولقد أحسن الشاعر عبد الهادي تهامي صنعاً حين أعلن صراحة أن مجلته للصفوة وليست للحرافيش،" هكذا كتب هاني فولة في افتتاحية "الأدب المغاير ذاتها، جاعلاً دراسة عن تديّن الحرافيش في القاهرة هي المادة الأولى في العدد كأنما نكاية في تهامي، "فهو بهذا قد وفر علينا الكثير مما كنا سندلل من خلاله على عدم ملائمة القائمين على المنابر الثقافية في مصر، بل وفسادهم. ونشر قصائد من تلك التي لا تُعجب تهامي لأنها لا تعترف بعروض الخليل ولا حتى على طريقة الشعر الحر أو كما صار يسمى في القاهرة شعر التفعيلة، ذلك الذي ابتدعه بدر شاكر السياب ونازك الملائكة في الأربعينيات عن طريق تكسير العمود التقليدي وخلط الأوزان أو إلغاء القوافي ثم درج على كتابته أغلب الشعراء.

119. لسنين سيدور الصراع حول تحريم تهامي لكتابة الشعر بلا عروض رغم أن قصيدة النثر في شكلها الراهن تُكتب وتلاقي استحساناً منذ الثلاثينيات.

120. واليوم يبدو لي غريباً أن التسعينيين اشتبكوا أصلاً مع ذلك التحريم، محاولين تبرئة أنفسهم من الإدانة – يبدو لي أنهم فعلوا

ليستغلوه في الإيحاء بأنهم حين يكتبون بالنثر إنما يفعلون ما لم يفعله أحد – لكنه يبدو لي غريباً لأنني لا أظن كلام تهامي كان في جوهره مختلفاً عن تعريض السبعينيين بالشباب في المسائل الشخصية فضلاً عن مسائل الأدب. ومع أن البوهي، كونه الذراع الأيمن لتهامي، سيصبح من رموز الفساد الحكومي فعلاً بشكل تجنّبه شعبان، لا أظن شعراء السبعينيات كان يمكن أن لا يكرهوا الاختلاف أو ادعاءه، خاصة وأن التسعينيين أنفسهم – مثلهم مثل أي جماعة ربما – بينهم وربما أكثرهم جهلة قادرون على سرقة النصوص ومحترفو احتيال.

121. في التسعينيات كان جيل ينشأ. وللمرة الأولى في تاريخ الكتابة، كما يبدو لي، كان الجيل السابق عليه يدافع ليس عن حضور قائم في مواجهة حضور دخيل ولكن عن خواء أسس له، مع تراجُع القومية والماركسية أمام الرأسمالية والتديّن، أفول نجوم الستينيات. وبعدما اعتنقوا نظريات أدونيس أيضاً – حيث الشعر ليس له جمهور والحداثة تعني رؤية المجتمع من فوق أو بالنظر إلى الخلف من نقطة أبعد على طريق التطور – كان السبعينيون يدافعون ليس عن وجود يخصهم ولكن عن نوع معقد من العدم، في الشعر وفي السياسة: على التسعينيين إما أن يكونوا تافهين – في السياسة كانوا تافهين فعلاً – أو أن يُسحَقوا تماماً.

122. لكن رضوى عادل كانت قد خرجت على جماعة المناضلين، هذا ما كنت أقوله: بينما باولو يظهّر أفلامه الكوداك تي–ماكس 400 (والتي عرّضها بكاميرا لايكا إم – 4 أصلية حصل عليها بأعجوبة سنة 1995)، بينما يثبّت الأفلام ثم يفتح الماء عليها في غرفة لا تتعدى

مساحتها مترين مربعين في ميدان الأوبرا، خرجتْ رضوى عادل على الجماعة؛ وكان من عادتها أن تكتب لمن تغضب عليه رسالة خطية تستخلص فيها – عبر موقف قد يكون تافهاً لكنه يضيء لها شخصية الصديق المعني – قصور ضميره وضعفه الإنساني (كانت القوة قيمة متفقاً على ضرورتها في الدائرة، لكن أحداً لم يُعرّفها بدقة ولا يفرّق بينها وبين الاستقواء) أو تدلل على عجزه عن تحقيق المنتظر منه بوصفه "سوبرمان" آخر محلقاً على خط الأفق في سموات التحول؛ وكتابة الجوابات هي منهج تَوَاصُل لن تكفّ رضوى عادل عن اتباعه حتى بعد توقفها نهائياً عن العمل السياسي، لا مع أصدقائها (ليث، الجنتل، علاء شكر الله الناشط الحقوقي...) ولا مع زوجها: مجاب.

123. بلغني أنها أظهرت في ذلك ذكاءً بالغاً وقدرة على تحديد مواطن الضعف كانت تتيح لها إصابة الهدف من التصويبة الأولى (الأمر الذي ستفعله، ربما، مع نفسها): في كل لحظة كانت تبحث عن ذلك التناقض المقرف بين الخطاب والأداء ومن ثم كانت خبيرة في "الكاراكتر أساسينيشن" أو الاغتيال المعنوي، وهي خبرة سيرثها بعض التسعينيين، علماً بأنه لا يوجد شخص واحد في الدائرة بريء من محاولة تنفيذ مثل ذلك الاغتيال في المحيطين به بغض النظر عن الخبرة والمهارة.[2]

124. الآن من مكاني الافتراضي في مستقبل كان يتدلى أمامنا ولا

1 Kodak T-Max 400: Leica M4: Superman

2 Character assassination.

نراه، بينما رضوى عادل تدور حول نفسها في شقة مدينة الصحفيين تفكر في بديل عن إنهاء حياتها، أشاهد باولو وحده في المعمل يطبع الصورة التي لا يصح أن نراها: الصورة الجوهرة، الجائزة... أشاهده يختارها من وسط إحدى عشرة متصلة على النيجاتيف الممدود فوق علبة شفافة مضاءة من الداخل. يقص شريطين في أحدهما خمس صور وفي الثاني ست، ويثبّت المستطيل الذي وقع عليه اختياره في فتحة المكبر على الارتفاع المناسب لحجم الورقة... وتماماً كما كنت أفعل مدارياً شعلة "الجوان" بيدي لأناول نايف ونحن محشوران بين المكبر والشباك، فيشد نفساً أو اثنين حتى تَفرُغ يد باولو ليناوله بدوره، أشاهد.

125. للبانجو في الضوء الأحمر مع الضوضاء المكتومة تأثير خرافي في المساء. وكأن السطل يقطر مجدداً من رأسي إلى قفاي على رائحة الأحماض – بينما رضوى عادل تغادر الشقة إلى مكان آخر بحثاً عن مخرج لن تجده – أشاهد باولو يطلق ضوء المكبر لينظر إلى الصورة مضخّمة على السطح الخشبي فيتأكد من جلاء العدسة ويدرس توزيع الأبيض والأسود داخل الإطار، ثم يوقد الضوء الأحمر قبل أن يطفئ الأنوار ويسدل الستائر. نَفَس سريع بينما ظَهْرُه إلى المكبّر، تتبعه تنهيدة متحفزة. وضابطاً المنبه الرقمي على عدد الثواني المقرر، يطلق ضوء المكبر على ورقة أخرجها في الظلام وثبتها حيث كان قد نظر إلى ما في النيجاتيف مضخماً على الخشب.[1]

126. وبينما أفكر في خروج رضوى عادل على جماعة المناضلين،

1 الجوان، عن Joint: سيجارة حشيش أو بانجو.

كأنني أتابع قطع الكرتون المقصوصة بأحجام مختلفة تتحرك كالبرق فوق الورقة الفوتوغرافية عن طريق أسلاك رفيعة يهزها باولو بيديه، ومن جديد يخيّل إليّ أنني أدرك كم مليجرام من الضوء يتمكن من حجبه عن الأجزاء الفاتحة من النيجاتيف حتى لا تأتي داكنة أكثر مما يريدها في الصورة – كأنه رمل براق يقلع من فوق الورقة ليحط في يدي المضمومتين على شكل وعاء، ويتحدد وزنه في رأسي تلقائياً ما إن يتراكم فيهما – وحالما يدق المنبه، أرى باولو يغمس الورقة في المظهّر ليَبين السر الخلاب الذي لا يصح أن يراه صديقاه أو أي شخص سواهما، ولا يتأمله كما يجب إلى أن يضيء الغرفة وقد غمس الورقة، بعد غسلها، في المثبّت.

127. يبدو لي الآن من مكاني الافتراضي أن باولو وهو يغلّف شريطَي النيجاتيف ويبدأ في شطف الصورة تمهيداً لتجفيفها بأحاسيس قوية ومتضاربة، ومثلما سيفعل نايف في ما بعد عن طريق ترجمة القصيدة، إنما كان يحضر الأسد. لا أظن باولو كان يعلم حقيقة ما يقوم به في غيابنا، ولا أن الصورة ليست سوى تجل أول لأخطر سر في الحكاية: الشيء الخارق للطبيعة، الذي ليس له تفسير.

128. الأسد هو ثاني أكبر السنوريات بعد البر (النمر المخطط)؛ وهو الوحيد بينها الذي لذَكَره لبدة أو عُرف، الأمر الذي دفع مختلف الثقافات إلى تبديته – كرمز للشجاعة والسلطان – على النمريات الثلاثة الباقية: النمر المرقط واليغور أو الجاكوار فضلاً عن البر الكبير. بسبب لبدته اقترن الأسد أيضاً بالسلالات الملكية وشعارات النبلاء، ولأنه يفرض سطوته على الحيوانات جميعاً باستثناء الفيل. عرفتُ أنه

يمضي القسم الأكبر من يومه نائماً أو نصف نائم، ويقوم بدوريات حراسة حول المساحة التي تشغلها زمرته. لا يتورع عن قتل الضباع المغيرة على ولائمه حتى حين لا تكون هناك وليمة، درءاً للشر. وأوقات التزاوج – لفترات قد تبلغ ستة أيام متصلة – يضاجع لبؤته مرة كل ثلث ساعة. يعقفها من رقبتها بالطريقة ذاتها التي ينال بها من فريسة تركض، تحسباً لردة فعل عنيفة لحظة القذف.

129. في محاولة لاحقة، بعد أن ينتهي من ترجمة القصيدة مرتين، سيجرب نايف أن يجمع الصياغتين بلا اعتبار لتقسيم السطور: **ولقد رجعتُ إلى بيتي لأجد في الصالة سبعاً. ومددتُ الخطى نحو سلم الخدم أتصايح: سبع! سبع! وإذا بسكرتيرتين تعقص كل منهما شعرها الأدكن. وبصفقة ترتد نافذتهما مقفلة. ولقد عدتُ أدراجي إلى بيت الطفولة في باتيرسون، ومكثت هناك نهارين. هاتفت طبيبي الشيخ، تلميذ "رايخ" في التحليل النفسي. ذلك الذي حرمني من جلسات العلاج. وعقاباً على تدخين الماريوانا. و"لقد حدث،" لهثتُ في أذن الطبيب: "في صالة بيتي سبع." لكن "مع الأسف،" قال، "لا فائدة من الكلام،" وما لبث أن أنهى المخابرة...** هكذا سيواصل نايف الترجمة وقد أدرك أنه بصدد صياغة ثالثة: **ولقد ذهبتُ إلى حبيبي السابق فسكرنا بصحبة حبيبته. وقبّلتُه قائلاً إن عندي سبعاً. وبومضة الخبل في عيني. ولقد تقاتلنا على أرضية بيته في النهاية. وعضضتُ حاجبه فطردني. وانتهى بي الأمر أستمني في سيارته "الجيب" المصفوفة في الشارع أتأوه: "سبع." ولقد عثرتُ على "جوي" صديقي الروائي. وزأرتُ في وجهه: "سبع!" فطالعني مهتماً. قرأ علي أشعاره العفوية الراقية. والمكتوبة على طريقة "إيجنو" والإيجنو شخص يعيش مرة وإلى الأبد. وينام في أسرة**

الآخرين. ولقد أنصت في انتظار أن تلقط أذناي كلمة سبع. لم أسمع سوى فيل. تيغلون، ابن النمر واللبوءة. وهبغريف، تلك الدابة الخرافية. حصان أحادي القرن. نمل. لم أدرك أنه فهمني حتى تناكحنا. وفي حمام صديق محترم. ويسمونه "إيجناز ويزدوم" بيد أنه في النهار التالي وافاني برسالة من مكتبه المعزول في "جبل الدخان" "عشقتك يا طفلي الصغير أنت وأسودك الذهبية الحالمة. لكن بما أنه لا روح ولا حجاب، إذن فحديقة حيوان أبيك العزيز لا تحوي أسداً. قلتَ لي إن أمك كانت مجنونة فلا تتوقع مني أن أطلع عليك بمخلوق مخيف يكون عريسك."[1]

130. وقال نايف وهو لا يتخيل أن شيئاً ملموساً سيظهر له خلال شهور من وقتها – إن الأسد في القصيدة هو الله، إنك لو فكرت في العقل الباطن مثلا أو الحتمية التاريخية، في أي مبدأ غيبي أو ميتافيزيقي يُنسب إليه التحكم المطلق في حياة البشر، ستدرك أن أسد ألن جينزبرج هو ذلك المبدأ مجسداً ومَخليّاً من الكلام الكبير والمجردات. قال إن الأسد هو الشيء الوحيد غير الواقعي في القصيدة ومع ذلك فكل ما سوى الأسد مرتبك وحزين ومضحك ولا يمكن في ضوئه استمرار الحياة. وقال إن الإيمان بما يرمز إليه الأسد هو الذي يقي الناس شر اليأس النهائي.

131. "فاكر رضوى عادل؟" هكذا همس لباولو بجدية نادرة (وهي ربما المرة الأولى التي يأتي فيها ذكر المناضلة منذ سمعنا بانتحارها قبل أربع سنين): "هي أساساً محتاجة لشيء مثل الأسد. كانت محتاجة أن

1 جبل الدخان إشارة إلى محمية Smoky Mountains؛ و Ignaz Wisdom على الأرجح صديق لجينزبرج. الحيوانات الخرافية المذكورة بأسمائها العربية بحسب ورودها في قاموس المورد: Tiglon: Hippogriff: Unicorn.

تعمل كل ما عملته وهي تعرف أن هناك أسداً في بيتها." واستدار – لا أدري لماذا – ليوجه كلامه إلى: "الأسد يا فتيس، الأسد أو شيء مثله هو الذي كان يمكن أن يحميها من الانتحار...

132. في المساء التالي على لقائي بماهر عبد العزيز – يوم 21/11/2011 – رأيت للمرة الأولى، على الإنترنت، صورة علياء المهدي العارية: علياء المهدي نشرت صورتها عارية على مدونتها كما قالت مساهمة منها في الثورة (غير أن الثوار أنفسهم، يوم 25/11، سيعتدون على صاحبة الصورة حالما يتعرفون عليها في ميدان التحرير، أثناء المليونية التي سينفض بعدها اعتصامهم كعادة المليونيات، ولا يكون شيء قد تحقق سوى مزيد من الثأر بين الشرطة والشباب... سيتحرش المعتصمون بعلياء المهدي ويخرجونها ضرباً وشتماً من وسطهم؛ وقبل أن يرمش أحد، تبدأ الانتخابات البرلمانية بلا كلمة رسمية واحدة عن القتلى، ولا دقيقة حداد). رأيت الصورة وقارنت تمرد فتاة بالكاد بلغت العشرين بتمرد ربيبة الحركة الطلابية التي تشغلني. وفكرت أن علياء المهدي هي الأخرى تنتحر، بشكل ما.

133. في المساء التالي على لقائي بماهر – وقبل أن أرى الثوار، باعتدائهم على علياء المهدي، يقفون ضد ما بدا لي أنه أقرب من أي عمل سياسي إلى ثورتهم، بعيداً عن تهويمات الحرب الطائفية بتحالف الإسلاميين مع المجلس العسكري ثم الحكومة الأمريكية، بعيداً عن الصراع الوقح على سلطة لن تمحو لا التسول ولا الدعارة ولا حتى إجرام البوليس – فكرتُ أن علياء المهدي أفلحت في ما أخفقت فيه المناضلة، مثلها في ذلك – أقصد رضوى عادل – مثل

أجيال سابقة ولاحقة من الناشطات. فكرتُ في صبا تحديداً وأنا أقف أمام صورة علياء المهدي على شاشة الحاسوب كمن يصلي لأيقونة في الكنيسة، وشعرت حيال تلك الحبيبة القديمة بشيء بين الرغبة في الضحك والغثيان.

134. لا يوجد دليل واحد يقنعني بأن علياء المهدي ليست مجرد فتاة بلهاء، لكنها وحدها – بلا قضية ولا دائرة ولا ثقافة وعمل سياسي أو حركة نسوية – وضعت جسد المرأة عارياً أمام الجميع. لم تدع أحداً يشك في أنها بفعل ذلك إنما تريد أن تغويه أو تكسب من ورائه. بافتخار من يقدم روحه قرباناً للحرية في شارع محمد محمود – الأمر الذي لم يفعله أحد من أرباب الحركة الطلابية – وضعت علياء المهدي جسدها على النت. وقالت إن هذه ثورتها.

135. كنت أقول إنها اتصلت بمجاب حرب، رضوى عادل؛ إنها فعلت بعد انفصالهما كأنما لتستغيث، رغم أن الطلاق كان بناءً على رغبتها نتيجة أن مجاب لا يحبها – والحقيقة أنه تعرض إلى الاكتئاب من حياة الدائرة في القاهرة بعد أن عادى أهله ليتزوج شيوعية مطلّقة أكبر منه وانتقل إلى السكن معها مخاطراً بوظيفته في الإسكندرية: إلى هذا الحد كان مجاب يحبها – أو نتيجة أنها لا تتحمل نظرة رفاق سلاحها إليها بعد أن بدأت تعيش بشكل جديد.

136. في أعقاب طلاقهما، خلال الشهور الأولى من السنة السابقة على انتحارها، اتصلت رضوى بمجاب وقد عادت لتوها من مقهى "زهرة البستان" حيث التقت برفاق السلاح والأصدقاء للمرة الأولى بعد الطلاق ووجدتهم ينظرون إليها – هكذا قالت له – على أنها

شاغرة تفتش عن رجل جديد. كانت مفجوعة تماماً... وإلى حد أن يتقبل رغبتها في الطلاق برحابة صدر بعد كل ما فعله من أجلهما، أقول، كان مجاب يحبها. لم يخطر له أن يعاقبها أو يقطع علاقته بها. و لم يستنكر فكرة أن تكون الاستغاثة إشارة إلى استعدادها لمحاولة ثانية.

137. قبل عيد ميلاد نايف الواحد والعشرين بعام، بينما نايف يكتشف ألن جينزبرج وباولو نرجس، اتصلت رضوى بمجاب. لا أعرف إن كانت المخابرة نفسها. قالت له إنها تتخبط وتحتاج إلى أن تراه. هي التي تركته، هي التي أصرت. تحتاج إلى أن تراه. كان في صوتها الشيء الذي يعرّفه أنهما معاً. وفي حوار أظنه تكرر بينهما طوال فترة الزواج جرّاء احتياجها المفرط إلى الإحساس باهتمامه، قال مجاب لرضوى صادقاً إنه في طاحونة العمل والحياة – هو نفسه نسي بم كان مشغولاً، سوى أنه فعلا في الطاحونة – وسيتصل بها بمجرد أن يدبّر حاله. يومان على الأكثر، قال. وكان راضياً بأن في صوتها الشيء الذي يعرّفه أنهما معاً.

138. لكنه عندما نحّى أشغاله بأسرع ما استطاع واتصل، كان ذلك الشيء قد زال من صوتها تماماً. بنبرة من يثبت أنه لا يحتاج إلى أحد، قالت رضوى لمجاب إنها بخير وكانت كأنها تتساءل لماذا يتصل بها. ورغم رغبته الصادقة في الحفاظ على صداقتهما كما ظل يسمي العلاقة، قرر مجاب أن لا يعود يتصل برضوى أبداً بعد تلك المخابرة.

139. في ما بعد، في صيف 1997، سيسمع مجاب إن رضوى ذهبت تبحث عن رفيق سلاح قديم كان قد اعتنق الإسلام السياسي وذهب

يعيش في إحدى قرى الدلتا: آخر مكان لن تجد فيه بديلاً عن الانتحار. وبنفس منطق رؤيتي لنرجس – كونها وصلت إلى هنا بعدما فقدت رفاق سلاحها ومجاب – الآن أفكر أن رضوى ناضلت لتعيش، لم تعش لتناضل. أفكر أنها مثل نرجس مع فارق أنها انتحرت فعلاً، لم يكفها أن تتاجر بالانتحار.

140. ليلة انتحار رضوى عادل وعيد ميلاد نايف الواحد والعشرين، بعدما أعلنّا قيام التماسيح، مشينا إلى شارع سليمان جوهر حيث توافد المعازيم إلى بيت أهلي أنا بعد الواحدة صباحاً.

141. كان أهلي في المصيف، و لم يكن بإمكاننا الذهاب إلى المعادي حيث نقيم حفلاتنا عادة في بيت أهل ميزو صديقنا السمين الأبيض كأنه راقصة من الأربعينيات: أم ميزو رسامة أمريكية كانت من الرعيل الأول للهيبيين قبل أن تعتنق الإسلام بحثاً عن تحقق روحاني، وأبوه رجل أعمال سكير كثير السفر؛ لذلك كان من السهل على ميزو وإخوته استغلال البيت الواسع ذي الحديقة والانخراط في توسيع الروح كما كان يسمي نشاطاته الترفيهية، مقتدياً بتصوّف الأمريكان. كنتَ تجد هناك في أي ليلة ثلاث مجموعات أو أكثر مقسّمة على العدد نفسه من غرف الطابق الأرضي وفي كل غرفة نوع مختلف من الموسيقى والكيف: حرية التنقل بين المواقع مكفولة كما يمكنك أن تسترخي في منطقة محايدة، بلا ثياب إن أردتَ؛ وإذا صعد اثنان أو أكثر إلى إحدى غرف الطابق العلوي وأغلقا الباب وراءهما، لا يلتفت أحد.[1]

1 الهيبيون: Hippies وهي كلمة ستينية. وأصلها الخمسيني – بمعنى الصعلوك أو

142. أظن ما كان يحدث عند ميزو هو بالضبط ما بدأتْ صحافة تلك الأيام تشجبه وتحرّض عليه قائلة إنه يحدث في محافل الثقافة المستقلة وبين كتّاب جيل التسعينات، مع أنني باستثناء نايف وباولو لم أر هناك مثقفاً واحداً أو كاتباً تسعينياً؛ كان الكتاب محافظين جداً بالمقارنة، مع أنهم (كما اعتدنا أن نقول عن ما لا يعجبنا نكاية بالريف أيضاً) سُمعتُهم طين. لكن حتى عند ميزو، إلى أن انطلقتْ حملات التكفير والتخوين وربط النزعة الفردية بالشيطانَين الأكبر والأصغر لآية الله خميني، مع صدور "الأسبوع" و"الدستور" وتَحَوُّل مجلة "روز اليوسف" الرائدة في هذا المجال، لا أظن أحداً كان يقصد انحطاطاً أخلاقياً بالذات، ولا أي موقف مسبق من المقدسات الاجتماعية.[1]

143. سنة 2011 أفكر في وديع سعادة وأتذكر حقيبة المستقبل، حقيبتنا. حقيبة جماعة التماسيح للشعر المصري السري وحقيبة مجاب حرب وحقيبتنا. بالفعل لم نرد أن نحملها. لم ندرك أن وصولنا متوقف عليها. وكان ما حدث لميزو أولى الإشارات الواهية إلى أن هناك مستقبلاً يتدلى رغم أننا كنا قد قطعنا أشواطاً حين حدث. أولى الإشارات.

144. لم يكن بإمكاننا الاحتفال في المعادي، أقول، لأن ميزو محبوس في قضية عبدة الشيطان: أهم ما أسفرتْ عنه الحملات الصحفية ضد الانحلال والتهتك – ومن ثم الخيانة والعمالة وازدراء الأديان – في

الدرويش – Hipster، والتي ترجمها سركون بولص، عن كلمة "هباء": هبائيون.

1 الشيطان الأكبر بحسب الخميني هو أمريكا، بينما الشيطان الأصغر هو إسرائيل.

صيف 1997، وإن لم يقترن مباشرةً بغياهب الدائرة.

145. قبل القضية وبعدها، لم يكف التشنيع من جانب الصحف نفسها على نرجس وصبا وغير نرجس وصبا، ولا نشر الشائعات بالتوازي – تُعاون الصحف عليه أطراف أغلبها قومي التوجه من داخل دائرتنا وحولها – عن التمويل المشبوه لفرق المسرح التجريبي والجمعيات الحقوقية ومخططات الاستعمار الثقافي التي تنفذها مؤسسات الفن المستقل بوعي أو بغير وعي، وعن مرونة أخلاق الشاعرات الشابات وزواجهن من العملاء الأجانب وأعداء القضية؛ ولم يعرف أحد ماذا تكون القضية.

146. كان الغضب والقلق يتراكمان في صدورنا مع أننا ظللنا نتعامل على أن شيئاً مما يُكتَب أو يقال لا يعنينا. وحده حبس ميزو نبّهنا إلى أن مساحة وجودنا تتقلص، أن الأماكن تضيق علينا، على مستقبلنا وما نحمله معنا للمستقبل، حين عرفنا أن أم ميزو في اضطراب عارم وإخوته مرعوبون وأننا بالتالي لا يمكن أن نذهب إلى المعادي.

147. ميزو كان مولعاً بالـ"هيفي ميتال" والـ"بانك روك" وكان يعزف في فرقة. كان يرتدي الجلد الأسود ويطلق شعره المصبوغ بلون فحمي، وفي ليالي الحفلات يضع الماسكارا حول عينيه؛ أحياناً يغطي وجهه بمستحضرات التجميل ليصنع قناعاً أبيض في أسود يبديه قوطياً وقاسياً. الآن أجد صعوبة في تصديق أنه في ذلك الوقت لم يكن هناك تليفون محمول، دعك من كل اللاسلكيات البصرية؛ ولا أكاد أفهم كيف كنا نتواصل بالتليفون الأرضي وحده ونحن في الشوارع طوال الوقت، لا عقل في رؤوسنا لحفظ الأرقام أو تسجيلها على

ورق. لذلك لا أذكر كيف عرفنا باعتقال ميزو؛ ولا أذكر أنني رأيته أبداً بعد الإفراج عنه أو رجعتُ ولو مرة واحدة إلى بيته في المعادي. قال لنا صديق مشترك إن ميزو إثر عودته إلى الحياة كف نهائياً عن عزف الجيتار وإقامة الحفلات، ولا أعرف مدى صحة شائعة أنه تديّن فحلق شعره وربى لحيته وتوسطت قورته زبيبة صلاة.[1]

148. قبل إعلان التماسيح بحوالى أسبوع، أقول – في فجر ليلة أخرى من صيف ذلك العام – كان أكثر من صديق قد عاش الكابوس الكلاسيكي ذاته: جنود مباحث أمن الدولة بثيابهم المدنية يطرقون باب بيته ليجرجروه من مخدعه، لا تعوقهم استجداءات أو تهديدات الآباء؛ كان أكثر الآباء من الثراء أو علوّ المقام بحيث يمكنهم أن يهددوا الضباط المصاحبين للجنود. ومع ذلك، بلا محاكمة، كانت المباحث تستبيح البيوت بحرية متناهية في الفجر يصادرون كل ما يبدو لهم شيطانياً ثم يقتادون الشاب المتهم إلى مركز التحقيق في لاظوغلي أو الدقي أو حيثما يحققون.

149. أذكر ميزو لأن كرمه التاريخي هو الذي جلب لنا، بعد حبسه بأسبوع تقريباً، رؤيا كأنها نبوءة – وكان ذلك ليلة احتفالنا بجماعة التماسيح – ولأن ما جرى له يبدو لي علامة فارقة في طريقنا.

150. هكذا حُبس ميزو ونحن لا نفكر في غير التماسيح رغم الإشارات المتزايدة إلى الأسود في حياتنا. هل كانت هناك إشارات إلى الأسود سوى هوس نايف المطّرد، بعيداً عن "عواء" و"كاديش

1 Heavy metal, Punk rock. قوطي في حالة الملابس والموسيقى: Goth وفي حالة المعمار: Gothic.

وسواهما من أعمال جينزبرج، بقصيدة قصيرة للشاعر عنوانها "الأسد بجد" أو "الأسد على حق"؟ في ما بعد سأتذكر عدداً من الحقائق المتصلة: إن أقرب مدينة إلى قرية باولو هي بركة السبع، مثلاً، أو إن نايف سكن فترة خلف حديقة حيوان الجيزة حيث استوقفنا جميعاً زئير أحد الأسود مرة على الأقل؛ إننا شاهدنا معاً فيلم الصور المتحركة "ذا لايون كينج" إثر عرضه الأول في سينما التحرير بالقرب من بيت أهلي واستمتعنا به كثيراً؛ وإن اسم شيخ قبيلة التسعينيات هو الآخر معناه أسد. لا ضرورة لإضافة أن ليث أيضاً مرادف لأسامة، اسم المسؤول عن أكبر تفجير إرهابي في تاريخ نيويورك، سنة 2001...[1]

151. بينما ميزو محبوس وباولو يحمّض صوراً التقطها في غيابنا – هذا المهم – بينما رضوى عادل تعطي نفسها التصريح بالانتحار عن طريق رحلة أخرى تعرف أنها ستوصلها إلى حيث لا تجد دافع استمرار بديلاً عن الحب والنضال – الكتابة أو الفكر، الفن، الثقافة – وبينما نايف يقرأ القصيدة التي هوسته مرة بعد مرة بعد مرة حتى يحفظها عن ظهر قلب، وفي الوقت نفسه يثبت جدارته في فنون البرمجة بما يحقق له صيتاً كحرفيّ بالغ المهارة داخل مجال آخذ في الاتساع، هل كنا نعيش بانتظار أن يظهر أسد؟

152. وقال باولو: "الأسد ليس الله. ليس نظرية حديثة كبديل عن الله، أقصد، مع أن الكلام كله يوحي بذلك." كنا في شتاء ٢٠٠١ قبل بضعة شهور من ظهور أسد من لحم ودم وبعد تفكير أسبوعين أو

1 The Lion King، إنتاج 1994.

ثلاثة في تأويل نايف لأسد جينزبرج؛ وكان باولو قد اطلع لتوه على صياغة أخرى للقصيدة. لا أذكر أين كنا ثلاثتنا. أذكر فقط أنني انتبهت إلى أن باولو طال فجأة واكتشفت أنه منذ ليلة الألفية ينحف بشكل مروّع. بين يوم وليلة كان قد عاد إلى وجهه ذلك الجمود الذي لم نحسب معه صفاء ابتساماته ممكناً، ومع الوقت ازدادت حدة الأخاديد على خديه؛ تحجّر غضب شفتيه وجفّت عيناه. لكنني لم أكن قد انتبهتُ إلى أنه نحف إلى هذا الحد. ولا أعرف من أين واتته تلك القدرة الخارقة على التنبّؤ وهو لا يدري، لكنه واصل الكلام بنبرة رائقة.

153. "الأسد هو الثورة،" هكذا قال باولو، ونحن لا نعرف ماذا يمكن أن يعني كلامه؛ ومع ذلك – للمرة الأولى وربما الأخيرة في موقف كهذا – لم يخالج أداء نايف أي أثر للتهكم على ما يقوله باولو، لم يطالعه بإجلال مصطنع أو يهز رأسه ممتثلاً مثل طالب علم كاريكاتوري يستمع إلى معلمه الحكيم، بل بدا أنه ينصت فعلاً: "ولذلك يجيء مُتسحّباً لكن يصاحب ذهابه بركان. لذلك أيضاً يقول إنه سيرجع: الثورة دائماً ترجع لأنها دائماً تؤدي إلى كبت. الأسد هو هذا الكبت، تعرف الكبت؟ وهو الطاقة القادرة على نفيه أيضاً. الأسد هو طاقة الحرية التي تجعل الناس تثور، والأسد هو الكبت الكامن في الثورة. أنت تقضي حياتك تكافح ثم تكتشف أن كفاحك انتهازية، ويبدأ كفاح آخر لتصحيح ذلك. تعرف الانتهازية؟ الأسد هو الكفاح بانتهازية حقيرة من أجل حرية ممكن أن تتحول إلى كبت في أي لحظة...

154. وأتذكر أن ميزو، ذات مساء سنة 1995 أو 1996، داهمنا على مقهى الحرية في باب اللوق بكتاب مختارات مترجمة من مثنوي جلال الدين الرومي عنوانه **أن تتحسّس كتف الأسد**. ومتحمساً ضرب بالكتاب على المنضدة وهو يلهث: "سمعت القصة التي في هذا الكتاب يا 'مان'؟" وانتبه نصف ضاحك إلى أن طرف الكتاب ابتل في طبق الترمس وعلق بصفحته قشر ترمسة أو اثنتين. (يضحكني الآن أن ميزو، بإنجليزيته وبُعده عن ثقافة المصريين إجمالاً، كان مسلماً مؤمناً رغم "شيطانية" مظهره: من قبل أن يُحبس في قضية عبدة الشيطان، كان ميزو يقول عن نفسه إنه صوفي وكان يردد إن النبي محمد "رسول كوول تماماً" ولا أفضل من الإسلام في كل أديان الأرض.) بينما يجرع زجاجة "ستلا" وراء أخرى، حكى لنا ميزو عن أمثولة يتضمنها الكتاب.

155. **فلاح ربط ثوره في الإصطبل فجاء أسد أكل الثور ورقد مكانه. وحين خرج الفلاح في ساعة متأخرة من الليل ليطمئن على ثوره، تلمس الركن إلى أن مرّر يده على جنب الأسد وفوق ظهره؛ تحسس أحد الكتفين وعبر الصدر تحسس الكتف الآخر. وكان الأسد يفكّر: لو أن نوراً أزال حجاب الظلام عني أمام هذا الرجل، لنفق الرجل لتوه مما انكشف**... كان هذا الأسد، بالنسبة إلى ميزو مخموراً، رمزاً خلاباً لحقيقة وجود الله.

156. وقال مجاب حرب إن المصريين رغم كل ما يدّعونه من ورع هم في الحقيقة ملاحدة. منذ أسابيع فقط، بعد مشاجرة كلامية مع زميل مصري له في الكويت حول صورة المتظاهرة التي عرّاها جنود الشرطة

1 Cool Man.

العسكرية وداسوا على صدرها في شهر 12/2011؛ وكان الزميل يلوم الفتاة على نزولها إلى التظاهر وكأنه في حد ذاته مبرر لما فعله الجنود... إنهم "عبدة كل وثن باسم إله لم يعرفوه و لم يريدوا معرفته. يتصورون إلهاً على مقاسهم 'مصلحجياً'، مخادعاً، منافقاً، تافهاً، شكلياً، عنيداً في الجهل، لا يلويه شرف الغاية عن خسّة الوسيلة" كلام مجاب طبعاً عن سكوت الإخوان المسلمين والسلفيين، فضلاً عن حزب الكنبة على جيش يقتل شعبه في الشوارع، لكنه يتكلم أصلاً عن غياب الأسد: العمى عن الأسد في الحياة، وهو العمى عن الحياة نفسها.

157. بعد أمثولة ميزو بخمس عشرة سنة، قبل عام تقريباً من الآن، سأتذكر تأويل باولو للأسد في قصيدة جينزبرج حين أشعر أن الله ظهر بالفعل يوم خرج الملايين من مساجد القاهرة بعد صلاة الجمعة إلى الشوارع لمناهضة وزارة الداخلية بالأساس: يوم 28/1/2011. صباح السبت 29/1، قبل أن أغسل عن جسدي آثار أربع وعشرين ساعة من الجري والوقوف والجلوس على الأرصفة فضلاً عن التحايل على الغاز المسيل للدموع بالمياه الغازية والخل والبصل، جلست على السلالم في مدخل العمارة التي أسكنها في المنيل قبل أن أصعد إلى شقتي.

158. أذكر أنني كنت أنظر إلى السماء بلا تركيز حتى انتبهت إلى دخان كثيف يتصاعد من مكان ما باتجاه الشمس فيغير لون السحاب. وفكرتُ أنّ لا تعارض بين تأويل باولو والتأويل الأصلي لنايف: الأسد هو الثورة لأن الأسد هو الله؛ حين تقوم ثورة، وبغض النظر عن أي كلام في الدين، يظهر الله. أذكر أنني قلتُ لنفسي شيئاً

من هذا القبيل ثم أضفت جهراً: "بركاتك يا أسد!"

159. نتيجة صراعاته والإصابات التي تستتبعها، نادراً ما يعمّر ذَكَر الأسد في البرية أكثر من عشرة أعوام. وبينما هو "مقيم"، يعتمد على زمرة اللبؤات التي يرعاها في طعامه مقابل حمايتهن وإحبالهن؛ وحدهن اللبؤات يصطدن ويرعين الأشبال من الجنسين. لكن فيما تبقى الأنثى داخل زمرتها بعد أن تكبر وتتعلم الصيد، يُطرد الذكر بمجرد أن لا يعود شبلاً فيضطر إلى إيجاد طعامه بنفسه... إلى أن يعثر على زمرة لبؤات مناسبة يهزم العجوز القائم عليها ليحل محله؛ وربما يتحالف مع أسد آخر أو اثنين فيقومون على الزمرة التي يحتلونها معاً. يكون المقيم الجديد مثل ملك فاتح أمام سباياه. ومن قبل حتى أن ينبش الأرض ويتبول كمن يبني أسواراً حول دولته – بينما تقاومه الأم قدر استطاعتها – يقتل أشبال غريمه لكي تنبعث الرغبة في أجساد الإناث فيتمكن من إحبالهن من جديد. بلا زمرة يصبح الأسد "جوالاً"، وهو ما يحدث للعجوز المهزوم أيضاً بعد أن يخسر المعركة.

160. يخطر لي الآن وأنا أفكر في حبس ميزو أن الفرق بين الأسد المقيم والأسد الجوال هو الفرق بين الفلاحين والبدو. يخطر لي أننا كنا فلاحين نحلم بأن نكون بدواً مثل بدو البيت جينيريشن من الهبائيين، وأن التشرد الذي استمرأناه لم يجنّبنا الحاجة إلى لبؤات ما كنا لنجدهن في الدائرة. كنا فلاحين نتصرف كما لو أننا بدو ولا نصدّق أنفسنا تماماً. وفي ضوء ما سيحدث سنة 2011 – بغض النظر عن الثنائيات والنقائض، بغض النظر عما أردنا واستطعنا أن نكونه – كنا أشبال لبؤات مستكينة يقتلنا آباء مسعورون. رغم الخير المفترض

أنهم يريدونه لنا ولموطئنا وربما بحجته، يقتلوننا.

161. في المساء التالي على لقائي بماهر عبد العزيز، عشية التحرك الثاني المجهض وما سُمي فضيحة علياء المهدي، سيخطر لي أن الثورة ليست سوى محاولة من جانب الأشبال لمنع المقيم الجديد من قتلهم بلا مقاومة. وإلى أن تقوم ثورة تتيح التصدي، ليس سوى الهرب عن طريق الهجرة أو الالتحاق بدائرة المثقفين (المناضلين، المفكرين الكبار...) سيخطر لي أن السلاح الوحيد الذي يملكه شبل حيال أسد في عزّه هو جسده العاري، وأن المحاولة – سواء أكان من يقدم عليها مناضلا مثقفاً أو مجرد فتاة بلهاء، سواء أقدم عليها بتعريض جسده لرصاص الأمن المركزي والشرطة العسكرية أو بتعريته حيث لا يُنتظر أن يُعرّى – سيخطر لي أن محاولة التصدي للأسود المقيمة (مثلها مثل محاولة الهرب منهم، ربما)، هي بالضرورة انتحار.

162. سنة 2008 سينشر أدهم اليمني تحت عنوان "الخروج الأخير بعد أن يهاجر: **كانوا قد حكموا عليّ بالإعدام أنا واثنين من أصدقائي وذلك حسب قولهم للقتل الرحيم الذي أفضى إلى موت صديق رابع لنا. لم نفهم جيّداً ما يعنونه بتلك الأقاويل ومن ثم فقد تركونا طلقاء دون حراسة أو زنازين وحكموا علينا بنوع من الإعدام يسمونه الرحيم كذلك وهو نوع تنفّذه امرأة في منتصف العمر لها وجه بشوش وليس به من ألم ولكنه موت على أية حال. تشاورتُ مع أمي وأصدقائي قبيل التنفيذ بقليل وقررت الهروب وافقوا جميعاً بينما بقيا هما في انتظار السيّدة. وما إن خرجتُ بعدما أعطوني كل ما لديهم من نقود حتى تقابلتُ والسيدة الرحيمة وجهاً لوجه بجانب البيت. لم ينظر أي منا للآخر، تحاشتني ومضت وأنا تجاوزتها**

بقليل وبدأت أجري وأنا أتلفت ورائي في بلاد أخرى.

163. بعد أن نعلم بحبس ميزو في شهر 6/1997، على كل حال، سندرك أن الاعتقالات بدأت مع ذيوع خبر حفلات هيفي ميتال أقيمت خلسة في بدروم قصر البارون على طريق صلاح سالم، ذلك المبنى القوطي المهجور وقيل المسكون، فنقبل بالأمر الواقع إلى أن يُفرِج النائب العام عن أصدقائنا لانعدام الأدلة. (كيف ظللنا – ولمدة تسعة أشهر حتى اشتعلت المواجهات من جديد – نقبل بالأمر الواقع؟ كيف بعدما خرجنا إلى الشوارع لنزيح وزير الداخلية فأقلنا الرئيس ثم اقتحمنا أو هيئ إلينا أننا نقتحم مقرات أمن الدولة؟) وفضلاً عن الحبس بلا حق في الزيارة، سيكون المحتجزون قد تعرضوا إلى استجوابات قاسية وصلت إلى حد غسيل المخ بدعوى تصحيح المسار الأخلاقي والعقائدي لدى حوالى مئة من رعاة المستقبل التائهين.

164. ولأننا يقتلنا آباؤنا... بعدما قال أمل دنقل "المجد للشيطان" بثلاثين عاماً، كان الشباب يعَلّقون من أقدامهم ومصر كلها في صف أمن الدولة. ليس لأن الشعب يحب الحكومة ولكن لأنه يكره إبليس؛ والصحافة الحرة على طريقة عادل حمودة ومصطفى بكري أقنعتْه بأن هؤلاء يعبدون الشيطان بشكل طقسي، متعللة بانتشار ممارسات كهذه في أمريكا.

165. ليس من صلة في الحقيقة بين الهيفي ميتال والسيتانيزم أو الشيطانية ولا حتى بين السيتانيزم وعبادة الشيطان بالمعنى الحرفي – خلاف الملابس السوداء والحلي الحادة ومستحضرات التجميل، وهي مقترنة أيضاً بمصاصي الدماء وجماعات البانك والإيمو وعدد

كبير من البلاهات – سوى ما قيل من أنك لو أدرت الأسطوانة أو الشريط في الاتجاه العكسي ستسمع صوت إبليس شخصياً يسب الله؛ وهو ما أشار إليه تلميحاً "أهل العلم" الجدد وهم يشخصون مرضاً آخر فتاكاً بَلانا به الغرب الكافر، مؤكدين أن جواز الاستماع إلى الهيفي ميتال ليس وارداً من الأصل لأن الموسيقى كلها حرام.[1]

166. كل هذا، فعلاً، ولا مون في حياتنا... لكن هل لا يحب الشعب حكومته حقاً؟ بعد عام من المشاركة ثم المتابعة للثورة، بدأت أشك في أنّ كره المصريين المتوارث لحكومة يُفترض أنها ظالمة هو مجرد تعبير معكوس عن فزعهم من سقوط تلك الحكومة، السلطة التي تمنحهم الحياة كما تأخذها منهم تماماً، لأنهم لا يؤمنون بحقهم في أن يعيشوا. كأن الله فعلاً خلقهم ليعبدوا ولا شيء آخر؛ ولن يهم كثيراً ماذا يعبدون...

167. ليلة عيد ميلاد نايف تجمّعنا في بيت أهلي أنا و لم نُدر هيفي ميتال في أي اتجاه. كنت لا أزال في عمق "التريب" التي بدأتْ خلال نصف ساعة من تعاطينا الآسيد بالليل حين رشوتُ أم عطا زوجة البواب في اليوم التالي لكي لا تخبر أبي بمجيء ذلك العدد الكبير من الشباب إلى البيت خلال ليلة واحدة وبقائهم حتى الصباح – أعطيتُها أجراً مبالَغاً فيه مقابل ترتيب الشقة مساء 21/6 – ولذلك ظللتُ أشعر، كما يشعر الإنسان دائماً ما لم يكن أجنبياً في القاهرة، بأن الجيران وحتى المارة يراقبونني ويتحفظون على

1 الشيطانية: Satanism فلسفة إلحادية أسسها Anton LaVey ١٩٣٠ م. و ١٩٩٧ م. وأقام لها كنيسة الشيطان Church of Satan؛ عبادة الشيطان: Devil worshop. أما Punk و Emo فهي ضروب من الموسيقى والأزياء.

سلوكي وفي أي لحظة قد تقع مصيبة حقيقية جراء ذلك.[1]

168. أم عطا العوراء مثل الساحرة الشريرة في الحواديت: أحياناً أتذكرها بوضوح باهر. وجهها المشقوق بابتسامة ذل دائمة يضيء فوّهة نفق مظلم في رأسي. وحين يحدث، يبدو لي أنها التجسد الحي لكل شيء مؤلم في المجتمع المصري. أو تجسد – على الأقل – لجوهر أشياء كالاحتيال والاستغلال، ذلك الذي يجعل هذه الأشياء منطق حياة. أعرف أنه منطق قادر على إفراغ أي سلوك من قيمته؛ ولسبب لا أعرفه حتى اليوم، أجدني أسترجع ناشطة حقوقية وقعتُ في غرامها وكان باولو قد أقام معها علاقة قبل أن يلتقي بنرجس.

169. أم عطا العوراء، أتذكرها فجأة (سنَة ذهب في فم أهتم تحاذي جفناً مشلولاً على نصف إغماضة وهي آتية): جبروت طرقاتها على باب الشقة والعنف اللابد في صوتها وهي تلح على أمي في طلب ملابس أو طعام، ثم ضحكتها المكتومة كطعنة متخفية في الزحمة... داخل جلبابها الأسود وحول رأسها طرحة مبقعة؛ في الذاكرة، لا يزيد طول أم عطا على متر واحد.

170. أم عطا تضيء فوهة نفق مظلم في رأسي فتستدعي ناشطة حقوقية فارعة جعداء الشعر، تُدعى صبا، لم تكن تكف – أقصد الناشطة – عن الشكوى من امتيازات الرجال في المجتمع الذكوري والكلام عن ظلم ولا جدوى الزواج (وأنا لا أعرف بعد أن سبابها

1 التريب: Trip (رحلة)، إشارة إلى زمن الوقوع تحت تأثير الآسيد: الـ LSD أو Lysergic acid، أشهر كيوف الستينيات ومن أقوى الكيميائيات المسببة للهلوسة أو "فتح أبواب الإدراك" وهو يأتي على شكل سائل يمكن تجفيفه فورياً على قطعة ورق يتم ابتلاعها.

وتهكمها يضمران دفاعاً جباناً عن المثليين وغيتوهاتهم، وهي متزوجة) في حين أنها ما إن تتعرف إلى رجل حتى تعرض نفسها عليه اعتباطاً، بل تسعى إلى قبض الثمن مقدمّاً في الكثير من الأحيان. هناك خليط من التمسكن والقسوة في المجتمع المصري أظنّ صبا هي التجسد الأمثل لقبحه، لكنني أراه في وجه أم عطا زوجة البواب العوراء؛ وحين يحدث، يرجع إلي رعب اختلاطه بتهويمات الآسيد بعد ظُهر 21/6/1997.

171. اليوم يخطر لي أن ما خفف ذلك الرعب في وقته هو أنني، وبعد شرب الشاي مع نايف وباولو في المقهى ذاته الذي كنا قد أعلنا على رصيفه تأسيس الجماعة – ذاكرتي تقول لي إنه كان شاي سيلان، وإن علباً خضراء منقوشة ببروفيل سبع أبيض يُخرج لساناً معقوفاً ويشهر سيفاً أمام وجهه كانت مصفوفة على الرف المواجه لمقاعدنا فوق "نصبة" الطلبات داخل مساحة المقهى الضيقة – تذكرت ما حدث بينهما قبل يوم واحد من وقتها. تذكرت ما حدث بين باولو ونايف وتماهيت مع الذكرى حتى تمكنت من العودة إلى البيت بمفردي لأحبس نفسي في غرفتي في الظلام، أحدق في السقف وأسترجع الوقائع كأنما بالصورة المجسمة.

172. لا بد أن مقدمة الأحداث كانت يوم 16/6/1997، حين وقعت أولى المواجهات العنيفة بين باولو ونرجس. كان مغتاظاً من أنها لن تقضي معه سوى يوم واحد بين رحلتين فانتقد علاقتها بابنها؛ كرر على سمعها عبارة كان الولد قد قالها لها ليلة عيد ميلاده وهي مسافرة – "ممكن تأتين ليلة واحدة ثم ترجعين؟" – فامتقعت وانتحت جانباً

ثم عادت بعد قليل لتنفث، بهدوء صارم: "لا أحد، لا أحد في الدنيا من حقه يتدخل في أمومتي. وعندما قال باولو إن الأمومة ليست قضيته أصلاً، بدأت ترغي وتزبد بعنف مطرد. غيظها، قال، كان أسود وجنونياً.

173. يومها قالت نرجس لباولو أشياء كثيرة عن التحضر والتربية، عن وعيها بما تفعل وعمق تفكيرها في الأمور، وعن عدم جدارة من لا يفهم بالقرب منها. لكنّ ما أدهشني في ما قالته شيء واحد لا أظنني فكّرت فيه جدّياً قبل اليوم: "كل هذا لأنني نمت معك. عشرات مثلك اقتربوا مني وما زالوا يحترمونني. الغلطة التي عملتُها أني نمت معك." بعد قليل هدأتْ وبكت وهي تقول: "عارفة، عارفة أني أم سيئة." ثم عادت تزعق في باولو قبل أن تنظّر، بذلك المزيج المشهود من التثاقف والخجل، لعلاقة الأم بابنها وتأثيرها على حياة الرجال، منتقدة إفراط الأمهات المصريات في العناية بأولادهن.

174. وأذكر أن باولو سيكتب – تحت عنوان "القارئ المنافق" – بعد يوم واحد بالضبط من هذه المواجهة (ويكون أحدهم قد نشله في معرض مشاجرة مختَلَقة للغرض): **شيء في زاوية التقاطع يعيد وجهك إليّ – وكما قال مولانا "إليوت"، عن سيدنا "بودلير" – "يا شبيهي، يا أخي" شيء يعيد رقصة عجيبة أنت أطلقتَها، بين القتال والعناق. لكنها ألهتني فعلاً عن يدك المدرّبة، وهي تُخرج من جيبي ما يعوزها تماماً. الآن كأنني أرى عينيك – للكوميديان وجه ساخط لو التقيته خارج العمل، لأن مهنته أن يمسح السخط عن الوجوه بالضحكات – فكأنك أنت الفريسة يا**

أخي، يا شبيهي... كأنك أنت الفريسة، وأنا الطير الجارح.1

175. يوم 19/6، كنا في حديقة بيت المريوطية لأن نايف حصل على زجاجة أبسولوت فودكا قررنا أن نشربها في الشرفة ونحن نستمع إلى ثلاثة كاسيتات لياسين التهامي لم نكن قد استمعنا إليها من قبل؛ وبينما نحن هناك تفاقم الحوار بين باولو ونايف إلى أن شبّت بينهما مشاجرة عنيفة أشبه بمباراة مصارعة. قبل أن تشب المشاجرة، وخلال زمن قياسي كما يبدو لي، كنا قد أتينا على الزجاجة مع باكتة بانجو كبيرة وخرطوشة مارلبورو كاملة.[2]

176. تفاقم حوار باولو ونايف وأنا أدندن أحد الأبيات التي يقولها الشيخ ياسين بعدما فرغ شريط الكاسيت الثالث – لعله كان البيت الذي يقول: "وعن مذهبي فى الحب مالي مذهب، وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي" – و لم يعد في الخلفية سوى صوت الشاحنات والنهيق وربما تغريدة شاردة؛ ولا أذكر متى بالضبط قررت أن أبقى مكاني أدندن. اليوم يبدو لي غريباً أنني حضرت المعركة من أولها إلى آخرها و لم أتدخل. أظنها المرة الوحيدة التي تقاتل فيها اثنان منا بالأيدي وربما الذهول هو الذي منعني، لكن ربما أيضاً كنت أريد أن أتفرج.

177. في الحديقة من أمامنا، كانت الشمس تغرب عن الزرع الأجرب المبذور بالزبالة. أتذكر سوراً بعيداً لمحتُ من فوقه قمة هرم خفرع كطرف علبة ثقاب بائشة، وغيوماً بدا أنها مضاءة من

1 T S Eliot: Charles Baudlaire: التضمين المشار إليه في القصيدة، لإليوت عن بودلير، بمعنى "أيها القارئ المنافق، يا شبيهي، يا أخي": Hypocrite lecteur, mon sembleble, mon frere.

2 Absolut Vodka: Marlboro.

الداخل. بقيتُ مربعاً على الكنبة العتيقة حيث كان يمكنني أن أسمع وأرى كل شيء. كنت أدرك أن كليهما على حق: نايف يقول الحقيقة السياسية وباولو مصمم على الحقيقة الجمالية؛ ومع أن الجمال الذي يدافع عنه باولو لم يعد يقنع سواه، شعرت أنني أريد أن أعرف أي الحقيقتين ستنتصر. كنت أريد أن أعرف أيهما ستنتصر في الحياة وليس في مباراة المصارعة، لكن بدا لي أن المباراة مؤشر أو نبوءة ولعلني فضّلت أن أبقيها عادلة.

178. تفاقم حوارهما حين قاطع نايف باولو وهو يحكي لنا إن نرجس اضطُرت إلى تأجيل كلامها مع أشرف في الطلاق لأن حماتها في المستشفى. في منتصف الجملة بدأ نايف يضحك؛ وبنصف الابتسامة الجامدة ذاتها التي ستكون على وجهه حين يخبرني بانتحار رضوى عادل بعد يومين، نغم صوته وهو يردد وراء باولو: "حمااتها!" ضحك وربّت على كتف باولو وقال إنها أساساً "ولية،" لا تختشي. ثم نهض وبدأ يشرح ببرود إن نرجس لا يمكن أن تنجذب إلا إلى أشخاص تستفيد منهم في كاريرها. قال إن على من يريدها أن يعكس لها صورة أسطورية عن نفسها (تكون بموجبها قد أعادت اختراع اللوحة أو المرأة أو الهوية). وقال إنه – باولو – إلى الآن فعلاً يقوم بالدور. "إما هذا أو تدفعها إلى أعلى بالفلوس والعلاقات،" هكذا ردّد نايف مع ضحكة أخرى؛ "في حالة واحد مثلك، ممكن تحلّق عليها بذراعيك لو فقدت توازنها وهي تخرق قوانين الجاذبية." وهذا الخرق، هكذا أقول لنفسي جهراً وأنا أسترجع المعركة بعد أربعة عشر عاماً، هل يؤدي فعلاً إلى الطيران؟

179. "عارف يا باولو،" هذا ما أضافه نايف بتأثر حقيقي بعدما غادرت الابتسامة سحنته، و لم يكن باولو قد استطاع أن يوقفه ليرد عليه ولو بكلمة: "نرجس لما وجدت نفسها منجذبة إليك أكيد استغربت. 'أحبك ولا أعرف ماذا أصنع بهذا الحب'! طالما أنك تروّج لخرافاتها ستبقى معك، اطمئن. لكنها لن تعترف بك أساساً يا باولو. مستحيل تعترف بالعلاقة. ولماذا تلومها على أنها لا تترك مهندساً مستريحاً يسمح لها بكل ذلك من أجل طالب في جامعة الأزهر؟ هي ليست مع أشرف أساساً، لماذا تريدها أن تتركه؟ لا بد أنها تقدح زناد فكرها الآن عن شيء يُسكتك ويُبقيك معها، بنت القحبة! والله يا أخي صعبانة علي... أنت ممكن تحكي لنا عن مرض حماتها طبعاً متناسياً أنها لم ترجع إلى الإسكندرية يوم دخل ابنها المستشفى وهي هنا تجهّز لمعرض الأتيلييه. الذي كان في المستشفى ابنها، ابنها لا حماتها يا باولو. أنت ممكن تحكي لنا عن حماتها متناسياً ذلك لكن يا باولو، يا باولو،" وهنا بان الغضب في صوته للمرة الأولى منذ نهض، "أما حان وقت الاعتراف بأن نرجس تتحجج؟"

180. كان باولو قد حاول أن يبدأ الكلام للمرة الرابعة مع الجملة الأخيرة، وعلى غير عادته لم يبد في وجهه أي غيظ. لا أعرف متى أصبح واقفاً في الحديقة ونايف مكوّر بين الكنبة والحائط. أذكر عدداً من اللكمات في بطن نايف تلقّاها واقفاً وهو يصرخ "تتحجج. أذكر الدم في أنفه أيضاً وإن كنت لا أذكر لكمة في الوجه، وأذكر أنه حين انزلق وتكوّم جواري لم يكن باولو هناك.

181. في الذاكرة، يبدو لي باولو مرتفعاً عن الأرض بعدما لَكَمَ

نايف؛ يبدو لي أنه يحلّق واقفاً كأنما تحت نعليه محرك لامرئي، ببطء وعلى ارتفاع ثابت يتقدم نحو علبة الثقاب البائشة والغيمة فوق رأسه تنطفئ. يبدو لي باولو هكذا ثم يتراءى مكوماً هو الآخر بعد أن يرد نايف له اللكمة – ولا أعرف متى نهض الأخير من جنبي أو كيف وصل إليه – ثم أراهما مشتبكين في تكوين هرمي يفضي إلى كرة مغبرة؛ لا أسمع سوى نايف يقول "تتحججج.

182. هل حدث أم هُيئ إليّ أن الشيء الذي يلمع فوق أعلى تلة قمامة كان شارة سيارة "بيجو" معدنية على شكل أسد واقف على رجلين؟ اللقطة تنتهي بيد باولو الغليظة وقد تحولت هي الأخرى إلى معدن تلتف حول رقبة نايف وتقبض عليها؛ رأسه حجر مواز لأسد البيجو الواقف الذي لا يزال يلمع منمنماً من فوق.[1]

183. أصبح باولو باركاً فوق نايف ونايف لا يزال يشهق "تتحججج،" يتلوى إلى أن يصبح على جنبه رغم ثقل باولو فوق رجليه... وما إن أرخى باولو قبضته حتى أزاحه نايف بخبطة مفاجئة من كوعه أتت أسفل الذقن وطالت تفاحة آدم قبل أن تصل إلى مستقرها، بينما الحجر – رأس باولو – يطير باتجاه المعدن اللامع جراء الصدمة. فجأة، نايف واقف وباولو مكوّر. كنت أدندن البيت نفسه من القصيدة التي يُنشدها الشيخ ياسين حين بدأ نايف يركل باولو في رأسه كأنما لينغم الجمل التي يقولها له بالصوت المستفز الأول: "سنة، اثنتان" – طراخ! – "ستستنفد كل الحجج يا باولو. ثلاث سنين" – طراخ! – "ولن تعترف بك في العلن يا باولو. خمس سنين" – طراخ! – "لن تُطلّق أبداً يا باولو..."

---

1 Peugeot.

184. وحين كف نايف وانثنى ممسكاً بطنه يتقيأ، كان باولو يتطلع إليه بهدوء تام وقد تربع على الزرع يتحسس مكان الركلات في رأسه بيد واليد الأخرى على تفاحة آدم. "سأراهنك يا ابن المجنونة،" هكذا قال باولو. "إن لم تُطّلق نرجس من زوجها قبل 1/1/2000، سأعطيك صورة ما بين فخذيها. تعرف ما بين فخذيها؟ عندي إحدى عشرة صورة طبعت منها واحدة. سأعطيك النيجاتيف كله مع التي طبعتها. يوم 1/1/2000. إن لم تطلق. ولن آخذ منك شيئاً لو طُلّقتْ.

185. في المرة التالية التي نصاحب فيها باولو إلى معمل التحميض، يوم 23/6، لن يأتي ذكر الصورة أو نرجس. فقط بعد صمت طويل سيقول لي نايف: "فاكر بطلة الحركة الطلابية، صاحبة ليث وبهاء؟" وأثناء الاحتفال بإعلان الجماعة، في اليوم التالي على المعركة مباشرة، رغم أن باولو ونايف سيتكلمان كلاهما كلاماً كثيراً في الشعر، لن يتبادلا إلا كلمات إجرائية قليلة. ليلتها كان المعلَن لأكثر المعازيم أن الحفل بمناسبة عيد ميلاد نايف وبلوغه سن الرشد القانوني، وهو ما يعني أنه سيتسلّم ميراثه خالصاً من وصاية عمه تاجر الأثاث الدمياطي البخيل. كان التماسيح يحتفلون بإنشاء جماعتهم، كما سيفعلون كل شيء، سراً: من تحت سطح الماء أو – الأدق – أثناء إحدى ولائم البرك البذيئة وهم يتخاطفون اللحم من أفواه بعضهم وتنتفض أجسادهم أو تدور دورات كاملة على أصوات القضم والابتلاع فيما هم مغموسون في الطين.

186. كنا نسكن شيئاً لا يشبه الدولة إلا في بعض مظاهره الخارجية (هذا ما سيكتشفه منا مَن يفكر ويقرأ أو يشاهد، من عاش ليرى 2011

ثم شاهد)؛ نعامَل بوصفنا ممثلي طبقة أو طائفة أو حتى أسرة صغيرة – "ابن من في البلد أنت؟" أو: "هؤلاء ليس لهم ملة!" – ليس بوصفنا مواطنين؛ ويُنتظر منا أن نبدّي المال والسلطة لأشخاصنا فقط على ما سواهما لنا أو لغيرنا بما في ذلك الكلام الكبير عن الدين والوطن والهوية، مع أن الدين هو الآخر لا يشبه ديناً والوطن مكان نريد أن نهرب منه؛ الهوية كأنها حكم بالحبس مع الشغل مدى الحياة... كان يُنتظر منا أن ندمّر معنى الطائفة أو الطبقة نفسها بسعينا المسعور إلى السلطة والمال، ولا نكف مع ذلك عن ترديد الكلام ذاته.

187. فهل لأننا مرعوبون من أسود على وشك أن يقتلونا قرّرنا أن نتبرّك بالتماسيح؟

188. في المساء أفكر في مون من حيث تصلني أخبار بلطجة الأمن المركزي والشرطة العسكرية؛ أمتن للملف الذي أمامي ولا أشعر بالذنب. لا أعرف كيف أقول إن الملل بدأ ينتابني من تركيب الطقوس والألفاظ في سيناريو أمسى تكرره – بترتيب الأحداث نفسه والشخصيات نفسها، الأكاذيب والجرائم، مرة بعد مرة بعد مرة بلا فائدة – سيناريو أمسى تكرره عبثياً: خرطوش، مطاطي، شحنة غاز جديدة من أمريكا، حرق الخيم، حجارة، مولوتوف، قناصة على السطح، رصاص حي، بلطجية، يا أولاد الكاااالب، أم الشهيد، أعداد المعتصمين، بطاطين وكمامات، قصف المستشفى الميداني والاعتداء على الأطباء، لم ولن نطلق طلقة واحدة على المتظاهرين... ومثلما حدث قبل عقود حيال أخبار المأساة الفلسطينية، أصبحتُ خائفاً من أن لا يعود يزعجني العنف والكذب والتجبر خائف من أن لا يعود

يزعجني قتل الأبرياء في الشوارع أو أن أستمر في تشجيعهم على أن يُقتَلوا ولا أشعر بشيء... ضوء قارص يبرق في رأسي يعميني ويشلني وأفيق على ألم في بطني. هل تتحقق الليلة رغبتي الحارقة في البكاء؟

189. في المساء أستعيد ليلة مون الأولى مع نايف فيدغدغني حنين غير ملائم. ملابسات معقدة للقائهما سيأتي أو لا يأتي ذكرها في ما بعد؛ مثلاً: أنها كانت ترتدي حجاباً حين رآها للمرة الأولى ثم اتضح أنها ليست أو ليست دائماً محجبة. مثلاً: أن شعرها كان أسود فحمياً وناعماً في المرة الأولى التي كشفته له ثم اتضح أنه مكوي ومصبوغ وأن شعرها في الحقيقة مفتول وكستنائي. المهم أنهما – بعد لقائين – وحدهما في شقة نايف في الدور الأرضي من عمارة متوسطة الحجم قرب برج أم كلثوم في الشارع الموازي لنيل الزمالك، يتحدثان عن فلسفة التماسيح ومكان الجماعة من دائرة المثقفين في القاهرة: وسط البلد والكتابة. لا خمرة ولا كيوف ولا حتى موسيقى؛ مجرد اتكاء، في هواء المكيّف، على وسائد الكنبة الضخمة – أذكر أن لونها أخضر فوسفوري والوسائد بيضاء – مع كنكة وراء كنكة من القهوة؛ السيجارة تشتعل من سيجارة... وطوال ثلاث ساعات، لا يحل الصمت (من صوت التمساح الذي يشبه الخرير إلى جدوى تقسيم القصيدة سطوراً، الكلام لا ينقطع) حتى نشب، مع ذروة النيكوتين والكافايين في الدم، شجار حول ما إذا كانت امرأة متزوجة تستطيع أن تبدع بالحرية الواجبة: مون تقول إنه صعب ولكنْ ممكن ونايف، بلا اكتراثه المعتاد، يسخر من سؤال إمكانه.

190. في اللقاء الثاني، حين طَلَعَتْ عليه فجأة بلا حجاب، كانت

قد أخبرته بضحكة صفراء عالية إنها امرأة متزوجة. "يناسبني أكون بنت دين كلب تقليدية،" قالت بتهكم عارض؛ ولاحظ أن الضحكة أضفت على ملامحها قبحاً لحظياً ولكن ملحوظاً، كأنها سكبت على وجهها حمضاً حارقاً. "تعرف أني تزوجت وعمري تسعة عشر؟" وأنكر نايف على نفسه، إثر ذلك، غيرة شابت انبهاره المتزايد بشاعرة الجيل، لم يستطع أن يحدد إن كانت منها أو عليها: أحس أنه مهزوم ومصمم على الانتصار؛ كان انشغاله بأمر الأسد قد خف منذ لقائهما الأول، ولعله عرف أنه سيركز معها.

191. من حيث أنها شعر خالص، كانت مون عكس الكليشيه تماماً. لكنها كانت في الوقت نفسه كليشيه. الآن فقط، وأنا أستعيد ليلتها الأولى مع نايف ولا أدري من أين عرفتُ تفاصيلها، يخطر لي أن ذلك يفسر كل شيء. رغم ما رأيته في مون و لم أستطع رؤيته حتى في صبا ونرجس، رغم اختفائها الذي جعلها شعراً في النهاية... كانت مون كليشيه. ولا أعرف ماذا يجعلني أفكر في السفاحين الأمريكان حين أتوصل إلى تلك الحقيقة هذا المساء، هؤلاء "السيريال كيلرز أو القتلة المتسلسلة جرائمهم، والذين صعدوا بالتزامن مع الهيبيين من ورثة البيت جينيريشن إثر انفراجة الستينيات في أمريكا: ثورة السود والثورة الجنسية وحركة السلام العالمي المناهضة لحرب فيتنام (وهي أشياء مهد لها البيت جينيريشن، فهل مهدوا أيضاً لهؤلاء؟) يتميز السيريال كيلرز بالذكاء الشديد لكن ليس لجرائمهم دوافع؛ كثيراً ما تختلط الجرائم برغبات جنسية غير مألوفة، لكن ليس لها دوافع. فكرت فيهم وأنا أقول لنفسي إن نرجس نكتة وصبا شعار

بينما مون كليشيه؛ وإن الكليشيه مع أنه ليس أقرب إلى الحقيقة من النكتة أو الشعار يظل أجمل منهما أحياناً كثيرة.

192. القتل بلا دافع مرة بعد مرة بعد مرة: حدثت في التاريخ أشياء تشبهه خارج أمريكا وقبل الستينيات – كما حدثت ولا بد لحظات تحرر شبيهة بأجواء الهيبيين و"الفلاور باور": سلطة الزهرة، في مقابل قوة السلاح – لكنه لم يكن بالتركيبة ذاتها، ولا ذات الانتشار. وكما فتحت الكيوف الجديدة المكتشفة والمركّبة مع الحرية الجنسية والمناداة بالسلام العالمي طريقاً غير مطروقة إلى الاتصال الإنساني ونبذ الحروب، كذلك فيما يبدو فتحت طريقاً إلى نوع جديد وفردي من القتل المنظم. فكرت في السيريال كيلرز وأنا أقول لنفسي إن نرجس نكتة وصبا شعار بينما مون كليشيه، وإننا بكتابة الشعر إنما كنا نحاول أن نصل إلى الحقيقة؛ على الأقل نتجنب الكليشيه والنكتة والشعار، نحاول أن نقول شيئاً سواها. ومع ذلك، بأكثر من معنى، كانت مون أقصى ما استطعنا أن نقوله. وكما استمر عالم ما بعد البيت جينيريشن في إنتاج نسل للبيتنيكس من أمثالنا في أمريكا وخارجها، لم يكف عن إنجاب القتلة المتسلسلة جرائمهم هناك.[2]

193. إثر نشوب شجارهما في شقة الزمالك – هذا ما حدث في صيف 2001 – سيقول نايف لنفسه إن مون طوال الجلسة لم تنظر إليه في عينيه، ويلاحظ إثر ذلك أن الشيء نفسه حدث في لقاءيهما

1 Serial killers.

2 فلاور باور Flower Power أشهر شعارات الهيبيين Hippies من ورثة الهبائيين Hipsters معاصري الـ Beatnicks.

السابقين: كانت تتجنب النظر في عينيه حتى في أكثر لحظاتها اطمئناناً. سيتبع عبارات مدببة يتبادلانها صمتٌ مكهرب، وإن لم يبد كذلك والجسدان مرتخيان. وحين تعتدل مون لتربط شعرها المنتفش حول رأسها كخيمة وراء ظهرها، يصبح وجهها في مرمى يمناه.

194. "تعرف أنك جبان؟" قالت وهي تحملق في عينيه للمرة الأولى بلا خجل أو تردد؛ ولم تكن قد انتهت من عَقد ذيل الحصان تماماً حين نظرت إليه، وهو لا يصدق. "أنا أول شخص يقول لك؟" ولا رمشة؛ فقط بوادر ابتسامة على شفتيها. "أنت فعلا ابن دين كلب جبان. وقبل أن يعبّر عن دهشته وجد ذراعه تتحرك كأنما من تلقاء نفسها. كانت تقول "جبان لأنك لست مستعداً لاستبدال وضعك بوضع آخر حتى في الخيال. أنت خائف تضع نفسك مكان امرأة لأنك خائف تسأل نفسك إن كنت في هذه الحالة لتتزوج. هذا ليس خوفاً مثل الشعور الإنساني الذي نعرفه كلنا بدرجات؛ هذا يحمل موقفاً معنوياً مسبقاً وارتياحاً سهلاً لما أنت عليه، لذلك أقول لك إنك ابن دين كلب جبان...

195. وهذه في ظني بالضبط عبقرية مون. كانت عندما تقول أشياء مجتزأة ومفاجئة مثل هذه تقولها بطاقة هائلة، بإصرار يستحضر تحدي الضعيف للقوي أو الثائر لمن يقمعه؛ وكانت تُشعر الذي أمامها، من ثَمّ، بأن الكلام يخرج من مكان عميق: إنها أمعنت التفكير في الأمر وإنه أوجعها؛ إن ذكاءها في استخلاص رأي لا يسمح تماسكها الداخلي أو لا مبالاتها بعرضه على نحو أكمل هو ما يبرق في عينيها حين ترتعش شفتاها. بينما الحقيقة أنها تقول أشياء لم تُختبر

وتبالي جداً بتأثيرها المباشر، أشياء خارجة من انعدام تام للتماسك. كانت مون تكذب بحذر وهي لا تصدق نفسها، وكانت الأشياء التي تقولها كليشيهات حتى لو دارى ذلك إعجابنا بقائلتها. هذه هي العبقرية التي أوقعت نايف رغم شطارته لأنها في ظني عبقرية الكليشيه، بينما أخذتُ أنا وباولو بالشعار والنكتة لأننا أقل شطارة أو أكثر ضعفاً.

196. كانت تقول "لذلك أقول لك" عندما استقرت كف نايف على خدها. وحين انزلقت الكف إلى رقبتها واصلت: "إنك ابن دين كلب جبان. معي حق أو لا؟ لما قلتَ إن المسألة لا تفرق...

197. لم تكن صفعة بالضبط، مع أن الذراع مرفوعة واليد مشدودة والكتفين قُطر دائرة. كأنها تهديد بصفعة كانت مون لتردها فوراً لو لم يختل توازنها تحت ثقل الصافع الواقف فوق رأسها الآن. بينما يستدير ليواجهها، تخبطت واهتزت حتى استقرت مقرفصة على ركبتيها فوق الكنبة؛ وانحسر فستانها الصيفي الطويل عن فخذ نحيف وأسمر. حينها نظرت إليه في عينيه من جديد. هي نفسها لا تدري إن كان شيء في النظرة قد اختلف، لكنه لم يعد مشدوهاً من أنها تفعل.

198. فخذ نحيف وأسمر لكنه متورد ومغبش، وشعرها الطويل الكثيف كعدد لا نهائي من الضفائر الكستنائية المنمنمة ملموم في ذيل حصان وهي تنظر إليه. هل تذكّر نايف الأسد؟ هل أثرّت الذكرى على طاقة دافقة في جسده كأنها الشهوة وهي ليست شهوة؟ فخذ متورد وشعر كثيف ورائحة ريحان أخضر من النوع الذي يوضع في الطعام، مع طاقة دافقة وشعرها وفخذ نحيف وأسمر.

199. لم تجفل مون والكف تحوّط قفاها بحيث يستقر الإبهام على تفاحة آدم، ولا يبدو أنها انتبهت على الفور إلى يد نايف الأخرى تشد ذيل الحصان إلى أسفل وهو يعود يجلس بمحاذاتها، مفرود الصدر هذه المرة. فقط، مع ضغط الإبهام وميل رأسها إلى الوراء، تحشرج صوتها إلى أن كفّت عن الكلام ثم سُمع أنين خافت تبعه لهاث – وشفتاها مزمومتان – كأنه لا يخرج منها. ومع أنها لم تضحك حين فحّ في أذنها "ابن دين الكلب هذا أساساً أبو أمك،" لم يدهشه أنها لا تقاوم. "أبووووو أمك... يا بنت القحبة." كان يقرّب وجهه من وجهها حتى استقرت قورته على أنفها كأنه سينطحها. وكانت تزم شفتيها بعنف أشد ورائحتها تقترب بينما ركبتاها تنفرجان قليلاً قليلاً، أبعد فأبعد.

200. في ذكرى جلسة للتماسيح وقعت قبل تلك الليلة بأسابيع، أكاد أسمع نايف يقرقر بتهكم أمام مشهد رجل مُقنّع يجلد ردفين شقراوين هما كل ما يبين من جسد امرأة موثوقة وسط الحديد والجلد الأسود، على الإنترنت. فكيف بإبهامه الآن يكاد يُسقط تفاحة آدم في حلق فتاة راكعة على قطيفة فوسفورية؟ ستقول له مون في ما بعد إن آثار يديه وأسنانه على جسدها، لو أنها شاهدتها أو سمعت بها عند سواها قبل يوم واحد من تلك الليلة، لأصابتها بالتقزز.

201. "ومع ذلك" – ستواصل بضحكتها الصفراء تلك التي تُفتّت الجمال في وجهها – "الظاهر أني أحب سوء المعاملة والتخلف. معك أنت يا 'بيبي'[1]، لاقيت ما أستحق.

---

1 Baby.

202. سنة 2001 وربما حتى الآن، بفكرتنا عن التحضر فكرة نرجس وصبا، فكرة مون عن التحضر كانت حلاوة الجنس تتعارض مع العنف الجسدي. بالذات حين يأتي العنف من رجل ويتوجه إلى امرأة، لم نكن نرى فيه سوى فحولة مصمتة تمارس ذكورتها المتخلفة؛ و لم يخطر لأحدنا أنه قد يكون سبراً لأغوارٍ نفسية لا علاقة لها بمنظومة حياة آتية من وراء الجاموسة. السطوة والامتلاك والولاء المطلق – عكس "التطور كانت أشياء نبتعد عنها بكل عنفواننا؛ وكان رجل يضرب امرأة ليُستثار أو يثيرها يعني أنه يغصبها ويستعبد جسدها، الأمر الذي ينفرنا إلى أبعد حد. لكننا كنا نحتاج إلى العنف أكثر من أي شيء. ولعل حاجتنا إلى العنف هذه – حاجتنا إلى الشعور بسطوة امتلاك ورغبة في ولاء مطلق يبرر حياتنا، أو إلى غواية بإعادة خلق شخص غيرنا في الدنيا – لعلها هي التي حرّكت نايف وأطلقت في جسده طاقة تشبه الشهوة وهي ليست كذلك أو ليس فحسب.

203. هكذا، حين لم تُفرّج شفتيها بينما يلامسهما فمه الذي ابتل فجأة، لم يتردد في لحسهما بلسانه ثم عضهما بشدة ظلت تتزايد حتى أصبح بالكاد يمتنع عن إدمائها. وبعدما استقرت يداها تحت كتفيه بحجة دفعه بعيداً – لم تكن تدفعه بل تضمه، غارسةً أصابعها عبر "التي–شيرت" في ضلوعه من وراء – أذهلت نايف من نفسه وحشية عضه لمون في خديها ورقبتها وبعد أن أنزل عن كتفيها الفستان ونزع مشد الصدر كذلك في نهدها.[1]

1 T–shirt.

204. نهدها في حجم وشكل ليمونة صفراء، لكن الحلمة سوداء وكبيرة جداً كأنها عقلة إصبع من فحم. وحين يحوطها بأسنانه من جذرها كأنما ليجزها – أقصد الحلمة – ستفغر صاحبتها شفتيها للمرة الأولى ويختلط الريحان في رائحتها بشيء بين الفلفل والدخان ولا تصدر صوتاً. كأنّ الأنين الذي خرج منها قبل ذلك علامة صمود ينكسر الآن أمام وجع أعمق وأصدق؛ كأنّ الوجع، بالضبط (وبغض النظر عن كلام سيتردد بيننا أنا وباولو ونايف عن أن شخصاً فقد المتعة أو سئمها لا بد أن يتعلق بالوجع كسبيل أوحد إلى الشعور بأنه حي: بينما أكتب في هذه اللحظة، عن نفسي، أظن ما يحييني أمام أخبار الانتخابات البرلمانية المستمرة منذ شهر 11 هو وجع المتشنجين على الأسفلت جراء استنشاق الغاز، والمضروبين بالرصاص في عيونهم، والراكضين من جلدات العصي أو كابلات الكهرباء... الوجع، ذلك الضوء القارص الذي لا يبصر أحد في غيابه شيئاً) كأن الوجع، بالنسبة إلى مون، مفتاح الباب المقفل الذي وراؤه حقيقتها، والتي لن تعترف بها إلا مزاحاً وبلا اقتناع – كل كذباتها في المرايا – فلم يمكنها أن تعبّر عنها، بالتالي، بأي صوت.

205. أراه يصفعها جدياً هذه المرة ثم، بينما يلفّها بحيث يصبح واقفاً وراءها وهي راكعة، يلوي ذراعيها خلف ظهرها بيد وباليد الأخرى ينزع لباسها الداخلي ثم يُنزل عنه ملابسه ليلجها كأنه يدق لوحاً بين جدارين – كل هذا في حركة واحدة كالبرق – فيجدها بَليلة وسائغة كما لن أجدها للوهلة الأولى، ويميل على ظهرها المفروش كله بشعر كستنائي لامع ليستنشق الدخان والفلفل ويبحث عن أثر الريحان

المبتعد أكثر فأكثر وسط ضغط ينضب ليعود يبتل مع لهاثها.

206. حينها، حين يميل نايف على ظهر مون، سيغرس يديه في تعريج لحمها ويشد الخصلات يدعكها ثم يُدخل إبهامه كاملاً في شرجها ليرفع فرجها إليه ويمد يده يسحق حلمتها بإصبعين ليعود يلكم ردفها... وبتصميم قدّيس يعذبه الرومان على شاطئ البحر الأحمر، ستظل هي ممتنعة عن الصراخ - لا صوت سوى لهاثها الخافت المقطوع رغماً عنها بفورات خوار أو شخير تسعى إلى إيقافها بصعوبة - حتى حين يرتعد جسدها الأسمر الصغير بهزة وراء هزة بعد أن تسحب ذراعيها من يده وتستقر على أربع تتلوى بما يشبه التشنج وكأنها فهد مذبوح من فوره، تعض القطيفة الخضراء وهو يرهز واقفاً ثم راكعاً بركبتيه على طرف الكنبة، قدماه لا تزالان على أرضية الصالة...

207. الجسد الأصم. الذي يستجدي عنفاً لم يعرف أنه يريده. الذي يُقدَّم قرباناً لشيء غير مكونات الحياة في المجتمع المصري. بعيداً عن العيب والحرام ولكنْ بعيداً أيضاً عن الثبات على مبدأ مهما كان المبدأ بسيطاً وصادقاً. الجسد الذي عرفتُه أنا الفتيس صاخباً جباراً على ضآلته وتعرفت فيه على كل زخم التماسيح دفعة واحدة، لعل نايف فطن في صمته تحت هذا الوجع إلى حقيقة خوائهم. ونسي الأسد. بينما يخرج من مون ويتركها مكومة على الكنبة وهو ما زال منتصباً لم يقذف بعد - بينما يسرع إلى غرفة نومه ليُحضر كوفيتين وشمعة سمينة على شكل تفاحة - لعله نسي أن أسداً من لحم ودم يعذبه منذ أسابيع.

208. وأتذكر أننا ليلة الاحتفال بجماعة التماسيح، قبل كل هذا بأقل قليلاً من أربع سنين، لم نأت على ذكر ميزو ولا أي من معارفنا المحبوسين، لكن ثقلاً لا يكاد يُحَس خيّم على التجمّع. عن نفسي، قبل أن يحل تأثير الآسيد، كنت أفكر في مباحث أمن الدولة. وأظننا جميعاً كنا نفكر في أشياء مماثلة وإن لم نجرؤ على التصريح بذلك. كنا نستشرف في الجو المحيط حتى عتبات بيوتنا عداءً عنيفاً لمجرد وجودنا في الدنيا، رفضاً قاطعاً لفكرة أن يشم أمثالُنا هواء الله أو يخطو أحد منا على أرضه. وقبل أن يحل تأثير الآسيد – أتذكر تخيلتُهم. تخيلتهم غُلظاء ثم تخيلتهم دمثين، وهم يقطعون الحديقة إلى باب بيت ميزو المصنوع من حديد وزجاج مضبب، دماثةً كأنّها الغشاء الرقيق لانتهاك بشع وحتمي؛ لا أمل الآن في غلظة رحيمة بالمقارنة.

209. تخيلتُ أحذيتهم كأنها حجر بازلت على مربع الرخام الوردي الذي يتوسط خشب صالة بيت ميزو المستديرة، وعيونهم النهمة تدور على الأثاث غير المتناسق: الكنبة ذات المخدات النبيذية التي طالما استرخيتُ فوقها حتى يجف عَرَقي بعد الرقص أو جرّاء الأمفيتامينات، لوحة أصلية لـ"كاندينسكي وأخرى حمراء لـ"روثوكو"، الفونوغراف العملاق على جانبيه سماعتان بحجم دولابين – تذكرتُ باولو تحت تأثير الـ"إكستاسي" يعانق إحداهما ويُلصق أذنه بسطحها كأنّه يمتص من خلالها النغم الإلكتروني الخارج عالياً جداً من ذلك السطح – وجهاز الموسيقى المتصل بالسماعتين مختبئ وراء الفونوغراف، ثم أرفف رفيعة من خشب أبيض

وكاوتشوك تفيض بكتب إذا ما نظرتَ إليها بعيني الآية الله ستجدها كلها شيطانية.

210. قبل أن يحل التأثير – أقول – تخيلتُ رجال أمن الدولة وعيونهم كأنما انفصلت عن وجوه أصحابها لتجول عبر أبواب كنت قد فَقَدتُ خلفها أكثر من براءة بينما آنس إلى الجدران ذات الألوان الداكنة، السجاجيد الإكزوتيكية والمفارش. ولم تكن العيون نهمة حين تخيلتُها هناك؛ كانت مبلولة بشيء بين الشماتة والانبهار، ما إن يجف حتى تحلّ فيها صلابة تُفرغ الدنيا من الفرح، صلابة كأنها الجانب الآخر للخوف.

211. والآسيد – يجب أن أوضح – كان متعة نادرة أو هدية نتعاطاها على سبيل الاحتفال. أيامها كانت كيوفنا الكيميائية تقتصر على الأدوية الممكن شراؤها من الصيدليات ("الباركينول" و"الكودافين" إن توفر) لكن باولو كان قد حصل من ميزو – قبل بضعة أسابيع من حبسه – على قارورة كغطاء القلم فيها خمس أو ست قطرات "إل–إس–دي" أثناء الحفل، بعيداً عن أعين المعازيم، دخلتُ بها المطبخ وسكبتُها على ورقة من كشكولي ثم قطعت الجزء المشبع وقسمته إلى ثلاثة مستطيلات ابتلعت أحدها من فوري ثم ناولت نايف وباولو كل واحد مستطيلاً. لا بد أن التريب كانت من القوة بحيث حفرت في ذاكرتي الأشياء المحيطة بها. لا أعرف، لكنني إلى اليوم أتذكر أن الجزء الذي قطعته من ورقة الكشكول كان مكتوباً عليه بخط كبير ومائل "أكثرهم غباء أكثرهم ادعاء، والسبب أسهل من الفهم"، وأنني

1 Wassily Kandinsky, Mark Rothko; MDMA : Ecstasy.

ابتسمت لقراءة العبارة متسائلاً عن مناسبة كتابتها وأنا أقطعه.[1]

212. يقال إن جيم موريسون، شاعر فريق "ذا دورز" ومغنيه الأول، رأى موته قبل أن يموت. جيم موريسون المشهور بتعاطي الآسيد وتغني الموت أو "ركوب الثعبان" إلى الحياة الأخرى: الآن فقط أتذكر حكاية أنه رأى موته في "ديث فالي" سنة 1965. وللمرة الأولى منذ سبعة عشر عاماً، يراودني الشك في أن ما جرى لي أنا وباولو ونايف في نهاية احتفالنا بجماعة التماسيح ظُهر اليوم التالي على إعلانها كان أشبه بما جرى لجيم موريسون في هذه الحكاية.[2]

213. لا أعرف إلى أي حد كان للآسيد دخل في الأمر كله، لكن الليلة السابقة على ما جرى – أقصد ليلة الاحتفال – كانت أولى خبراتي بوجود أناس في بيتك لا تريدهم هناك، ليس لأنك تكرههم ولا لأنهم مختلفون عنك لكن لأن ما يربطك بهم ويفصلكم عن المجتمع الأوسع أصبح شيئاً مخيفاً. كأنّكم مصابون في زمن الوباء أو يهود أيام النازي، وجودكم معاً في أي مكان يحوّله إلى كرنتينا أو جيتو ليس ظريفاً أن يكون بيتك جيتو، لكن يخطر لي الآن أن الدنيا كلها كانت تتحول إلى جيتو وأن هذا هو ما لم يكن ظريفاً رغم كل شيء. مع أذان

1 الـ Parkinol علاج للصرع على شكل حبوب له تأثير حاد على الوعي إذا ما تم تعاطيه بجرعات عالية، ويُعرف في الثقافة الشعبية بـ"الصراصير"، أما الـ Codafen فشراب للسعال يحتوي على نسبة كودين Codeine – من المشتقات الأساسية للأفيون – وله تأثير ترفيهي إذا ما شربت محتويات زجاجة كاملة أو أكثر

2 Jim Morrison 1943م. وThe doors 1971م. وDeath Valley قسم من صحراء موهافي Mojave في كاليفورنيا، وتقطع الصحراء حدود نيفادا ويوتاه وأريزونا أيضاً. أما ركوب الثعبان فهو إشارة إلى عبارة Ride the snake في إحدى أغاني الفريق.

الفجر – أتذكر – سددتُ كل منافذ الضوء المحتملة تأجيلاً لمجيء النهار. وحين سمعت نداء بائع الغاز يليه شاري الروبابيكيا – تلك الصرخات الأليفة المغموسة في الصباحات الأسرية والنوم – زحفتُ إلى جوار باولو الجالس مربعاً في الأرض يلف السجائر على صوت "الشيخة ريميتي" لا يزال.

214. "متى تروق الغابة لتَخرج التماسيح؟" هكذا همست لباولو؛ لحظة ارتياب ثم بدأ يقهقه – لباولو طريقة في الانفجار ضحكاً، وبعد ثوان من حدوث ما يُضحك: كأنه اغتاظ منك غيظاً رهيباً ثم سامحك وقرر أن يعبّر عن غيظه بالضحك – وأشار برأسه إلى نايف الواقف وراءنا يتقافز حول فتاة إسبانية من المعازيم الباقين: "حين يهدأ القرد، ربما.

215. أذكر أنه ما إن قال ذلك حتى تحول نايف فعلاً إلى قرد؛ وكنا ننظر إليه ولا نستطيع أن نكف عن الضحك... لكن القرد لم يهدأ ولا راقت الغابة. حتى بعدما ذهب الجميع، لم يزل إحساس الزحام والجلبة. وعندما انتهى بنا الأمر ثلاثتنا راقدين على الأرض وظَهْر كل منا إلى أحد جدارن الصالة، بلا موسيقى أو معازيم، كنت لا أزال أشعر أنني وسط جيتو صاخب والرفاق أسراب نمل يسعى. بدلاً من أي هدوء أو كلام في الشعر، حدث شيء غير متوقع؛ حدث مشهد أو رؤيا. واليوم لا أعرف إن كان قد حدث فعلاً أم اختلقته ذاكرتي، دعك من تأثير الآسيد.

216. لم أفاتح أياً من صديقيّ فيما شهدته ذلك الصباح، لكنني كنت متأكداً أنهما شهداه أو شهدا شيئاً على الدرجة نفسها من الخطورة.

ولعل كلاً منا شهد شيئاً مختلفاً قليلاً عن الآخر.

217. يقال إن جيم موريسون رأى موته في صحراء موهافي حيث شجرة يشوع المقترنة غصونها الصبارية بالهيبيين (حرية الحب الجسدي تحت سقف قوامه السماء ونباتات تقدسها القبائل المكسيكية، ثم دعاوى السلام العالمي تحت غطاء الفلاور باور)؛ وفي ديث فالي بالتحديد، يقال إن جيم موريسون رأى موته: في ذلك القسم من صحراء موهافي المسمى وادي الموت.[1]

218. كان ذلك سنة 1965 بعد تأسيس ذا دورز مباشرة، وكان الشاعر في قلب "تريب" قوية في الخلاء. يقال إنه استهلك يومها جرعات آسيد متتالية سرح على إثرها إلى حيث لم يعد على مرأى من رفاقه. كان شيء يجذبه إلى خيمة بارجة ليس واضحاً إن كانت موجودة "موضوعياً" وكان يعرف أنه لا يجب أن يتبع الشيء ولا يعبر عتبة الخيمة بالذات: أن الخيمة لعائلة الهنود الحمر التي شهد أفرادها يُقتَلون في حادث سيارة وهو في الرابعة من عمره (ما زال متأثراً بالحادث منذ 1947)، وأن حقيقة رهيبة تنتظره في جوفها.

219. يعرف جيم موريسون أن حقيقة رهيبة تنتظره وراء عتبة الخيمة ومع ذلك يخفض رأسه ليمر إلى الفيء البلوري من فجوة القماش – قرص الشمس في ظهره – فإذا به في شقة باريسية سيسكنها فعلا، لكنه لن يسكنها حتى 1971.

220. سنة 1965، بمجرد أن عبر إلى داخل خيمة بارجة في ديث فالي،

---

1 شجرة يشوع أو يوشع: Joshua tree. واقعة رؤية جيم موريسون لموته مأخوذة من فيلم The Doors إخراج أوليفر ستون Oliver Stone، إنتاج 1991.

يقال إن جيم موريسون أصبح في شارع بوترايي على الضفة اليمنى لنهر السين. وهناك، في حمام شقة باريسية سيسكنها بعد ست سنوات كاملة من زمن وجوده في ديث فالي، ستجده حبيبة عمره "باميلا كورسون" ميتاً في "البانيو" ومجفف الشعر بين فخذيه في الماء المكهرب.[1]

221. قيل إن ما قتل جيم موريسون لم يكن الكهرباء وإنما جرعة هيروين استنشقها خطأً على أنها كوكايين قبل أن يسلّم جسده لماء البانيو. والآن، قبل ست سنوات كاملة من يوم استنشق الجرعة، يخفض جيم موريسون رأسه ليخطو فوق عتبة خيمة بارجة يعرف أنها لقتلى الهنود الذين تطارده أشباحهم منذ الطفولة، فإذا به على الجانب الآخر من مستقبل يتدلى قصيراً ومبتوراً شأن مصائر المشاهير. ومن الصالة الرطبة إلى غرفة المعيشة – باب المخدع الرئيسي يؤطر سريراً مهيباً أو هكذا أتخيل – يتبع خط سير حبيبته يوم وجدته ميتاً عبر الطرقة المؤدية إلى الحمام.

222. باب الحمام مفتوح كما سيكون في ذلك اليوم من 1971 تماماً، ولكن على جيم موريسون – مثلما سيكون على باميلا كورسون يوم وجدت جثته – أن يمر من ورائه ويدير رأسه قبل أن يرى. عليه أن يمر من وراء الباب ويدير رأسه، وحين يوجه عينيه إلى عمق الحمام – فقط – يرى. يرى جسده هامداً في الماء المكهرب. يرى جسده هو هامداً تماماً، بفم فاغر وعينين ميتتين.

223. صالة شقة سليمان جوهر على شكل مثلث؛ ورغم ضيقها،

1 Pamela Courson ؛Rue Beautreillis.

فيها مرايا وزجاج يمكن أن يعطي إيحاء بأن المساحة لا منتهية، بالذت إذا ما حاذيتَ حائطاً وتطلّعتَ إلى زاوية امتداده. ليلة إعلان التماسيح كنتُ قد أزلتُ السجاجيد فانكشف البلاط المرقط. وفي الصباح بعد أن غادر الجميع، وقد أطفأتُ الأنوار الكهربائية ولم يبق سوى الضوء العنيد الذي تمكن من اختراق الشيش والستائر، كنا ممددين كعقارب ساعة واقفة بدأ حزها الدائري يتراءى داخل المثلث مع تقعر الحيطان. كنا ممدين في صمت وصخب سليمان جوهر يصلنا مكتوماً ومضخماً وقد تكتلت نغماته فأصبح عواءً واحداً بعيداً. ولا أعرف لماذا لم نكن نتحرك أو نصدر صوتاً.

224. فجأة انتبهتُ إلى مركز أرضية الصالة حيث تكاد تلتقي أقدامنا، وكان البلاط في دائرة ضيقة تحدّها النعال الست كأنه جلد بالون ينفخه شيء ما من أسفل فيحوّل الدائرة إلى نصف كرة ترتفع عن مستوى الأرض وتكاد تدفع أقدامنا إلى الخلف بينما الحيطان تتقعر فتختفي الخطوط المستقيمة تماماً ولا يبقى سوى تلة على شكل هرم دائري كنا نصبح نحن أنفسنا جزءاً من تكوينه. أحلف لك أن أجسادنا مالت عن الأرض إلى أعلى باتجاه قمة التلة كأنما لتصنع عوارض تثبّت الهيكل من داخله؛ رغم أنف الجاذبية، ظلت رؤسنا ملاصقة للحائط بينما أجسامنا مائلة على ارتفاع؛ ومع ذلك لم ينبس أحد. ولا أعرف ما كنا نشعر به في هذه المرحلة من رؤيانا، سوى أن شيئاً غير عادي يحدث ولا مناص من التماهي معه.

225. من أعراض الإ–إس–دي أن يتماهى الإنسان تماماً مع ما يراه أو ما يظن أنه يراه. ولعل هذا هو السبب في أننا لم نتكلم ولا حتى ننظر

إلى بعضنا طوال المشهد: كان البلاط يتكور ويتغير لونه وملمسه، مع العواء الذي بدأ يعلو ويتحور ونحن عقارب ساعة أصبحت عوارض بناء. وكنا نشعر بأجسادنا نفسها، مع التحامها بالمادة الجديدة المنبثقة عن كل شيء، تتصلب في وضعها المائل وهي معلّقة في الهواء حتى تتحول بالتدريج إلى حجر؛ هذه إذن هي المادة الجديدة: حجر أو نوع من الرخام. كل شيء يتحول إلى رخام بينما العواء يعلو ويكتسب نبرة عميقة ومروعة كأنه خارج من حنجرة بلا قعر. أذكر أنني حين ركّزت مع الصوت شعرت بالغثيان وقلت لنفسي إن هذا لا يمكن أن يكون سوى صوت أسد، أسد يزأر مهووساً في الفلوات. لكنني أذكر أيضاً أنه أوحى لي بعدد هائل من الناس مجتمعين في مكان دائري يصرخون بينما أنا على مقربة من ذلك المكان.

226. كأنّني أقول لنفسي – أو كأن شخصاً يشبهني في مكان بعيد تمكن من التسلل إلى داخل رأسي ليقول لي – إنني جزء من كيان رخامي مستدير يرتفع ليحل محل المساحة التي أشغلها بما فيها جسدي، وإن ذلك الكيان هو عبارة عن قاعدة تمثال على شكل كعكة. في مساء ذلك اليوم بعدما استرجعتُ معركة باولو ونايف، وبينما زوجة البواب تكنس المساحة التي ارتدّت صالة عادية مثّلثة التكوين، سأتخيل أن الكيان الذي حلّ محل بيت أهلي هو قاعدة رخامية لم يوضع فوقها التمثال الذي أقيمت من أجله؛ هكذا بلا مقدمات تتراءى لي الكعكة التي استوعبتنا على هذه الصورة.

227. أربع سنين أخرى ستمر قبل أن أعقد الصلة بين ما تراءى وقاعدة تمثال الخديو إسماعيل التي لم يوضع فوقها تمثال للخديو كما

كان مقرراً في عهد الملك فاروق. سأعلم بلا مقدمات أن القاعدة بقيت حيث كانت – بلا تمثال – إلى أن كتب أمل دنقل قصيدة "أغنية الكعكة الحجرية"، أثناء احتجاجات الطلاب التي انتقلت إلى الميدان من جامعة القاهرة (حيث كان قد قُبض على رضوى عادل) يوم 25/1/1972. وذات يوم من شهر 10/2001، سأُخرج ديوان العهد الآتي لأقرأ: **دقت الساعة القاسية/ وقفوا في ميادينها الجَهِمَة الخاوية/ واستداروا على درجات النُصُب/ شجراً من لهب/ تعصف الريح بين وريقاته الغضة الدانية**. ساعتها سأسأل نفسي بهلع: هل كان ما سمعناه ونحن نتحول إلى رخام قبل أربعة أعوام – صخب السوق على هيئة عواء ظل يعلو إلى أن أصبح زئيراً – هل كان هتاف أرباب الحركة الطلابية وهم يتظاهرون في ميدان التحرير؟

228. لم يأت ذكر الرؤيا كما سبق، لا وقتها ولا سنة 2001. ولم أكتشف أن اعتصام 1972 في ميدان التحرير وقع هو الآخر يوم 25/1 حتى شهر 3/2011، بعد الثورة، حين أخبرتني بذلك منى أنيس بمناسبة مقال تكتبه في ذكرى أشهر مناضلي الحركة الطلابية: أحمد عبد الله الذي مات بمرض القلب سنة 2007، بعد وفاة أمي بشهور للمصادفة. فقط سيبدو لي، في أعقاب ليلة الألفية بالتحديد، أنّ العداء الذي استشرفناه على عتباتنا بينما نحتفل بتأسيس التماسيح إثر القبض على ميزو سنة 1997، كان يرقد في بطوننا نحن، أن نظرتنا إلى الدنيا وحدود خيالنا – في كل مرة نبرر فيها سلوكنا أو صمتنا بالمجتمع – كانا تعبيراً عن ذلك المجتمع نفسه (هل لهذا سنبقى على صمتنا بين شهري 8 و12 سنة 2011، حين يفتضح أمر الجيش ويُقتل

المواطنون بأيدي جنودهم؟) أو أن الغضب والقلق في صدورنا نتيجة طبيعية للتبرير.

229. لم يأت ذكْر شيء. ومع أننا ظللنا نتعامل على أن ما يُكتَب لا يعنينا، يبدو لي أن ما حدسناه حين شعرنا بمساحة وجودنا تتقلص والأماكن تضيق على مستقبلنا هو أننا نحن، بخرافاتنا وخيباتنا، بالقصص التي جعلتنا عشاقاً قبل أن تتسنى فرصة التساؤل بصدق عما إذا كنا فعلاً شعراء – وبثورتنا، حتى: بذلك الاحتجاج السلمي الذي تم احتوائه بعد قمعه وعاد يُقمَع إلى أن يُحتَوى – نحن الذين نقلّص المساحات ونضيّق الأماكن. كأننا بتحولنا إلى نُصُب رخامي بلا تمثال إنما كنا نتسلّم حقيبة المستقبل. وبالطبع كان لا يمكن أن نتعرف عليها.

230. ومع أننا ظللنا نتعامل بطريقة عادية... يخطر لي الآن أن مساحة وجودنا المتقلصة تلك – الأماكن التي ضاقت علينا في التسعينيات – هي نفسها أماكن التظاهر التي تحاصرنا فيها قوات الأمن إذا خرجنا، ولا يكفي ألف وخمسمئة شهيد أو أكثر وعام كامل لجعلها تتسع...

231. في المساء أفكر في مون من حيث تصلني أخبار الأحداث وأضحك من أن الاحتجاجات ما زالت سلمية. أهنّئ نفسي على فتح حاوية التماسيح ولا أشعر بالذنب. لا يستهويني الجري في الشوارع واستنشاق الغاز؛ وبالمنطق الانهزامي ذاته الذي أعانني على الحياة في مصر منذ 2001 – "ما بعد اليأس،" كما يسميه باولو – لا أظن وجودي ضمن مئة أو ألف أو مليون أعزل معرّض لضرب النار والدهس والاختطاف سيقدّم أو يؤخّر. أحس أنني جريتُ بما يكفي في الشهور السابقة، وأن ما يمكن أن يحقّقه مقتلي لا يساوي فجيعة

أختي، حتى لو لم يدم حزنها عليّ سوى بضعة أيام؛ أحس بضوء قارص يخلّف ألماً حاداً في بطني وأتساءل بجدية جديدة عليّ في هذا السياق: كل هذا من أجل أن يتنازل المجلس العسكري عن الحكم؛ طيب، ماذا بعد أن يتنازل المجلس العسكري عن الحكم؟ ضوء قارص وقناعة متزايدة بأن سقوط المجلس لا يعني أن شيئاً إيجابياً سيحدث يساوي فجيعة أخت على أخيها، حتى لو لم يدم حزنها سوى بضعة أيام.

232. أفكر في مون وأتذكر أنها لم تبادل نايف عنفه في ليلتهما الأولى معاً. بفرحة قالت لي إنها كانت تُفقدها القدرة على التنفس، أمضت عشرة أيام – وهما لا يلتقيان – وكأنها تحتفل بيديه وعضوه ولسانه حيث تلقتها فجواتها. وبدا أن فجوات جديدة ظهرتْ فيها على الكنبة لتتلقّى لسانه وعضوه ويديه. لم تفطن إلى جدوى إيلامه قبل أسبوع آخر لم يلتقيا خلاله؛ وحين ناولته اللكمة الأولى في وجهه أثناء لقائهما الرابع وهي ترتعش – عيناها على وسطه في أثنائها – أضحكها أن تراه ينتصب على الفور، الضحكة الصفراء القبيحة ذاتها. كان عليه أن يبتدع عذاباً جديداً على سبيل الرد، أمكنها أن تصرخ أخيراً وهو يعرّضها إليه. وأفرحه صراخها.

233. دام لقاؤهما الثالث، كما ستدوم كل لقاءاتهما، يومين متصلين؛ كان نايف يتعطل عن عمله ليظل معها لو أتت في غير يومي العُطلة الأسبوعية، ثم يصبر على غياب عشرة أيام أو أكثر لا يسألها أين تمضيها وقد افترض أنها مع زوجها... إلى أن بدأت تحكي عن أعمال سكرتاريّة مؤقتة كالعمل الذي تعرّف إليها من

خلاله (وغادرتْه خلال أسبوعين لتبدأ عملاً آخر مشابهاً)، موحية بأنها تبيت بحكم هذه الأعمال لوحدها. وللمرة الأولى في حياته، رغم استمرار حضور الأسد، بدأ نايف يتحرق إلى معرفة كل شيء. بدأ يرى مون جزءاً من حركة أو مدرسة أو لوثة هي التحدي الأمثل للشاعر السري. وقبل أن يدرك ما يحدث كان هوس تلك اللوثة أو المدرسة أو الحركة قد تمكن منه. بدأ يتحرق إلى السيطرة على وقتها وحركتها؛ بدأ، مع ضيقها بأسئلته، ينتبه إلى كذباتها... كان يعاقبها ويتضرع إليها تباعاً حتى تُعلمه بمكان وجودها أو تتابع الاتصال أو تمضي معه المزيد من الوقت، لكنها لم تستجب أبداً. "مشكلتك أنك تنسى يا بيبي،" كانت تقول له: "أنا بنت دين كلب متزوجة!"

234. في ليلتهما الأولى معاً، أقول – عندما عاد نايف ومعه الكوفية وتفاحة الشمع التي سارع بإشعالها على مقبض الكنبة، متمتماً "عارف أنك تحبين الشمع الساخن، لا يمكن أساساً أحرمك من شيء تحبينه" – نظرت إليه غير مصدّقةً فعلاً ثم قاومته – مصدومة – بلا فائدة. بقيت على صمتها بينما هو، بإصرار ومهارة غير متوقعة ولا حتى منه، يربط يديها وراء ظهرها بالكوفية إلى أن يشل ذراعيها تماماً، ثم يشدها من حلمتها إلى حيث الشمعة تتأرجح قليلاً وتبعث رائحة تفاح خافتة – كان يقبّل رقبتها بحنان صادق وهو يفعل، متمتماً "هانت يا بيبي، لحظة وتُحسّين بالشمع" – إلى أن طرحها هناك على بطنها وجلس القرفصاء فوق ظهرها وقدماه على جنبيها بالشمعة في يد والقداحة في الأخرى؛ وحتى حين سقطت أولى القطرات لزجة وثقيلة وموجعة على جلدها (نايف يتابع المشهد مثل معلق رياضي،

مهللاً مع كل لسعة حيث الشمع الأحمر يتجمد وينغرس في اللحم على الفور، فيبدو كأنه دم تخثر منذ حين)، كانت تتلوى وتهمهم، تهمهم ولا تصرخ والقطرات تحرق وركها.

235. أذكر أن رائحة الدخان والفلفل خفتت شيئاً فشيئاً خلال ذلك وقد اختلطت برائحة الشمع، ومع ذلك عادت إلى أنف نايف – بكثافتها الأولى – رائحة الريحان الأخضر.

236. ليلتها حين قذف نايف أخيراً في حلق مون قبل أن يحرر ذراعيها من كوفيته ويدعها تضمد جسدها وتتحمم – إلى آخر لحظة كانت يده في فرجها تبلّغها ذروتها كما فعل عضوه ثم لسانه كان مندهشاً من قسوته وحنكة يديه؛ أحس – كما سيقول لي وهو يشكو منها في سياق آخر – أن القوة التي تحركه وهو معها موجودة خارجه، أن مصدرها أكبر من شخصه أو أي شخص سواه: طاقة الدفع ذاتها التي دفعته إلى ترجمة ألن جينزبرج. وخطر له للمرة الأولى أن مون والقصيدة حدّان على طريق قوامها الأسد، وأنه سائر على هذه الطريق إلى ذروة ما، بداية أو نهاية.

237. قلتُ إنني نمت مع مون وأنا لا أصدق أنه حدث حقاً قبل نهاية الحكاية، لا أصدق أنني ملّست على شعرها قصيراً ومعقوصاً بلون الشيكولاتة وجسدها النحيف المكهرب ينتفض بين ذراعي. لكن متعتنا لم يشبها الوجع. ربما أحببتها قليلا، ربما لم يحركني حيالها إلا ما هو موجود داخلي. بعدما تحولنا من أولاد ناس ذلّوا إلى تماسيح ظللنا نتعامل على أن ما يُكتَب لا يعنينا، هذا المهم. وبتحولنا إلى نُصُب رخامي بلا تمثال سنة 1997، تسلّمنا حقيبة المستقبل.

238. إلى أن حدث ما حدث سنة 2001، فعلاً، لم نشك مجرد شك في أننا ذهبنا وعدنا. كانت الأيام تتعاقب إلى طرف لوح خشب مخلخل ونحن نتدحرج وراءها – عن نفسي، أبي سيموت سنة 2004 وأمي بعده بعامين – لكننا كنا أقرب من أي شيء إلى أحداث 2011. وقبل حتى أن يخطر لنا أننا قد نكون طرفاً في عالم يتغير – مع غثيان يصاحب فزعاً بدائياً من التحول إلى فريسة، مع إحساس واه بالانتماء إلى مكان قبيح – كنا نهتف، بعد عشرة أعوام، في ميدان التحرير.

239. حين تُنشر ترجمة نايف لـ"الأسد على حق"، بعد عشرة أعوام من إنجازها، سيلتفت إليها محمود عاطف الشاعر الذي يمكن اعتباره من الجيل التالي على التماسيح. لا علاقة لعاطف بالشعر السري، لكنه ومثلما كنا أصغر قليلاً من التسعينيين، كان أصغر قليلاً من أرباب الجيل التالي (وأكثرهم لم يكتبوا الشعر) أمثال إيهاب عبد الحميد ومحمد خير ونائل الطوخي المترجم من العبرية. ومثل مجاب حرب كان عاطف إخوانياً خارجاً على الجماعة... سيلتفت إلى القصيدة حين يكون بصدد أولى علاقاته الجدية. ولأنه بينه وبين حبيبته يسمي عضوه "الأسد"، سيؤوّل الأسد في القصيدة ككناية عن العضو الذكري، كأن جينزبرج يخاطب عضوه حين يقول: "**أنصتُ إلى عهدك في هذه الدنيا وغدوتُ مستعداً للموت/ خدمت حضورك السرمدي المتضور جوعاً يا إلهي، إنني الآن في مخدعي طوع رحمتك.**" أسد "**يتحجر بالشهوة.**" هكذا سيكتب عاطف، موحياً – وهو لا يعرف ما جرى لنا – بأن "الأسد" هو الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن تُعلَّق عليه حقيبةُ المستقبل.

240. هكذا جاء ثالث تأويل لأسد جينزبرج في أعقاب الانتفاضة الأولى، قبل أن يحتل الجيش ميدان التحرير منعاً لاعتصام ما كان ليحدث إلا محدوداً ومخترقاً حتى لو لم يمنعه؛ وكان بمثابة مراجعة متأخرة للتأويلين الأولين. بعد تسعة أشهر، إثر اندلاع الانتفاضة المجهضة الثانية، سيكون عاطف قد انفصل عن حبيبته تلك ولم ينسها. وستبدو حماسة الناس لانتخابات تحدث قسراً تحت الحكم العسكري بعد أكثر من مذبحة في الشوارع – في شهر 10، دُهست رؤوس المحتجين الأقباط بمدرعات القوات المسلحة؛ ثم، ضرباً وسرقةً وقصفاً بغازات مستوردة حديثاً من أمريكا تسبب التشنج وتُعرّض الحياة للخطر، انتقم الأمن والجيش من المطالبين بعودة الجنرالات إلى ثكناتهم في شارع محمد محمود في التحرير – ستبدو حماسة الناس للانتخابات بعد موت كل هؤلاء بالفعل لا أخلاقياً.

241. الذي جعلنا عشاقاً قبل أن نصبح ثواراً على غفلة، وحوّلنا في ما بعد أيضاً إلى آباء... هل يعرف محمود عاطف أنه الشيء نفسه؟

242. قبل ذلك، قبل أن يحل اليأس بشكل كامل وقبل أن تطفو إلى السطح الطائفية والغباوة، شغلني موضوع الأسد. وفي رجوعي من التحرير حيث التقيت بعاطف يوم أخبرني بتأويله وهو يضحك – لعل ذلك كان في شهر 4/2011؛ الذي أذكره أنه كان قبل أو بعد الاستفتاء الأول على تعديل الدستور مباشرة، حين صوّتت الأغلبية بنعم لمصلحة المجلس الأعلى للقوات المسلحة والإخوان المسلمين – فكرتُ في نايف وباولو.

243. شغلني موضوع الأسد. وعلى بُعد عشرة أعوام أو أكثر، بدا لي

أننا لم نعبد لا الله ولا الثورة قدر ما عبدنا شيئاً يتحجر ليس بشهوة جوفاء وإنما برغبة أثمن من سواها. رغبة، أو غواية بإعادة خلق إنسان آخر. فكرت في نايف أكثر من باولو، وأنا أقول لنفسي إن إعادة الخلق هذه، في استحالتها وروعتها، بالفعل تشبه طموح تغيير العالم. لكن الشعر كان حاضراً في عبادتنا أكثر بكثير مما يمكن أن يحضر في شعائر ديانة أو في برنامج حزبي. شيء أقرب من الدين والتاريخ إلى العضو الذكري، دليل الغرام أو الأمل، هو الذي حركنا – هذا ما قلتُه لنفسي – ولولا هذا الشيء لما أصبحنا شعراء.

244. ليلتها مشيتُ طويلاً قبل أن أعود إلى بيتي في المنيل (كان ذلك قبل أن أنتقل إلى حيث أنا الآن). وبحنين لا يشبه شيئاً، بعدما عبرتُ كوبري الجلاء قادماً من كوبري قصر النيل، تعمّدتُ الاتجاه عبر ميدان فيني إلى حيث كنت أسكن في شارع سليمان جوهر

245. هكذا في الطريق إلى بيت أهلي – ولا أهل – استرجعتُ أجواء 1997: رحلات "الميكروباص" الغرائبية تحت تأثير الباركينول، مثلاً، من الدقي إلى المريوطية بالذات؛ زيارات مخمورة إلى بيت الكاتب الستيني علاء الديب في البقعة نفسها من المعادي التي يسكنها ميزو، استمعنا خلال إحداها إلى الشاعر إبراهيم داوود يقرأ قصيدة عنوانها "الأيام التي تسبق الحرب": "**نتوقف أمام المقاهي/ وكأننا نودعها/ ونترك حبيباتنا بدون أسباب... نضحك بعنف على أشياء ساذجة/ ونتوقف بدون أسباب/ ليظهر المشهد الذي تكرر خمسين مرة في الأيام التي تسبق الحرب/ حزيناً وصامتاً**" (لم تكن حرباً بعينها وإن بدا الأمر كذلك)؛ وجوار وكالة الغوري خلف السور المتداعي لقطعة أرض خلاء،

ضوء النار التي أشعلناها يلعب على وجه رابح قمصان – أصغر كتّاب التسعينيات حجماً – وهو يدخن البانجو في الظلام؛ حشرجة رفيق دربه مهدي العايدي (الذي سيموت مبكراً سنة 1999) وقد خرج من شرفة أحد البيوت في فيصل حيث كان يتناوب على سيجارة مع رابح ورابح لا يكاد يُرى جواره، ليضطجع ويقرأ ديواناً كاملاً وكأنه يهمهم لنفسه: "**في أوضة يربط شباكها بأغسطس إسكندرية/ ربع قرش حشيش/ وتلاتة إصحاب/ وجير متقشر في السقف/ وحوار مقطوع...**

بحنين لا يشبه شيئاً، استرجعت بقبقة الأشياء التي تحدث ولا يبدو أنها تمسنا طوال الطريق.

246. لعل تلك الليلة من شهر 4/2011، ليلة أخبرني محمود عاطف بتأويله للأسد في القصيدة، كانت المرة الأولى التي أسأل نفسي فيها – ولا جواب – كيف تعرّفتُ إلى باولو ونايف.

247. ولعل هذا سبب ذهابي إلى حيث كنت أسكن للمرة الأولى منذ شتاء 2007، حين غادرتْ أختي مع أسرتها وقد سكنتْ هي الشقة إثر زواجها لتكون صحبة أمي والآن لم تعد أمي هناك (اقتسمنا "خُلو الرِجل" بالتساوي). كانت واجهة عمارتنا قد تغيرت معالمها واستُبدل محل الصائغ ببقالة تعلوها لافتة طبيب. في المدخل شاب أشقر يهرش ركبته أسفل جلباب ثقيل لم يكن قد سمع بأم عطا. ابن الفكهاني الذي أصبح مراهقاً منذ آخر مرة رأيته فيها لم يتعرف عليّ، لكنه التقط الاسم وصاح: "رجعوا البلد من سنتين." لم أواجه صعوبة في استعادة أُلفتي مع المكان؛ الذي أرعبني أنني لم أشعر بشيء. كأن الحنين استُهلك كله في الطريق إلى مصدره أو كأنه لم يكن للبيت؛

وكذلك حدث حين واصلتُ المشي إلى المقهى الذي أعلنا قيام جماعة التماسيح على رصيفه في شارع التحرير. المقهى كان كما هو تقريباً؛ فقط، كما يقول ماهر عبد العزيز في إحدى أحلى قصائده، بدا أنه "تزحزح عن مكانه لأربع بنايات." ومع ذلك، لا حنين ولا انتظار. كان المشي قد أتعبني لكنني لم أمكث لأشرب شاياً؛ أوقفتُ تاكسي في أقرب فرصة وأنا أفكر في جاك كارواك.

248. ليلة أخبرني محمود عاطف بأمر الأسد، أقول، تركتُ الدقي وفي رأسي الفقرة الأخيرة من "على الطريق" "هكذا في أمريكا حين تغيب الشمس وأجلس على مرسى النهر القديم المكسر أتفرج على السموات الطويلة الطويلة من فوق نيو جيرسي وأستشعر كل تلك الأرض الخام التي تتدحرج في نتأة واحدة لا تصدَّق ضخامتها إلى الساحل الغربي، وكل تلك الطرق غادية، كل الناس التي تحلم في اتساعها، وفي آيوا أعرف أن الأطفال في هذا الوقت لابد أنهم يبكون في البلاد التي يَدَعون فيها الأطفال تبكي، والليلة ستكون النجوم طالعة، ألا تعرف أن الله هو الدبدوب 'بوه'؟ ولابد أن نجم المساء يتدلى ويُسقط ماساته الوامضة على البراري وذلك قبيل أن يأتي الليل الكامل الذي يبارك الأرض، يجعل كل الأنهار تُظلم، يحتوي القمم ويطوي الشاطئ الأخير إلى الداخل حيث لا أحد، لا أحد يعرف ماذا سيحدث لأحد غير الأسمال البائسة للشيخوخة، أفكر في 'دين موريارتي'، أفكر حتى في دين موريارتي الكبير الأب الذي لم نجده، أفكر في دين موريارتي" – فخطر لي أن أبحث عنها على الإنترنت وأترجمها، ثم أجعل منها "نوت" أشير إليه في "ستيتس

جديد أعلى صفحتي على فيسبوك، مضيفاً عبارة "تحية لجيل 1997.

249. ومع كل ذلك، انتهى عام 1997 قبل أن يقع شيء خارق في حياتنا: حدث غرام باولو ونرجس؛ حدث هوس نايف بـ"جيل البيت" ثم انفصال رضوى عادل عن مجاب؛ حدث الرهان بين باولو ونايف قبل الاحتفال بيوم، ثم رؤيا الكعكة الحجرية بعدما ماتت رضوى مباشرة صباح الاحتفال؛ وبعد يومين حدث أن نايف أخبرني بموتها في الطريق إلى معمل التحميض. لكن كل شيء يحدث، كما يبدو لي، كان يحدث بانتظار 2001. وكنا قد كبرنا فعلاً قبل أن ندرك أنه حدث.

250. فجأة كبرنا. في لحظة ما قبل الألفية وبعد انفصال باولو عن نرجس، فجأة هكذا. ورغم أنني لا أذكر اللحظة على وجه التحديد، أعرف أنها حدثت خلال ذلك الأسبوع: الأخير من 1999. أعرف أنها كانت لحظة واحدة وأنها حدثت لنا ثلاثتنا بغض النظر عن أن نكون قد حققنا استقلالاً أو أصبح لنا مصادر دخل أو بيوت، وبغض النظر عن أن اثنين منا كانا قد جربا الغرام وفقدا الجزء الأكبر من حسن نيتهما جرّاء ذلك.

251. ومنذ كبرنا، ولو بنصف وعي، وأنا أبحث في الدائرة عن

1 Dean Moriarty هو الاسم الذي ابتدعه جاك كارواك لصديقه المقرب Neal Cassidy 1926م. و1968م.: أحد أهم شخصيات البيت جينيريشن وإن لم يكن كاتباً، وقد أقام علاقة جنسية مع ألن جينزبرج رغم أنه لم يكن مثلياً؛ ودين موريارتي الكبير أبوه الذي كان يبحث عنه صحبة صديقه وله ذات الاسم (يذكر أن كارواك اختار لنفسه اسمParadise "Sal" (Salvatore). أما الدبدوب فهو Pooh Bear والإشارة اللاحقة إلى note أو "تدوينة" يُعلن عنها في تحديث للـ status على موقع Facebook.

واحدة قادرة على الانحياز بأي صدق للحب أو الإبداع، واحدة فقط من كل مَن يتحدثن عن الاستقلال والتجاوز أو حتى يمارسنه بدرجات... يمكنها أن تتخلّى، في مقابل فرحتها، عن مكاسب من قبيل أسرة تعيسة أو "سي–في" لا يعكس مشروع حياة، مكانة اجتماعية تَحملها صداقات رجالية بمنافعها، أو شهرة عبثية إلى حد الكوميديا لأنها ستظل محدودة بالدائرة... ومنذ منتصف التسعينيات وأنا أراجع البديهيات.

252. كبرنا وكان مجاب حرب يكتب ونحن نكبر؛ كأنه كان يكتب عنا نحن: **أطاحت الخمرة بعشرة رؤوس/ في المقابل... لم نخسر أرواحنا/ دخلنا بيوتنا كغرباء/ سهونا/ حتى صارت لنا لحى طويلة/ وحين توسط القمر/ وأصلح المغني أوتاره/ سطونا على غسيل الجيران/ دفعنا أبواباً، موائد، وكراسيّ بالأقدام/ آهاتنا العالية/ تؤمن ظهورنا في العودة/ أعماقنا... حجارة خفيفية ومشطوفة/ نقذفها باتجاه البحر/ فتقفز على سطوح الأمواج/ ملسوعة وضاحكة/ نحن دببة الشعر الكسالى/ نجلس على مؤخراتنا ونتتطوح/ نتفلى/ ويلكز بعضنا بعضا مناديا بالأسماء/ كي لا ننسى/ نروح إلى العالم بجفون ثقيلة، وأحذية قذرة/ أين مصروفنا؟/ يا حنان/ آتنا بكتف المحب وعكوته/ آتنا بالمخاصي/ من عينيه تسقط حبات البازلاء/ وعلى لسانه يختلط الحب بالجزر/ يا حنان/ آتنا بحبيبته لنضاجعها على السفود/ واحدا واحدا نسقط في النار/ ملامحنا ترق وتصفو/ يا حنان/ نحن أيضا أبناء عائلات/ نحن أبناء شياطين وقتلة/ كانوا يمرون من هنا/ كان باستطاعة أحدهم أن يشعل لنا سجائر/ ويتبادل معنا كلمات/ الكلمات/ الكلمات/ نتكلم، وليست لنا**

1 سي–في: Curriculum vitae (CV)، باللاتينية: سيرة حياة.

كلمات/ نتكلم وبحة أصواتنا كسكين صدئة/ كسحابة من الأرق/ محشورة في الصدر/ نتكلم وليست لنا مصابيح/ في صحتك يا مانولي/ عشرة جنيهات في ثمالة الكأس/ عشرة أخرى من أجل صليبك/ دسسنا أيادينا في معاطف الصوف/ وحملناه على الشاحنة/ نهبط المدن عند الفجر بأنوف ترشح/ من أجلنا/ جرى الدم أسود/ وفي اجتماع الظهيرة حل الحزب نفسه/ القاتل كان منا/ عالم رياضيات وعاشق فاشل/ وعلماء رياضيات قادمون/ من الغرف المغلقة/ المسجل عليها حسابات القيامة ودوائر الجحيم/ وبالابتسامة نفسها/ لفم يعجز عن اكتناه المسرات/ يحلمون بسجون ذات أسوار عالية/ وأخرى مفتوحة على الصهد/ يحلمون بكرات الحديد/ تجر ظلالهم المسلسة/ بطرقات معول كوني/ على الحجارة البيضاء/ بصرخة الإلحاد/ في عمل رائع لا ينتهي/ عمل لا جدوى منه/ وداعاً يا مانولي/ شيء واحد معنا/ أفكارنا/ لا ليست لنا أفكار/ سنتزوج، حتى تصير لنا أفكار/ وبعدها أيضا من يدري/ سنحمل أخف الحقائب/ وبلا حقائب/ كصفارة باخرة تميل عن الرصيف/ كلفتة توديع من القرن/ كشعار للموت/ كنشيد.....

253. فجأة كبرنا وما كدنا نكبر حتى ظهر الأسد. جاء دور نايف في الغرام متأخراً ربما لأنه كان أشطرنا في الحياة وربما لأن الغرام، كونه لم يحدث حتى كبر، أفقده أكثر من حسن نيته.

254. لكن كل شيء يحدث كان يحدث بانتظار 2001. أقيس على 2001 ليس لأنها كانت سنة الانهيارات بعيداً عن أي أحداث عالمية، فقط لأنها شهدت نهاية الحكايات. وطوال العام كانت الأشياء التي تحدث منذ 1997 تمتد وتتداخل وتشتد وطأة حدوثها.

255. في أوائل شهر 7/2001، مثلاً، وقع شجاري الأخير مع نايف.

لم نتقاتل بالأيدي مثلما فعل هو وباولو قبل أربع سنين أو أكثر، في اليوم السابق على إعلان التماسيح. لكننا انتهينا إلى قطيعة؛ وكانت قطيعتنا إيذاناً بما سيحدث له خلال ستة أسابيع بالضبط من تاريخها. لا أقول إنني كنت لأحمي نايف من الشر أو حتى إنني كنت طرف خير في حياته، لكن يبدو لي بالنظر إلى تسلسل الأحداث ابتداءً من رهان باولو معه ومروراً باستقراره في شقة الدور الأرضي التي استأجرها أواخر 2000 جوار برج أم كلثوم، تلك التي ظل يبحث عنها مع السماسرة طوال عام – ولا أعرف سبب إصراره على هذا الركن البحري من الزمالك – يبدو لي أن قطيعتنا جعلت نايف أكثر وحدة قرب النهاية.

256. خلاف باولو وأنا، لم يكن عند نايف من يحدّثه بأمر الأسد. وأظن تدهور علاقته بباولو من قبل حتى أن تظهر مون جعله يكتم المسألة في قلبه حتى سكرنا ثلاثتنا ذات ليلة في صالة شقته تلك، صحبة أستاذة آثار إيطالية تسكن فوقه ومغنية تروتسكاوية شقراء من طلخا مقيمة عندها إلى أن تجد سكناً في القاهرة، تتفاهم معها إجمالاً بالإشارة: "نطّة فرنساوي،" كما يقول باولو عن أمثاله من الشقر إذا ما عاد أصلهم إلى الدقهلية، تلميحاً إلى أن رجال بونابارت غرسوا بذورهم هناك. في المستقبل القريب، من داخل دائرتنا أيضاً، سيَذيع صيت هذه الفتاة التي تسمي نفسها "رحلة" من الآن، وستنتشر الأغاني الشعبية التي تؤديها، مثل إلهام المدفعي، على أنغام الجاز. لكن ليس بعد.[1]

---

1 Jazz

257. لعل ذلك كان في أواخر شهر 4/2001، بعد تعرف نايف إلى مون بنحو شهرين. كانت مون عند أهلها في بور سعيد أو هكذا أفهمتْ نايف (هل كان لمون حقاً أهل في بور سعيد؟ كيف لم نسمع بهم إلا تلك المرة؟) أتذكر لأن باولو كان يسخر من قلق نايف عليها: "المفروض كانت تتكلم،" يردد وراءه ويضحك. وفي أثناء ذلك كانت رحلة تحدثنا عن الأديان – إنها جميعاً فارغة، البوذي والهندوسي كالسماوي تماماً: مجرد عقبة أمام الأممية الرابعة – لكنها تفعل بغنج ملفت إلى درجة أنها لو كانت تقول الذروة بدلاً من الثورة، لم يكن أداؤها ليختلف.

258. لا أعرف متى حدث كل شيء. لم تكن المرة الأولى التي يقوم فيها نايف بفعل ميلودرامي فجأة رغم البرود الغالب عليه. كان باولو يراقص السيدة الإيطالية ويوشوشها في أذنها ثم ينظران إليه ويضحكان. بدا هو ذاهلاً فوق الكنبة وقد استقرت رحلة وسط رجليه في وضع بين الركوع والقرفصاء، تسأله هي الأخرى عن السر في تعلقه بامرأة – "كما يقول صاحبك" – من الرجعية والتخلف بحيث تمارس ذلك "التمأسس البرجوازي المضاد للثورة" (تقصد الزواج): "هي فعلاً متزوجة؟" لم يجب نايف على الفور، وحين ركزتُ في وجه رحلة وجدتُه يقطر شهوة. لم تكن شهوة صريحة أو صافية، لكنها كانت هناك. وسأفسّر ما فعله نايف جزئياً، في الأيام التالية، بوجود مثل هذه الشهوة على وجه شابة شقراء جذابة بين رجليه.

259. كنت أرى جيداً من حيث أرقد وفي يدي بقايا سيجارة حشيش

مخلوط بالأفيون، ربما ما كان يجب أن أدع نايف يدخنها معي بعد كل الويسكي الذي شربه: وجه رحلة مائل إلى أعلى باتجاه عينيه وجيبتها منحسرة عن نصف فخذ كأنه مانجو قُشّر قبل أن "يستوي"؛ تعلم أن طعمه حامض لكنك لا تستطيع أن تقاوم. لم يدرك أحد ما يحدث للوهلة الأولى حين نهض نايف وبدا أنه يعدّل هندامه فإذا بعضوه منتصب أمام شفتيها بالضبط؛ بنطلونه على كاحليه وهو يجعر بنبرة أربكني اتزانها: "مصي، مصي يا بنت القحبة!"

260. ليلتها أفقد نايف رحلة بكارتها. لم ينم معها على الفور بطبيعة الحال؛ ما كادت تشيح بوجهها عن عضوه حتى شد بنطلونه إلى أعلى وارتد جالساً باحترامه وفي سمته ما يشبه الاعتذار.

261. لا أعرف... كنت أحادث أستاذة الآثار الإيطالية ونحن "نخمّس" في كأس ويسكي واحد وقد غادر باولو ضاحكاً بعدما هدّد نايف بطرده لو لم يكفّ عن الاستفزاز، أقترب من أذنها لأشتَم "البارفام" ذاته الذي كانت صبا تتعطر به – "شاليمار جاك جرلين"

فتأتيني رائحة حبيبتي السابقة من مكان غير مألوف مختلطة بالويسكي وعرق بدا لي أوروبياً لا أعرف كيف. وكان نايف جالساً على طرف الكنبة يدندن ورحلة مستلقية برأسها على فخذيه، إبهامه في فمها.[1]

262. لا أعرف متى حدث كل شيء. أذكر حريقاً صغيراً اشتعل في المطبخ إثر محاولة لم تكتمل لصنع الشاي، أطفأته أستاذة الآثار ثم اختفت؛ لعلها صعدت إلى شقتها بعدما ودّعتني. لا أذكر سوى

1 Shalimar, Jacques Guerlain ؛Parfum.

نظرتها الخجلى وهي توشوش، بإنجليزية مكسّرة: "للأسف أنا سكرت، لكن ربما ذات ليلة يا صديق جاري!" أذكر أن نايف ظل يطفئ نوراً بعد نور حتى لم يعد في الصالة سوى بقايا أضواء الشارع الآتية عبر الشباك مرتعشة وهينة. أذكر صوت شعبان عبد الرحيم يأتينا مكتوماً من غرفة النوم ثم أذكر رحلة تغني. بصوت مثل شريط ماء سميك يدفق صافياً وقوياً إلى أبعد مسافة ممكنة – على نقيض فقاقيع شعبان العكرة تتساقط كيفما اتفق بين قدميه – كانت تقول "لما إنت ناوي تغيب على طول، مش كنت آخر مرة تقول... لما إنت نااوي"، ونايف مغمض. أذكرهما عاريين تماماً. وحين أجلسها فوقه ورجليها على جانبيه، حين أعطاها يداً تعضها لتغالب الألم بينما الأخرى تثبتها في مكانها من كتفها وهو يرهز جاساً إلى أعلى، بدا أن صراخها أيضاً مصنوع من ذلك الماء.

263. أين كنت؟ وهل لم ينتبه أيهما إلي؟ هل قبّلها نايف بين فخذيها قبل أن يُجلسها فوقه؟ هل رأيتُ دمها على ركبته فعلاً؟ وهل كان يعلم أنها عذراء؟ لوهلة، وأنا أسحب نفساً عميقاً جداً من سيجارة حشيش جديدة مستلقياً على الأرض في الطريق إلى الحمام، رأيته يربّت على رأسها ويقبلها في وجهها بحنان بدا لي أمومياً. لم يقل شيئاً وهو يعبر من فوق جسدي في الظلام، لكنني سمعته ينهنه. كانت رحلة قد بدأت تغني من جديد وهي ترتدي ملابسها ثم كانت نائمة في غرفة نومه. ومن بعد، كان نايف بكامل هندامه يشدني من ذراعي لأذهب معه في نزهة على النيل قبيل شروق الشمس. أتذكر صوته يتهدج وهو يقول "أنا أساساً تائه يا فتيس، أنت لا تعرف شيئاً،" ثم

أتذكره، والشمس برتقالة حمراء فوق رأسه تماماً، ينهار. كانت المرة الأولى التي أرى فيها نايف يفقد السيطرة على نفسه منذ ليلة عرفتُ أنه فقد أسرته لحادث سيارة، وهو ينفطر بالبكاء ويكرر: "أنت لا تعرف شيئاً."

264. هكذا انهار نايف بعدما أفقد رحلة بكارتها. وحين انهار أخبرني بأمر الأسد.

265. في الأسبوع الثاني من شهر 1/2001 – هذا ما سيقوله لي نايف في الأيام التالية، على انفراد، راوياً تفاصيل الحكاية عبر عدة جلسات في الصالة نفسها، مرصعاً حديثه بالشكوى من غياب مون وخفة عقلها – بينما لا يزال يعافر مع قصيدة جينزبرج، بدأ أسد كامل النمو يزوره في الشقة التي استقر فيها قبل شهرين، لا أحد يعلم من أين. في البداية ظن نايف أنها هلوسات من كثرة التفكير في القصيدة والإفراط المتواصل في الكيوف. لكن الأسد ظل يتراءى صامتاً في بقاع البيت، كل أسبوع مرة أو مرتين، بجسده المتناغم وأذنيه الناتئتين كأن كلاً منهما طرطور أو طاقية صوف.

266. كان الأسد يمكث نصف ساعة على الأكثر يمضيها نائماً أو شاخصاً بعينين حزينتين، فيما يبقى نايف مجمّداً أمامه حتى يتبخر كما تكثّف هكذا من لا شيء. في المرات الأولى شك نايف في الوجود المادي لذلك المخلوق المرعب الذي يستهويه خطمه كما يستهويه طفل أو حيوان أليف: الخطم كأنه لدبدوب قماشي يعلو ذقناً ناعمة وبيضاء كالحليب. كان يُطمئن نفسه بأن الأسد مجرد صورة مجسّمة لأسد، وخاصة أنه لم يسمع له صوتاً أو يشم رائحته ولا أدرك لوجوده

أي أثر حيث رآه يمر على أرضية الشقة ويحتك بالأثاث والجدران.

267. لكن نايف يوم استجمع الشجاعة الكافية ليمد يده إلى العُرف الأشقر، أحس بملمس الفرو ثقيلاً وعميقاً بين أصابعه وسمع قرقرة مغناج ذكّرته بالقط الذي ربّاه في صغره في المريوطية عندما كان يستقر على حجره مطالباً بالتدليل. قبل أن ينتبه إلى اهتزاز الذيل الذي يشبه ثعباناً برأس من وبر أعمى، كان الأسد قد رفع رأسه العظيم إلى أعلى وأخذ لونه يشحب ومعالم شكله تتداخل حتى اختفى. ظن نايف أنه يسمع صدى زئير مكتوم والأسد يفرّج ما بين فكيه فتظهر الأنياب الأربعة كأنها أصابع عاج اصفرّت من أثر الدخان، لكن الصوت كان خافتاً جداً ولا يمكن أن ينتبه إليه أحد.

268. ومنذ ذلك اليوم عرف نايف أن شيئاً في حياته يتغير، هذا ما أتذكر صوته يتهدج وهو يقوله لي: إنه يقترب من ذروة ما، بداية أو نهاية؛ يتمايل على حافة خبل نهائي ليس كأي شيء. على مدى شهر تواصلت زيارات الأسد ونايف مختار يفكر في الانقطاع عن الكيوف ويمنّي النفس باختفاء لا يتبعه ظهور. كان الشاعر مثقلاً بهلع سنواته الخمس والعشرين؛ كأنّه بالنجاح في عمل مكّنه من السكن في الزمالك وقيادة سيارة خاصة، بتأسيس جماعة أدبية والعزم على ترجمة قصيدة، لم يحقّق سوى انعدام تام للتوازن. انعدام يُشعره أنه محوّط بالفضاء ولا مركبة فضائية.

269. طوال عام ونصف قبل ظهور الأسد، كان نايف يهنئ ذاته على تحققها المبكّر بالرغم من كل عوائق الحياة في القاهرة. وبفرح وهو يضبط إيقاع وعيه عن طريق اللعب في كيمياء المخ، ظن أنه بلغ المكان

الذي يجمع بعبقرية بين ما كان يحلم به لنفسه وما حلم له به أهله قبل أن يموتوا، وأنها النتيجة المنطقية لاجتياز تلك السنوات بنجاح. الآن أصبح يحس أنه بهذا التحقق إنما بلغ لحظة غاصت فيها يده في فرو حيوان لا يُعقل أن يكون موجوداً.

270. قبل أيام من شجارنا، في حديث عابر مع صديق لأشرف – لا أذكر مَن – كنتُ قد عرفتُ أن نرجس انتقلت إلى فيلادلفيا إثر قبول زوجها لعرض مفاجئ بقيادة فريق بحث في جامعة بينسيلفانيا: شيء له علاقة بمقاومة الهزات الأرضية وخزانات المياه. (سنعرف في ما بعد أنها أنجبت بنتاً خلال شهر من وصولها – الأمر الذي يعني أنها حملت من أشرف أواخر سنة 2000 – وأنها، مع ذلك، تعيش بمفردها في سان فرانسيسكو، على الطرف المقابل من القارة الجديدة). الذي أخبرني لم يقل سوى إنها ذهبت وقد لا تعود. "هاجرت يعني؟" ربما، قال. وبعدما تأكدتُ بطريق غير مباشر من باولو الذي ظل يتابع أخبارها رغم إنكاره لذلك – "طارت على أمريكا، بنت المجنونة!" – كنت لوحدي مع نايف على رصيف مقهى العروبة في شارع 26 يوليو وهو، للمرة المئة أو الألف، يشتكي من مون.

271. هناك مجال يتسع أو يضيق لتفصيل مشاكل نايف مع مون؛ المهم أنني، في ذلك المساء من صيف 2001 على رصيف مقهى العروبة، أردتُ أن أغيّر موضوع الحديث فخطر لي أن أخبره بما كنت قد سمعته عن نرجس على سبيل النميمة، ونسيتُ أن باولو منذ ظهور مون في حياتنا يفعل الشيء ذاته ولكن بهدف الانتقام. كان يستمع إلى شكاوى نايف فيتعمد مقارنة مون بنرجس، وكان يفعل

بسخرية جافة ليوجعه قدر استطاعته (لم تكن ضحكات باولو أزيزاً بالضبط لكن كلاً منها كأنها لدغة لنايف): "الشاب الجامد المتحكم في مشاعره، الشاب الذي كشف نرجس من أول لحظة وهي معي... كيف لم يكشف النسخة الأوسخ من نرجس لحد الآن؟ هل يا ترى لأنه مع مون لا يكون الشاب الجامد؟" لذلك بدا أن مون هي موضوع حديثي بينما أنا أحاول أن أغير الموضوع، لأن الشخصيتين متشابهتان بدرجة مخيفة ونايف لا يريد أن يواجه ذلك.

272. هكذا ما إن ذكرتُ نرجس حتى صاح: "ارحموني!" قلت له: "مالك يا نايف؟" فأدار وجهه بعصبية نادرة.

273. "مالك يا نااايف،" همس كأنه لا يصدق، ثم بصق في الأرض قبل أن ينظر في عيني: "أنتم أولاد قحبة أساساً،" زفر؛ أذكر قطرات العرق تتقافز إلى أعلى عن وجنتيه. "مون من ساعة ما بدأتْ تشتغل في الساحل الشمالي وأنتم تتغامزون: نرجس فعلت، نرجس قالت؛ انظر، مون طبق الأصل من نرجس. وكل الحكاية واحد عنده عقدة من المرأة المتحررة وواحد ابن قحبة بلاص.

274. كنت في صدمتي أتساءل لماذا لا تسقط قطرات العرق على الأرض، لماذا تبدو مثل نافورة صغيرة أو رشّاش، تنطلق إلى أعلى بكثافة مطردة بينما صوته يعلو. "أنا بلاص يا نايف؟" سألت، فصرخ: "أنت قلّة أساساً. كل الناس فعلت في صبا وهي تضحك وأنت ما إن نظرت إليك حتى بدأت تخرّ والماء ينشع من رأسك. قلة أم أي شيء؟ باولو معقّد لكنه على الأقل يعيش حياته ويعرف كيف يتصرف. أما أنت فمثل فتيس السيارة أساساً، لا تنقل بلا توجيهات

من بنت القحبة التي معك لتعرف على أي سرعة ستتحرك. أنا بلاااااص يا نايف؟"

275. كانت الصدمة قد انقلبت غضباً شديداً فنهضت أستعد للكمه لكن شيئاً منعني؛ ليس التعاطف معه، لا ربما حدست بما سيجري له فلم أرد أن أكون سبب أذى جسدي، لكن هذا لم يكن ليمنعني عن لكمه في حد ذاته. شيء كالتشفي هو الذي منعني. كنت أستشرف وحدته القاتلة من بعدي وأتشفى فيه. أعرف أنني لن أصاحبه بعد الآن مهما اعتذر عن كلامه وأعرف أنه يفتقد باولو كذلك، فيبدو وحيداً ومسحوقاً في وحدته. كان هذا شفاءً كافياً لغليلي فلم ألكمه.

276. "يلعن دين أبوك" – هكذا قاطعته وهو يردد "أنتم خائبون أساساً، مشكلتكم أنكم أولاد قحبة خائبون،" وغادرت – "يلعن دين أبوك يا نايف.

277. ليلتها فكرتُ طويلاً في أمر عمل مون في الساحل الشمالي. في الأسابيع السابقة حين تمكن الغرام من نايف وبدأ يلهيه عن الأسد، لم يكن قد فاتحها في فكرة أن يستقرا معاً؛ لكنه بدأ يشك في أن شيئاً جنسياً يحدث بينها وبين أحد المقاولين العاملين معها، بالذات حين قصّت شعرها وصبغته بلون بني غير مألوف في الشعر، فبدت أمامه كصبي مخنث وهي واقفة في برواز الباب تهمس: "ما رأيك في الشيكولاتة على الرأس؟" كانت قد التحقت – هكذا شرحت له – بإحدى شركات المقاولات المسؤولة عن إنشاء قرى سياحية بين الإسكندرية ومطروح؛ وكانت تبيت في شاليه مؤقت تنقلها إليه سيارة الشركة وتعيدها. الأسد لم يكف عن الظهور، لكن لا مبالاة نايف به

وسط لهفته على مون بلغت حد أن يتركه في البيت ويخرج ليعود فيجده قد اختفى. ومون لم تتورع يوماً عن نقل أو اختلاق تفاصيل إقامتها في الشاليه حيث كان يبيت معها المقاول المعني. عندما تظهر الغيرة في صوت نايف كانت تذكره أنها متزوجة – أحياناً بلكمة في وجهه أو ركلة في بطنه، تذكره – وكانت تستمتع حين يعبّر عن غضبه في نوع أو حدة العذاب الذي يمارسه على جسدها...

278. ليلتها فكرتُ في أمر عمل مون الجديد وحدستُ – للمرة الأولى – أنها فعلاً لا تريد لنايف الخير. كانت تتعامل كما لو أن أمر المقاول لا يعنيه – بما أنها متزوجة – فيما هي تعلم أن غرامها أنساه كل شيء، حتى الأسد. حدست أنها تسعى لمحوه هو شخصياً فضلاً عن اهتماماته وأزمته، لكي تتأكد من أنه يحبها كما يجب أن تُحب. وحدست أنه يمكن أن يقتلها ذات ليلة، وأن ذلك قد لا يضيرها حتى اللحظة الأخيرة. دائماً هناك زميل في العمل ودائماً حجة الزواج. هل كانت حقاً متزوجة؟ كانت مون تتباله، باختصار. حتى لو كانت بلهاء بالفعل، كانت تستفيد معنوياً من بلاهتها. كانت مون تتباله وكان نايف يقنع نفسه بأنها تستفيد بالصدفة. لم يكن عندها أي نية لإرضائه أو الاستقرار معه. وكان هذا كفيلاً بسحقه، بعدما ظن أن في علاقته بها مخرجاً من الفضاء الخارجي الذي يحوطّه منذ ظهر الأسد.

279. نايف الذي تمكن من شراء سيارة مازدا حمراء مبكراً ثم تأجير بيت أهله مفروشاً، وبعد الحصول على ميراثه كاملاً (كان يضحك بأسى حين يتذكر أن المبلغ الذي حوّله عمه إلى حسابه بعدما قال

له "لا أنت ابن أخي ولا أعرفك" لم يتعد العشرين ألف جنيه ثمن السيارة ورُشى ترخيصها) ظل يتنقل من شقة إلى أخرى "أشيك" منها بعد أن تَخَرّج في موعده من كلية الهندسة قسم الإلكترونيات والاتصالات الكهربية سنة 1998، على عكس باولو الذي كان قد تأخر سنتين في كلية التربية جامعة الأزهر قبل أن يتخرج في العام نفسه... و لم يستقر في الزمالك حتى 12/2000.

280. كانت 2001 سنة سفر نرجس وسنة ظهور مون، قبل انتهاء نايف من ترجمة قصيدته المفضلة ببضعة أسابيع في الربيع. وهنا الجملة الأولى في التأريخ لمصير نايف العضو المؤسس لجماعة التماسيح. مون لم تكن عمرها من التماسيح لكنها ادعت التعاطف مع أفكار الجماعة. في صيف 2001 كان عمرها سبعة وعشرين بينما نايف في الخامسة والعشرين من عمره؛ وكان لقاؤهما الأول – حين رآها محجبة ليفاجأ بها بشعر فحمي – من تحت رأس الأسد.

281. لأنه يبيت عند نايف كثيراً، كان شايلوك – صديقنا الموسيقي الذي سيلتقي برحلة من خلالي ويقيم معها علاقة تمأسس مضاد للثورة سنة 2003 – هو الوحيد الثاني الذي رأى المخلوق. شايلوك سينكر ذلك حين يُسأل في ما بعد، مساهمةً منه في إثبات نظرية أن نايف كان مصاباً بالفصام، لكن علاقته بنايف في تلك الأيام لا تزال ممتازة وهو يبيت عنده كثيراً. ذات مرة ظهر الأسد وهما معاً في البيت. وعندما اشتد هلعهما قال شايلوك إنه يعرف شيخاً واصلاً يحمل دكتوراة في الفيزياء النووية من "إم–آي–تي" وأخرى في

السيميولوجيا من السوربون، إضافة إلى أعلى المؤهلات الدولية في الماورائيات أو الظواهر الخارقة.[1]

282. "ولا يهمك،" هكذا أتخيل شايلوك يصيح بنبرة ابن البلد الشوارعي التي يبالغ في أدائها، مؤكداً لنايف أن الشيخ يفهم في الأرواح الخبيثة وفي علم الحيوان بالقدر نفسه: "اطمئن على الآخر يا أبا النوف، يومان وأدبّر لك موعداً مع 'الغرنوق'." – "الغر... إيه؟" – "نووق. نقول له الشيخ غرنوق. لا أحد يعرف له اسماً واقعياً ولا محل إقامة ثابت" – وبدأ شايلوك يوشوش قبل أن يغمز لنايف وهو يواصل بالنبرة نفسها – "لأن مثل هذا الشخص، كما تعلم، لا بد أن يكون مراقَباً."

283. "**حائراً ومصاباً بالدوار**" – هكذا سيواصل نايف ترجمة القصيدة، ولا يعود ينتبه إلى الطريقة التي يترجم بها رغم تعدد وتداعي الصياغات – "**مرتفعاً فوق كل شيء، تذكرت أن هناك أسداً حقيقياً يموت جوعاً وسط روائحه العفنة في هارلم. وما إن فتحت الباب حتى انطلقت متفجرة غضبه في وجهي. كان يزأر جائعاً وهو ينظر إلى طلاء الحائط، لكن أحداً عبر الشباك لم يكن يسمعه. ولمحتْ عيني طرف بناية الشقق المجاورة أحمر وصلباً، واقفاً في صمت من شأنه أن يجلب الصمم. نظرنا بعضنا إلى بعض طويلاً. كانت عينه الصفراء المصممة تحوطها هالة من الفرو الأحمر. وحدي أطلقتُ أنين شخص أصابه الروماتيزم، لكنه كف عن زئيره وأظهر لي ناباً على سبيل التحية. وانصرفت أنا إلى طبيخ البروكالي للعشاء على موقد غاز**

1 MIT: Massachuetts Institute of Technology جامعة شهيرة في ولاية ماساتشوسيتس في الولايات المتحدة. والـ Sorbonne معروفة.

مصنوع من حديد. غليتُ الماء لأتحمم بماء ساخن في الطست الموضوع تحت سطح الحوض. لم يفترسني، وكان يؤلمني احتضاره جوعاً في وجودي. خلال أسبوع كان الوهن قد جعل منه سجادة مريضة مملوءة عظماً. يتساقط شعره كالقمح. والغيظ يصيب عينه بالاحمرار وهو راقد يتوجع، رأسه الهائش في كفيه. وأمام مكتبة مرتجلة من علبة لحفظ البيض. مرصوصة فيها كتب رفيعة الجذوع لأفلاطون وبوذا. سهرت إلى جانبه كل ليلة أتحاشى النظر إلى جوع وجهه الذي تمكنت منه العثة. وانقطعت عن الطعام. كان يهزل ويزأر ليلاً فتطاردني الكوابيس...“1

284. الآن، بينما كلمات جينزبرج ترن في أذني بلغتها الأصلية وبصوت الشاعر نفسه في تسجيل تصاحبه دقة جاز، أجتهد لأتذكر كيف تعارفنا أنا وباولو ونايف. لم نكن قد واظبنا على لقاء أسبوعي ثابت وإن كنا نذهب، على اختلاف المشهدين، إلى شقة عفت يس في الهرم وشقة السطوح التي يشغلها مصمم الجرافيك يس مهدي في بولاق أبو العلا، يجالسه فيها إبراهيم داوود وطه فريد أبو شامة بشكل دائم ويسمّونها القلّاية، وكثيراً ما ينضم إليهم الروائي ممدوح الجنايني وشهدي سرور ابن نجيب سرور ذو الملامح الروسية والعقلية المتمردة على طريقة فلاور باور الستينيات. كنا نعرف بهاء زايد وليث الحيوان أيضاً بطبيعة الحال، لكننا عرفنا الحيوان الذي سيموت بالفشل الكلوي سنة 2007 أكثر. عرفناه أكثر لأنه، فيما بقي بهاء في الإسكندرية، انتقل إلى فيصل بالتزامن مع زواج مجاب ورضوى تقريباً. واستقر هناك.

---

1 Harlem أحد أحياء السود في وسط نيويورك.

285. لم أعد متأكداً من توقيت لقائنا بكل من هؤلاء. لا بد أن لكل ذكرى مكاناً من التسلسل الزمني الذي في رأسي، لكنني لم أعد متأكداً لا من ذلك المكان ولا من التسلسل نفسه. حين أتذكر شيئاً، أجتهد لأعرف هل حدث قبل أم بعد إعلان التماسيح. لكن الجواب على الأرجح لا يهم. الأهم أن الشيء حدث وأنه تدخل بشكل أو آخر في إدراكي لبقية الأشياء: العشاءات الباذخة التي كان يقيمُها موسى المغربي على شرف ابنته هنا أصغر شاعرات التسعينيات سناً على الإطلاق (وكان يسكن هو الآخر في الهرم)؛ أو أننا رافقنا ليث وأدهم اليمني مرة وقد التقينا بهما في فيصل إما إلى بيت عفت يس أو إلى هناك – أكاد أرى منظرهما على الناصية مثل لوريل وهاردي: الحيوان بنظرته المستريبة قصير ومكتنز وأسمر بينما اليمني ببشرته الأفتح طويل وعريض ولكنْ نحيل جداً وفي حركته مرونة مطرب شعبي على خشبة مسرح صغير، لا ينهي جملة يقولها إلا وقد أضاف بصوته الغنائي: "يا صاحبي" – وحين دخلنا معهما البيت الذي ذهبنا إليه، لم ينتبه إلينا أحد.

286. الذي يدهشني بعد كل هذا الوقت أن البيوت كانت مفتوحة بلا ترحاب، ويخيّل إلي أن ذلك التناقض بين وجود أناس في بيتك وعدم رغبتك في رؤيتهم هو مفتاح المرحلة كلها. عدا حالات معدودة كان الناس بُخَلاء بسجائرهم وخمرتهم وكيوفهم والنساء منهم بأجسادهن – النساء في الدائرة شيء نادر كما هي حال الحياة العامة في القاهرة عموماً – ومع أن هناك إحساساً ملموساً بأن لا شيء يحدث ولا أحد يحقّق شيئاً وسط الأوضاع المطروحة، كنا مشحونين بالطاقة.

287. لماذا إذن ظللنا نلعب دور المشاهد أو المراقب أكثر من أي دور؟ في الحفلات التي يحضرها أجنبيات من متعلمي اللغة العربية أو الفنانات والمغامرات الأكبر سناً أو ذوات الأصول العربية الباحثات عن جذورهن، كنا نرقص أكثر بكثير مما نتكلم. وعندما يُقرأ الشعر أو ما يسميه كاتبوه شعراً كنا نُخفي وجوهنا في دخان البانجو ونرسم عليها تعبيرات جامدة تداني السخرية ولا تصرّح بها؛ ليس لأن ما قُرِئ لم يعجبنا بالضرورة – أشك في أننا كنا ننصت إلى شيء مما يُقرَأ – ولكن لأن ذلك القناع يوفر علينا أي تفاعل مع المحيطين ويبدينا أمامهم في صورة صلدة.

288. كان تمايزنا الطبقي – وهو نسبي على كل حال – آخر شيء يمكننا أن نعترف به لبعض أو حتى أمام أنفسنا، لكنه في اعتقادي أدى الدور الأكبر في تكتلنا داخل الدائرة منذ البداية. حين تعارفنا كان نايف طالب هندسة مفلساً ويتيم الأبوين يسكن بمفرده في بيت شاسع ومتهاو لا ينظّفه أحد أبداً وباولو أزهرياً مغترباً بلا عمل أو سكن ثابت من إحدى قرى محافظة المنوفية؛ أما أنا فكنت أدرس الفلسفة في كلية آداب جامعة القاهرة وأبي الطبيب الفقير غاضب علي. لكن كان لكل منا مسوغات انتماء إلى طبقة متعلمة مستريحة – حتى باولو، كان أهله من كبار ملاك الأراضي في مركز بركة السبع – وكنا نشعر في أعماقنا أننا أولاد ناس. لعل ذلك ما أعطانا حداً أدنى من الثقة بالنفس أتاح لنا أن نتبع خط أفكارنا عن الشعر إلى نهايته؛ لعله مكننا، كل بطريقته – أنا بتأملي البارد وباولو بتحفزه للإنجاز والتحقق ونايف ببحثه السوداوي عن معنى الحياة – لعله مكّننا من

أن نقول آراء نصدقها فعلاً ولا نعجب بغير ما يعجبنا أو نرفض إلا ما ينفرنا في الحياة.

289. في منتصف التسعينيات كنا في العشرين من عمرنا لكنّ لنا أصدقاء أكبر. و لم يكن السن عاملاً في انتماءات وتداخلات سيكون عندي سبعة عشر عاماً لأستدعي تقلباتها وزيفها. هل كان لتمايزنا الطبقي دخل في فلسفة التماسيح؟

290. سنة 1945 كتب الشاعر التركي أورهان ولي (والذي كنا نقرأه مترجماً هو وشاعر القصيدة المضادة التشيلي نيكانور بارا وآخرين ممن درج الجنتل وبشير السباعي على نقل أعمالهم عن الفرنسية والإسبانية) إن ما يميز الشعر هو غرابته أو اختلافه عن سواه من كلام، وإن الغرابة هي التي تمنحه جمالاً يجعلنا نقول إنه شعر كانت غرابة الشعر – هكذا كتب أورهان ولي – في قواعد الوزن والقافية التي بدأت كأداة لتسهيل الحفظ ثم ثبت أن فيها جمالاً، إلى أن تأسس تقليد الوزن والقافية بدرجة أزالت غرابتهما وأصبح من الممكن أن يكون هناك وزن وقافية بلا غرابة وإن ظلت بقايا جمال... ماذا إذن يمكن أن يعيد إلى الشعر غرابته الآن؟[1]

291. سنة 1994، مع صدور مجلة "الجنادب" التي حرّرها السبعيني المرتد عفت يس بمساعدة الشاعر الشاب صائب منذر وهاجم فيها القومية والماركسية والعروض إلى أن توقفت بعد ثلاثة أعداد آخرها من تحرير صائب منذر وحده لأن عفت يس سافر إلى أمريكا، لا بد أن كلاً منا كان قد بدأ يتساءل عما يمكن أن يصدّق أنه شعر. بين 1995

1 Nicanor Parra ؛Orhan Veli.

و1996، وقد توطدت صداقتنا، بدأنا نناقش هذا الأمر بجدية. ماذا يمكن أن نصدق أنه شعر بغض النظر عن كل ما يُكتب حولنا وبلا استفادة مباشرة من كل ما كُتب من قبل؟ وكان أول ما اتفقنا عليه أن الشعر يوجد في مكان منفصل وبعيد ليس فقط عن النضال والثقافة والكتابة التي تحاربها جماعات التسعينيات وإنما أيضاً عن طموحات التواصل والتحقق أياً كان نطاقها وما تعد به من نجاح؛ كان "تحت جلدة الرأس" أوّل شعاراتنا.

292. الشعر (من نصوص نايف المكتوبة أثناء علاقته بمون): **ذات يوم نطق أحدهم بتوصيف دقيق/ لذلك الذي نعرفه ما إن نره/ وفيما تشخلل كلماتنا المعقودة كالخرز/ في سلاسل ضيقة حول أعناقنا/ ونحن نرود الحظائر نفسها/ لم ننتبه إلى ما قاله/ كان كلب سعران ينبح تحت الكوبري/ و"الونش يفترس السيارات/ وقبل أن يخطر لنا أن نستزيده/ سقط الناطق بالتوصيف فجأة/ من شباك المؤسسة/ فتاة أخرى أو امرأة بدأت تهذي/ وهي تخترع العجلة على رصيف "قهوة"/ يرن على طاولات زهرها "قشاط" الرجال.**[1]

293. عندما ذهب نايف إلى الشقة التي أعطاه شايلوك عنوانها في الموعد المقرر، غير بعيد من قصر عابدين في شارع الجمهورية، في عمارة بدا له أن أكثر شققها بيوت دعارة أو مقرات تجارة مجرّمة – هذا ما كنت أحكيه قبل أن يخطر لي سؤال تعارفنا – فتحتْ له الباب فتاة سمراء محجبة قابلته بترحاب رسمي. وبعدما أجلسته في الصالة الجرداء، تطوعت بقول إنها سكرتيرة الشيخ، وإن الشيخ لم يحضر

1 القشاط هو القطعة الدائرية المستخدمة في لعبة الطاولة، وكثيراً ما يخبطها اللاعبون بصخب في المقاهي.

بعد ولكن يمكنه انتظاره. ثم غابت قليلاً في غرفة وراء ترقة.

294. سيكون من قبيل الكليشيه القول إنها لم تكن جميلة بالمقاييس المتعارف عليها أو إنها، مع ذلك، شدت نايف على الفور؛ رغم أن خاطراً لم يخطر له بالاقتراب منها ليس فقط لأنها محجبة وتعبيرها الملازم "جعله الله في ميزان حسناته" (والذي سيتحول خلال أسبوع واحد إلى "ابن دين كلب"، بالبساطة ذاتها التي سيظهر بها شعر كثيف ناعم وشديد السواد حيث الخمار الأبيض الآن كأنه ختم النقاء الإلهي) ولكن أيضاً لأن ابتسامتها الصافية البريئة كانت، إذا ما دقق فيها، تكتسب صفرة تعيد إليه ذعره من الأسد. كان وجودها في هذا المكان يبعث في قلبه خوفاً من أن يكون ضحية مؤامرة، مؤامرة تتضمن – إضافةً إليها – شايلوك والأسد وذلك الشيخ الخرافي الذي لم يعثر له حتى الآن على أثر. كان يتوق للقهوة لكنها لم تعرض عليه أن يشرب شيئاً؛ فقط جلست جواره تقلّب في مفكرة مواعيد وفي عينيها لمعة ذكرته بعيني الأسد. ومثل الأسد، فضلاً عن رغبة عميقة لا يدرك هدفها، كانت تحرك شيئاً قريباً من هلع الموت أو هلع انتهاء العالم.

295. سيكون من قبيل الكليشيه القول إنك حين تموت ينتهي العالم بالنسبة إليك...

296. عندما ذهب نايف إلى شقة الشيخ غرنوق وتحدث إليه بضع دقائق في النهاية الشيخ كهل مهندم استدعى شكله وصوته الرفيع جداً في ذهن نايف مشهد الداعية التلفزيوني عمرو خالد، ولم يبد عليه رغم الثقة التي استمع بها إلى حكاية الأسد، مهمهماً

بكلمتين أو ثلاثاً قبل أن يعود يغادر فجأة، أنه فهم شيئاً أو يعرف أي شيء؛ كان الفرق الأساسي بينه وبين عمرو خالد، فضلاً عن أنه أكبر سناً، هو القلق الدائم البادي في وجهه وزوغان عينيه، الأمر الذي لم يفاقم فزع المؤامرة في رأس نايف بقدر ما أقنعه أن الشيخ لن يفيده – أوقفته السكرتيرة السمراء المحجّبة في خروجه وقالت: "إنشاء الله تكون استفدت من الشيخ، جعل الله فائدتك في ميزان حسناته." ثم تنهدت: "أحس أني رأيتك قبل اليوم... وحين دعته إلى الشاي أخيراً في الغرفة التي اختفت وراء بابها عند وصوله، جلس إلى مكتبها مفزوعاً يتأمل لمعة عينيها حتى ذكر لها اسمه فشهقت: "طبعاً، جماعة التماسيح... تناسبني أعمالكم على فكرة. أكيد وقعت في يدك قصيدة 'دماء'، لا؟ أنا التي كتبتها...

297. سيكون من قبيل الكليشيه القول إن نايف تردد في الاتصال بها لاقتراح أن يلتقيا خلال يومين من ذهابه إلى الغرنوق لم يظهر خلالهما لا شايلوك ولا الأسد، وإنه تردد أكثر في اقتراح أن يلتقيا في بار إستوريل في وسط البلد واستغرب حين وجدها متحمسة لذلك... إلى أن فوجئ بالشَعر.

298. من مكاني الافتراضي – وأخبار الأحداث تصلني محبطة وموجعة إلى حد لا أستطيع معه أن أتعاطف حتى مع احتمال ثورة – أتخيل ما دار بينهما في إستوريل وهما يسكران فيدغدغني حنين غير ملائم: نايف يعبر عن امتعاضه من الشيخ غرنوق وهي تدافع عن الشيخ لتعود تقول إنها تفكر في ترك العمل معه؛ نايف يحكي لها عن التماسيح وهي تؤكد إنها الجماعة الوحيدة التي تنتج أدباً

أصيلاً، حيث الجميع يسرق من الشعر المترجم أو يقلد الأصوات القليلة الموهوبة... ذكرتْ عدة شاعرات نساء مضيفة "بنت دين الكلب" قبل كل اسم، في إشارة ملفتة إلى أنهن نسخن أعمالاً لها. قالت "جعله الله في ميزان حسناتي" وقهقهت؛ و لم يعرف نايف إن كانت قهقهتها سخرية من العبارة. لم يأت ذكر الدين، لكنها أوحت بأنها تتحجب من أجل وظيفتها لتعود توحي بأنها مؤمنة. وحين مالت على نايف لتهمس في أذنه "يناسبني الشرب مع ابن دين كلب وسيم مثلك،" وقد خطر الريحان الأخضر على أنفه من بعيد، لاحظ أن تعبيراً مبتذلاً عن الإعجاب خرج من فمها بانسيابية جعلت له مصداقية نادرة.

299. هكذا اصطحبت نايف إلى المازدا الحمراء ولف بها، على صوت الشاب خالد، في أنحاء القاهرة ليكملا حديثهما؛ لم يقترح أن تأتي معه إلى البيت ولا هي ذكرت زوجها. لكنه تركها أمام مسكنها في المهندسين قبيل الفجر. وأخبرها خلال جولتهما هذه إنه يحب الوجع، إن الوجع هو الشيء الوحيد الذي يحركّه من الداخل – لم يكن يقصد الوجع الجسدي، لكن لعل هذا ما فهمته مون من كلامه – مؤكداً إنها أذهلته بقدرتها على التحول. كان يثني على ابتعادها عن دائرة المثقفين في القاهرة وكانت تشاركه النمائم. لم يستوقفها كلامه عن الوجع أو لم يبد أنه استوقفها، لكنها في خروجها من السيارة بعدما عانقته قالت، في اللحظة الأخيرة "يناسبني توجعني، شكل وجعك حلو،" ثم استدارت وهرولت إلى مدخل العمارة قبل أن يجيبها.

300. وسط أجواء التسعينيات التي بالغت الصحافة في تصوير انحلالها – هذا ما كنت أقوله – لا بد أننا تعارفنا بشكل تلقائي، أنا وباولو ونايف. كما يحدث في الدائرة على اختلاف مشاربها حيث لا يكون أحد قد قرأ لأحد بالضرورة ولكن يتعامل الجميع على أنه يعرف الجميع ما لم تكن هناك حجة سهلة للتهكم أو استياء من جانب شخص معروف تجاه شخص مجهول – استياء هو الآخر مجاني مثل الأكل عند موسى المغربي – افترضنا ولابد أننا أصدقاء. لكن مجالاً مغنطيسياً كان يحصرنا ثلاثتنا أو كنا نشكّله حولنا حصرياً بلا نية مسبقة؛ الأمر الذي جعل افتراض الصداقة مبرَّراً على مستوى أعمق وأقرب بشكل ما إلى حقيقتنا، مع أن هذه الحقيقة كانت لا تزال تتكوّن ولا شك أنها تغيرت. بلا كلام أو حتى تفكير فهمنا أن ما نصدّره إلى المحيطين قناع وأننا متميزون بالقدرة على ارتداء أقنعة من قبل أن نبلغ العشرين. وكان إنجازنا الحقيقي وإن لم ندركه وقتها أننا لم نخلط أبداً بين الأقنعة التي نرتديها ووجوهنا. هناك مسافة بيننا وبين الطموح الذي يحرّك أندادنا – الطموح إلى فكرة ما عن الحياة المثالية أو المُجدية إن لم يكن إلى الشهرة والثراء – وكنا نكتشف شيئاً فشيئاً أن طموحنا وإن كان حاضراً وقوياً لا علاقة له بما نراه، أننا على عكس أكثر الموجودين حولنا لسنا في هذا المكان من أجل أن نصبح شيئاً مثيراً يعجبهم أو يرعبهم ولا من أجل أن نصنع هذا الشيء.

301. لثلاثة أشهر بين 1993 و1934، كأنما بترتيب قدري، ظللتُ أقابل نايف أو باولو أو كليهما صدفة؛ وكلما تقابلنا كان ينتهي بنا الأمر منعزلين نتبادل عبارات قليلة في ما بيننا ونتفرج. مع الوقت

بدأنا نتغامز على الآخرين فضلاً عن تبادل العبارات – كانت مرحلة التغامز عتبة مهمة في علاقتنا – إلى أن أصبح كل اثنين يسألان عن الثالث إذا غاب وأدركنا أن ارتياحنا لمحافل الأدب الطليعي متوقف على الألفة التي نحسها معاً.

302. **"ذات ليلة خرجنا من بيت إحدى المخبولات"**، كما يفتتح ماهر عبد العزيز ديوانه القصير المنشور سنة 2009. لا بد أن ذلك كان في بداية 1994. كنا مسطولين تماماً لكن نايف في مزاج مُعَفرَت وعنده طاقة زائدة؛ نايف هو الوحيد من كل من عرفتُهم الذي يجعله البانجو أكثر نشاطاً. وكان بصحبتنا بنت في التاسعة أو العاشرة لا بد أنها ابنة واحد ممن كانوا معنا في ذلك البيت.

303. لم يكن لأيّنا سيارة، فمشينا إلى الشارع العمومي ننتظر مواصلة: أنا في الأمام ومن خلفي البنت محاطة بنايف وباولو من جهة وصديقين آخرين من الجهة الأخرى في تشكيل خماسي مطبوع في رأسي إلى الآن: نايف بجسده الإغريقي وملامحه الجذابة مثل عمر الشريف في فيلم "صراع في الوادي" مائل على باولو الأقصر منه كأنه سيحتضنه لكي يمد يده إلى شعر البنت يشاكسها، وباولو الأشقر عريض الكتفين بحدبته الصغيرة وأنفه الضخم يتلفّت بينهما ويقهقه؛ ثم البنت وقد ربّعت يديها فوق صدرها تسبقهما بنصف خطوة، ظهرها مفرود وحركتها واثقة، بينما الصديقان الآخران بلا ملامح – يترنحان على الجانب الآخر منها إلى الأمام.

304. لا أذكر إن كانت البنت قد تُركت سهواً أو سُرّبت عن قصد ولا لماذا انتهى بها الأمر معنا أساساً؛ أظن أحدنا كان عليه أن يوصلها

إلى أختها الكبرى في مكان ما في الصباح التالي. وما إن توقفنا على الرصيف حتى كثّف نايف جهود المشاكسة. كانت ترتدي فستاناً صيفياً في الزمهرير ولا يبدو عليها البرد بينما نحن نرتجف؛ وكان شعرها في ضفيرة واحدة سميكة سيجعلها المطر أشبه بقضيب عجين أسود أو دودة عملاقة تبرق على كتفها.

305. عندما سألها نايف عن اسمها زفرت "مايا،" واتسعت عيناها في عينيه بثبات مذهل وهي تضيف: "أي خدمة ثانية؟" لم تكن طفلة جميلة، لكن عينيها كانتا كبيرتين بحيث لا ترى شيئاً آخر في وجهها: الأمر الذي جعل للنظر إليها تأثيراً كالتنويم المغنطيسي في الضوء الأصفر للعواميد. وعندما نزل المطر، رغم أنها لم تفقد تماسكها لحظة بينما نايف يتقافز حولها يدغدغها ويُخرج لها لسانه، ظهر في ملامح مايا شيء كالفزع أو الفجيعة: شيء حزين جداً لكنه في الوقت نفسه حاقد وبالغ القسوة.

306. نسيتُ الحي الذي كنا فيه واسم المخبولة التي خرجنا من بيتها وهوية الصديقين وحتى ملامح نايف، لكنني أتذكر وجه البنت في هذه اللحظة كأنني رأيته قبل ساعة واحدة. بعد قليل والمطر يشتد، بدأ نايف يعيّرها لاهثاً: "مايا أهملها أهلها، مايا أهملها أهلها!" و لم يتغير تعبير وجهها وهي تجيبه: "اسم الله عليك، وأين أهلك أنت؟" فضحكنا تلقائياً و لم ننتبه إلا لاحقاً إلى أن نايف انطلق يعدو على إثر ذلك بلا أي إشارة أو تحذير. عندما أفقنا من ضحكنا كان عبارة عن نقطة لا تكاد تُرى وهي تبتعد بامتداد الشارع الذي يلمع في المطر. وفي صباح هذه الليلة عرفتُ للمرة الأولى أنه كان قد فقد أبويه وأخته

الوحيدة التي في سن مايا تقريباً لحادث سيارة قبل بضعة أسابيع.
307. هذا الموقف – أو ربما وجه مايا – قرّبنا إلى بعضنا بدرجة غير مسبوقة. بعد يومين جلسنا أنا وباولو وحدنا نتباحث في أمر نايف، وأدركتُ من كلامنا أن استهانته بالحياة وتهكمه الدائم يداريان حزناً عميقاً وإحساساً بالضياع. من جانبه كان عند باولو تحفز أو رغبة في التجاوز لن أكتشف إلا لاحقاً أنها ريفية: لم يعترف أبداً بالهاجس الذي يحركه أكثر من سواه وهو على ذكائه، لكنه كان يريد أن يفتح المدينة، ينتصر عليها أو يغلبها بكل طريقة ممكنة؛ ولعل غضبه من نايف في ما بعد كان في كنهه غيرة من ند له بدا أنه تفوق عليه في ذلك. عن نفسي، كنتُ – في هذه المرحلة أكثر من سواها – أجنح إلى التفرج على الأشياء؛ كان هدفي أن أفهم وبدا لي أن الفهم يقتضي وضع مسافة بيني وبين الحياة، ولعله ما أتاح لي التماهي مع صبا بدرجة لم تتوفر لغيري. كان لا بد من استعدادي أنا للنظر من بعيد مع انتحارية نايف مع ذلك التحفز الذكي لباولو لكي نحصل على البيضة المكسورة التي سنصنع منها "أومليت" الشعر السري...
308. ذات يوم قبل إعلان الجماعة بشهر أو أقل، في صيف 1997، دخل علي نايف بكتاب إنجليزي مصور على غلافه تمساح نيلي فاغر الفاه وقال: "عارف أن التماسيح أقدم كائن باق على وجه الأرض؟ التماسيح أقدم أساساً من الديناصورات." بدت أسنان التمساح في الفم المخروطي مرعبة بينما نايف يشرح لي أنها لا تُستخدم في غير تقطيع الفريسة؛ لكي يهضم التمساح طعامه – قال – عليه أن يبتلع

1 Omlette.

الحصى والحجارة ثم يرقد ساكناً في الشمس. "عارف أن التماسيح عدها كل صفات الشاعر السري بما في ذلك أنها برمائية؟" وحين جاء باولو فتح نايف الكتاب ومضى يترجم لنا، مشدداً على ثلاث صفات هي ما جعلنا نوافقه في تسمية أنفسنا كشعراء سريين بجماعة التماسيح: "إن التماسيح تدمع بغزارة بينما تلتهم صيدها (وهو مصدر عبارة "دموع التماسيح")؛ وإن في جلد ظهرها شباك من العظم تجعله مضاداً حتى للرصاص؛ وإنها – عكس ملوك الغابة التقليديين – لا تعلن عن قوتها أو تختال بها."

309. في أشهَر إصداراته، يتصور صقر الجنايني جماعة أدبية تنكر النص الأدبي من أساسه. هذا الشيء المكتمل الذي له أول وآخر والذي يكتبه فرد واحد بغض النظر عن طوله، يتصور صقر الجنايني جماعة أدبية في التسعينيات تنكر أن ذلك الشيء ممكن أو مرغوب.

310. يتصورهم كتاّب قصة وقد أراح رأسه (هنا كما في الحياة) من سؤال الشعر وصعوبة تعريفه؛ لصقر نصوص كالشعر تماماً لكنه أرْوَق من أن يسميها قصائد. وفي أشهر إصداراته يتصور جماعة أدبية من شباب التسعينيات يلتقي أفرادها في مقهى غير مميز قريب من منازلهم حول شارع الهرم حيث يقرأون شذراتهم أو يرتجلونها متداخلةً مع كلام نظري عن دوافع إنتاجها وجدواها بعد أن أُنتجت، ويستلم بعضهم من بعض شرط أن لا يكتمل أي شيء.

311. يتصورهم صامتين إلى أن يبدأوا في القراءة والمناقشة فلا يكفوا عن الزعيق والاشتباك. وشأن "مَكلَمانات" التسعينيات إجمالاً، لا يوصّل زعيقهم إلى فكرة ولا حتى إحساس. لكن الشيء الذي يعبّر

عنه صقر من خلال الجماعة التي يتصورها، هو أن وحدة النص أو اكتماله هدف زائف لا يسعى إلى الحقيقة بقدر ما يبروز ذاتَ شخص كتب: يضع شخصاً أو كلامه أو طريقته في تعاطي الواقع في مكانٍ أسلم من الحياة أو فوقها. الشيء الذي يعبر عنه صقر، أقصد، هو أن الحقيقة مستحيلة.

312. عن دار ميريت صدر الكتاب المعني، مجموعة قصص **جماعة الكتابة المنقوصة**، سنة 2003: بعد قيام جماعتنا بست سنين كاملة. أنا وباولو قرأنا نسخة واحدة كان قد سرقها من مكتب ميريت تحت عيني محمود هشام كما اعتاد أن يفعل مع الإصدارات الجديدة. القصة الأولى هي التي أعطت الكتاب عنوانه. وإلى أن كففتُ عن لقائه تماماً في نهاية 2004، ظل الاعتقاد بأن هذه القصة تنويع على حكاية التماسيح هو الشيء الوحيد الذي لم أختلف عليه مع باولو.

313. "**إن الأعمال المكتملة مخدر**" – هكذا كتب صقر على لسان أفراد الجماعة – "**إذ أن ما يكتمل هو الجسم المادي للعمل، أما ذلك الشيء الذي نسج الجسم حوله فلا يكف عن الحركة والتبدل... إننا أصبحنا الآن بفضل من الله في عصر العلامات المجردة، كل علامة تحيل إلى علامة أخرى. فإذا عرفنا أن الأصل الحق الذي يُبتغى من وراء كل علامة قد اختفى، رأينا أن الإحالة هي مضاعفة للزيف. وبدا من الضلال ادعاء الأصالة... ودخول الناس على العلامات يتملكونها لينتفعوا بها هو افتراء، إذ أن في ذلك ادعاء لملكية ما لا يُملّك... نحن مع الهباء. لن يسمع عنا أحد ولا نريد أن نسمع شيئاً عن أحد، فنحن قد تركنا البقالة... عندكم القراءة هي التعرف على صكوك أفكار الكاتب وتثمينها، فإذا ثبتت أصالتها يستحوذ عليها القارئ، ثم يدخل**

بقالة المعاني فيشتري لنفسه معنى أو معنيين يزين بها بيت ذاته الأنيق. تلك الدنانير الذهبية، تلك المعاني المكتملة. أما نحن فدنانيرنا مزيفة، لا أصالة فيها. تماماً – وهذا المهم – **كبضاعة بقالتكم المزيفة.**

314. تذهب فلسفة التماسيح إلى أن الشعر، كونه في النهاية كلاماً، لا بد أن يشترك مع الكلام العادي في القسم الأكبر من طبيعته. لكنه لكي يكون شعراً لا بد أيضاً أن يختلف عن الكلام (ولهذا أطلق عليه أورهان ولي اسم "غريب"). لعلنا تأثرنا بموضوع تعريف الذات الإلهية في علم الكلام والخلاف بين المعتزلة والأشعرية حيال مسألة خلق القرآن (والتي كان باستطاعة باولو أن يلفت انتباهنا إليها ويشرحها لنا نتيجة تعليمه الأزهري): كنا من الشجاعة بحيث اعترفنا، ولو بنوع من السخرية، أن الشعراء يقدسون الشعر كما يقدس المسلمون القرآن (ولا أعرف من أين واتتنا البصيرة لرؤية أن الشعر لم يزل مقدساً بمثل هذا الوضوح الجذري، ولا الجرأة على النطق بذلك). كان السؤال ليس هل سنقدس الشعر أم لا – طالما قررنا أننا شعراء، فإننا نقدس الشعر – ولكن ما الطريقة التي سنتبّعها في تعريفه حتى نقدسه كما ينبغي أن يقدَّس؟

315. كنا من الشجاعة بحيث وضعنا الشعر فوق كل شيء، وهو ما يفعله الجميع مع فارق أنهم ينكرون فعله. وكما أن للخالق صفات ذات أزلية، سابقة على وجود الدنيا ومفارِقة لعدد أكبر بكثير من صفات الفعل التي تشاركه فيها المخلوقات – إلى ذلك خلصنا – كذلك يتميز الشعر عن الكلام العادي بعدد محدود جداً من الصفات التي تخصه وحده بينما يشترك معه في العدد الأكبر من الصفات

(ومن الصفات غير الجوهرية التي قد يشترك فيها الشعر مع الكلام العادي: الموسيقى بما فيها الوزن والقافية، تعدد طبقات المعنى، الاستعارة والمجاز).

316. تذهب فلسفة التماسيح إلى أن للشعر ثلاث صفات جوهرية فقط لا بد من الحفاظ عليها حتى يكون أو يبقى شعراً، حاول باولو لاحقاً أن يضيف إليها صفة رابعة هي المواءمة – والتي يمكن أن تبرر النشر التقليدي بكشف السر، وتساهم في الاعتراف التاريخي بقيمة الشاعر السري – وخلصنا إلى أنها تتعارض منطقياً مع كل من الثلاث الأولى: الاستغناء (أن لا يقدّم أبداً بوصفه شعراً أو يُنشر بهذه الصفة، فإن تعرّف عليه القارئ وسط خبر في جريدة يومية، في هامش كتاب قديم أو في مفكّرة إلكترونية مهملة – وتسريب الشعر إلى مثل هذه المساحات جائز وإن لم يكن ملزماً – فإن هذا هو التجلي الوحيد الممكن لشعريته)؛ الشهوة (أن لا يُكتب حتى تحل شهوة كتابته، وهو ما اعتدت أن أصفه اليوم بالفرحة؛ هناك فرحة تصاحب حلول الشعر في الرأس: لا ضرورة لدحض الصنعة في مقابل الإلهام، لكن بلا شهوة للكتابة لن يكون الشعر شعراً)؛ التعمد (أن يُكتب بنيّة أن يكون شعراً وليس شيئاً آخر، أدبياً كان أو غير أدبي: رأينا أن نية الشعرية كافية لضمان المعنى والتأثير، وأن أي تحديد يزيد على ذلك من شأنه أن يقيد احتمالات الإبداع).

317. الآن أنظر إلى المانيفستو الصغير الذي كتبه ليث الحيوان عن الشعرية الجديدة وأندهش. أمام هذا الكلام وتناقضاته أحس أنني من كوكب آخر. ليس الآن أقصد، وليس وحدي: سنة 1994 – أحس

– كنا ثلاثتنا في كوكب آخر؛ اليوم فقط أفكر أن هذا – مثل تمايزنا الطبقي، مثل تفانينا في فهم الشعر بغض النظر عن كتابته – يفسر ارتباطنا والتباس مكاننا داخل الدائرة.

318. لا أشك لحظة في أمانة ليث، في سعيه إلى أن يكون دقيقاً ومنصفاً، لكن ما هذا الذي يقوله بدين أمك يا باولو، يا نايف، ما هذا الذي يقوله ليث عن "نبوة الشاعر" بأنواعها وأنها مرض شُفينا منه في التسعينيات؟ ولماذا يوحي بأن البلاغة – أي بلاغة؟ – لا يمكن أن تكون سوى طفح جلدي؟ ما معنى أن يستغني الشاعر عن البلاغة؟ ثم ما هي هذه الشعرية أساساً؟ كيف تقاس الشعرية أو تقيّم على أساس خلوها من البلاغة؟ وبغض النظر عن المعضلات المنطقية، بالمناسبة، أمام هذا الكلام أحس أن ليث هو النبي ولا أحد يمكن أن يكون نبياً أكثر من ليث.

319. الآن أنظر إلى المانيفستو الصغير الذي كتبه ليث ويدهشني إلى أي حد هو مانيفستو، وأيديولوجي، وفيه تقنين مدرسي وإلغاء للغير. يدهشني لأن غرضه المعلن هو التخفف من أعباء "القديم" وتأكيد التنوع، لكن يدهشني بالأكثر لأنه لم يستوقف أحداً منا حين كُتب. وحين أسترجع العَقد التالي على الألفية لا أصدق كم ظلت الأشياء متناقضة وغبية حتى السنين الأخيرة من حياة ليث. وكيف ضربت المعايير لأن الناس لا تغادر الدائرة، لأنهم يستعيضون عن القارئ بكاتب آخر يسمونه صديقاً، لأن عدداً من الكتاب يتصادقون مهما نفوا ذلك يصبحون جماعة.

320. ورغم أن هناك اتفاقاً عاماً على مركزية وديع سعادة وسركون

بولص فضلاً عن محمد الماغوط في مقابل شعراء التفعيلة المعروفين (أنا وباولو ونايف لم نكن قد سمعنا بغير شعراء التفعيلة المعروفين)... في التسعينيات كانت هناك فكرة عن الذات إلى الآن ما زلت لا أعرف مدلولها: الذات كموضوع كتابة أو قيمة تؤكدها صورة صاحبها أمام الناس كنوع من الوجاهة الاجتماعية تعوّض أو تجاور وجاهة الشياكة والثراء. كانت هناك فكرة عن الذات، وأخرى عن الوعي: كيف أن الوعي جزئي ونسبي، إنه يخص الفرد. وإنه بوصفه شخصياً لا بد أن يكون خطأ. خطأ غير مكتمل ولا إرادي.بما ينفي أي احتمال للمساءلة، حتى في حال أنْ تُناقض الكتابة تلك الصفات. وبما يبرر بالطبع أكبر قدر من الجهل أيضاً، الجهل والكسل.

321. أنظر إلى المانيفستو الذي كتبه ليث وأتذكر أن الفردية كانت موضة كما أصبح الذهاب إلى الإسكندرية موضة، وأتذكر أن الجميع كان في "مكان كتابة" (كما يسميه) واحد. ورغم العداء الشديد لصورة الشاعر النبي كما للفحل، لم يُسقط أحد فكرة أن الشعر خطاب أسمى وأكثر قداسة من سواه، و لم يتخل أحد عن كتلة اجتماعية تبرر إنتاج ذلك الخطاب وتروّج له، وإن تحولت النبوة من الانتماء والتماسك – عبر فذلكات أدونيس وأتباعه – إلى نوع محبّب من القبح والبذاءة. للمرة الأولى ألاحظ بوضوح شديد جداً أنه لم يكن هناك فكرة حقيقية عن الاختلاف.

322. حتى هنا كان كل شيء يحدث في جيتو موحّد الهدف؛ كيف إذن دخل علينا أي كلام عن التعدد والتنوع؟ بديهي أن يكون لكل شاعر نكهة ونبرة صوت، بديهي أن لا تكون النصوص مستنسخة

من بعضها (ورغم أنها صارت تستنسخ أيضاً في ما بعد). لكن كيف دخل علينا أنك، بينما شيء في تاريخ مصر يفتح مجالاً للعمل ويحرّك الأموال قليلاً فيما الحكومة تجتر مدخول الخصخصة، كان يمكن أن تكون فرداً من الأصل؟ كيف استسغنا استبدال عرف بـ"هرش ومجموعة بـ"بفّة" و"جُنّ" بـ"لسع"، وبمنهجية تُفقد الألفاظ أي طزاجة محتملة؟

323. كان عليكم أن تحرّروا الوعي بعد أن جرجره آباؤكم إلى غرفة على سطح إحدى عمارات الطبقة العاملة وتحايلوا على حبسه هناك. كان عليكم أن تتسللوا إلى الوعي في تلك الغرفة لتوقعوه في حبكم، تفتنوه بألق الخصوصية وسماحة التفرد حتى يرافقكم. بالفعل هيّجتم أعضاءه الخاصة بوعد آفاق أبرح وراء المطارات. لم يسترح أحدكم إلى الآخَر بما يكفي لأن طموحكم كان أوسع من مقصورة "الميكروباص" الذي ينقلكم معاً، فقط تآزرتم على سحب العجل إثر سقوطه خطوة أو خطوتين. وإلى أن تمكنتم من استدراج الوعي إلى مكان آخر، كان عليكم أن تتبرأوا من أسمائكم وتلوّحوا برايات مشتعلة بينما تركضون في الزقاقات الخلفية بلا ثياب... إلى أن حوّلتم الآباء إلى شرطة آداب وجعلتم من العائلات كتائب نظامية لمكافحة القناصين الأكثر دقة في اصطياد مخلوقات منقرضة لا زال عَفَنها يلوّث المروج الممتدة خلف العتبات. وقبل أن تعتلوا المنصات حيث العفن ذاته يفرزه أصدقاء لكم يلعبون دور جمهور منزّه، كنتم تتدربون على نداءات الباعة لتسرحوا بالوعي في الأسواق الشعبية بانتظار زاوية في أحد "المولات" عرفتم مبكراً أن صفاقتكم لن تبقى غير مسنودة على شيء، وأن ذلك الذي تسمّونه الغرام يمكن أن ينقلكم إلى بلاد أبرد وأكثر تحضراً. ويعلّمكم لغات. بالتدريج أصبح الوعي وعيكم، مع أنه

لم يكن أقل تورطاً في الحبس. وظل يتعامل مع مقاعد الطائرات وجليد المدن النظيفة بقانون الجرجرة والتحايل. كأنكم آباؤكم. أو كأنكم بعد أن نجحتم في تحرير الوعي لم تجدوا له مكاناً سوى غرفة السطح ذاتها حيث كان ينعم بنوم هادئ بعيداً عن كل هذا السباب. (لا أذكر من منا كتب هذا النص، ولا متى.)

324. بالطبع كانت هناك فكرة ثالثة أيضاً، عن التجاوز. كانت هناك فكرة تساوي بين الدين والأخلاق والالتزام وربما الثبات على المبدأ في حد ذاته (مهما كان المبدأ بسيطاً أو بريئاً من النظرية)؛ فكرة تساوي بين هذه الأشياء كلها وتحرّمها كلها بتزمت، وعبر أجيال قادمة ستظل كلمة أخلاقي، في دائرة المثقفين، شتيمة نابية؛ كانت الاستهانة بقيمة الأشياء عند الناس – واستعراض صورة الشاعر المتخبط الذي يتشاجر مع تابوهاته، الأمر الذي لمستُه عند باولو شخصياً بعد الألفية وهو يعاقب نايف على قسوته معه في ما يخص علاقته بنرجس – كان هذا الاستعراض بديلاً عن العبادة.

325. يخطر لي الآن وأنا أنظر إلى المانيفستو أن فكرة التجاوز هذه، بالذات عند الريفيين من أرباب الدائرة، كان فيها لبس مقرف: تحس كأن الأولوية ليست لتغيير الشيء قدر ما هي لإبقائه مشوهاً أو مكسوراً. بينما كان يمكن أن يدافع الناس عن حقهم في الإلحاد، مثلاً، كنتَ تراهم – وهم لا يقولون إنهم ملحدون – يبالغون في كل ما يمكن أن يثبت عليهم الكفر ويجعلهم، في عيون المجتمع الأوسع، أولاد قحاب كفرة. لن يشك المجتمع الأوسع قبل عشر سنين أخرى في أن الإلحاد – مثله مثل التظاهر والجنس والهيفي ميتال فضلاً عن

الدعوة إلى الإسلام السلفي – هو حق مدني لا بد من اكتسابه. فلماذا لن يسعى أحد بعد أن يشك المجتمع الأوسع إلى اكتساب أي حق؟

326. وأتذكر أن شيئاً من ذلك، أيامها، لم يخطر لأحد. حتى نحن لم نتمكن من صوغه إلا بطريق ملتوية في فلسفة الشعر السري؛ و لم نلحظ أننا بذلك الصوغ – مثل رضوى عادل مع الحركة الشيوعية الثالثة – إنما كنا، عملياً، نخرج على الجانب الشعري من الدائرة في تجليه التسعيني.

327. بعد أكثر من عقد أنظر إلى المانيفستو بهدوء وألاحظ أن أحداً لم يتجاوز أي شيء. ورغم أن دور الرجل والمرأة أحياناً ما كان يُعكس نتيجة المرض النفسي أو بحجته، الرجال تزوجوا من نساء يعددن لهم الطعام والنساء تزوجن من رجال يبحثون لهن عن وظائف.

328. وبعد أكثر من عقد – أتذكر – مر يوم 27/6/2011 في هدوء: خمسة وثلاثون عاماً بالضبط على مولد نايف. لم أكن قد رأيته منذ 2001. وخطر لي أن مدة فراقنا بلغت عقداً كاملاً من السنين. اليوم من حيث أكتب في مكان لا يخطر على بال بشر – ولا ضرورة، عملياً، لأنْ يخطر – لماذا يدهشني أنني لم أعد قادراً على استدعاء ملامح صديقي؟ أتأمل عنوان كتاب المناضلة بينما أحاول أن أتذكر وجه نايف وأفشل. أقلّب في المعاجم عن باء سين راء حتى أعرف أنّ بَسَرَ مرادف لعَجلَ: أنْ تبسر النخلة يعني أن تلقّحها قبل أوان التلقيح؛ الذي يبسر الشيء يعمله قبل أوانه... ومن ثَمّ المبسور: المنزوع وهو طري، المُعَجّل بأمره، المدفوع به مبكراً إلى المنطلق أو المآب.

329. وعند رضوى عادل أن المبسور هو من تبدأ أو تنتهي دورته قبل

أن يكون جاهزاً، مثل مولود لا بد من وضعه في الحضّانة أو فاكهة تُقتطَف وهي خضراء. ليس مجازاً مبتكراً، بالذات إذا ما وضعنا في اعتبارنا سخافة اللفظة وغرابتها على الأذنين. أقصد أنه ليس عنواناً موفّقاً، لكن فضلاً عن أن المجاز ينطبق علينا ثلاثتنا، يبدو لي أنه يصف مأساة نايف بدقة فظيعة.

330. حين أعرف بوجود مترجم لجينزبرج يُدعى سركون بولص، لن أقارن بين ترجماته وترجمات نايف؛ لن أجهد نفسي في مفاضلة الشاعرين. فقط سأقرأ: "**جاء الواحدُ الذي يقولُ، والآخر الذي يصمت**. أجمل شيء في الجملة إيحاء أنه لا فرق. أنا الواحد الذي يقول لكن هذا لا يعني أن هناك أي فرق بيني وبين نايف، الذي يصمت إلى الأبد.

331. كانت حكمة التماسيح الوحيدة إدراكهم لحقيقة الدور الذي يؤديه الشعر عشية الألفية الثانية: أنه أشبه بسر لا يباح به أو بالصمت. لعلني خائن بمعنى ما لأنني قرّرتُ أن أقول، لكن بعد مرور عقد ونصف أظن أن القول والصمت أصبحا شيئاً واحداً. حين يحدث ذلك لا يبقى إلا ألعاب الذاكرة وتضارُب الروايات. للغموض سحر فعلاً لكن عندما ينكشف كل شيء لا يبقى سوى التأويل. والتأويل متوقف على اتساق ما، اتساق من شأنه أن يتآكل مع مرور الوقت وتناقل الكلام. الذي يبقى ليس وضوحاً ولا غموضاً ولكن حساء، حساء رائحته قوية تشعر أنك سابح فيه وبالكاد ترفع رأسك عن سطحه لتتجنب الغرق. لا يهم مَن منا يسبح في هذا الحساء؛ المهم أن يكون شخصاً واحداً وأن يكون قد غرق فعلاً أو كاد.

332. وسواء بصفة الغارق في الحساء أو أي صفة سواها، اعتدتُ أن أتخيّل خطوات موت المناضلة ببطء السلحفاة مع أن العملية لا يمكن أن تكون قد استغرقت إلاّ ثوان. وكأنني أستعمل الأعوام التي تفصلني عن آخر مشهد في حياة رضوى عادل لأحشو بها ذلك المشهد، لي أربعة عشر عاماً – بمزاجي – أمط المساحة التي شغلتْها كل لحظة من لحظات انتحارها. أفعل ذلك ربما لأنني في قرارة نفسي مقتنع بأن ما عانيناه من يومها أنا وباولو ونايف ليس سوى تمثيليات حياتية ممطوطة لأشياء حدثت للمناضلة على نطاق ميكروسكوبي أثناء تلك اللحظات؛ علماً بأن المعاناة لم تبلغ حدتها إلا بعد أربع سنوات وبالتحديد في فترة مزحومة من شهر 7 إلى شهر 11 سنة 2001. أنا لم أؤدّ في أحداث هذه الفترة دوراً يُذكر، لكنها هَوسَتْني. ومن وقتها وأنا أتأمل مكاننا من واقعة الانتحار.

333. قال لي ماهر عبد العزيز إن رضوى عادل كانت وردة جيلها.

334. وفي المرات التي راودني فيها الأمر بإلحاح، فكرت في البحث عن ملف الطبيب الشرعي الخاص برضوى عادل ومحاولة استنتاج ما حدث بالتفصيل. لم أفعل ولم أستفسر عن محل سكن قريبتها أو أختبر صحة المشهد كما تشكّل في رأسي، ليس كسلاً وتفضيلاً للقيل والقال على المعلومات الموثّقة – وهي سمات لا أنكر أنني اكتسبتُها من الدائرة – ولكنْ لأن مثل هذه الأشياء لا تعيد إلى الحياة قطاً دهستْه عجلة سيارة في الفجر. بعد زوال الدم عن الأرض بل وبعد إعادة رصف الطريق بحيث لا يبقى للحادث ولو أثر معنوي، تظل حقيقة أن القط اندهس وأنه تكسّر وتسطّح والتصق بالأسفلت؛ ولو كان قد

مات على الفور لكان ذلك أفضل كثيراً، حتى لو بقي جسده وسط الطريق إلى أن يزيحه الكناسون مع القمامة في الصباح.

335. أعترف أنّ جزءاً من فضولي تركّز على ما جرى لجسد رضوى عادل جرّاء القفزة: إن كان رأسها قد شُج أو خرجت عظامها من لحمها، وأي قطعة من أحشائها تعرّت وظهرت للعيان عائمةً في الدم. ولسبب لعل له صلةً بحقدها على مَن تتكلّم عنهم من رفاق درب النضال في **المبسورون: كشاكيل مشاركة في الحركة الطلابية** (والذي صدر في شتاء عام انتحارها، بينما جُمعتْ بقية نصوصها في الصيف التالي)، يحلو لي تخيُّل مخّها وقد انفصل كلياً عن الجمجمة المتهشمة وتدحرج صحيحاً إلى حز الرصيف. وحين أفعل، أرى الوجه بلا رأس مشدوداً على عظام الفكين والذقن وما بقي من القورة وقد ثبت على وضع يسمح للعينين المتسعتين الآن بما يشبه النظر إلى العضو البشري الذي دارتْ في ثنياته كل تمثيلياتنا اللاحقة: حبة عين الجمل العملاقة التي تخبّئها دماغ رضوى عادل.

336. قال لي مجاب حرب: "تقريباً لم نكن ننام من الحكايات. صحيح أنها حين تحكي لك عن العلاقات الإنسانية بين أعضاء الحزب تصيبك رغبة في التقيؤ. لكن حتى هذه الحكايات كان الاستماع إليها ممتعاً نتيجة متعة الكلام مع رضوى وخفة دمها. لهذا لم نكن ننام من الحكايات. وأحياناً كانت تتمرد على ذلك المنطق القاسي في التعامل مع العالم. للحظات ترفضه بالفعل. ساعتها ترى رغبتها في أن تكون مثل بقية الناس. حين تضحك أو تغني وهي تمارس حياتها داخل البيت، كنت تحس بأنها لمحت حياة أخرى

تريدها ولا تعرف كيف تصل إليها. المشكلة أنها صدّقتْ النبل لكنها لم تعرف كيف تصل إليه بلا انتحار. صدقت النبل وفهمت بشكل مركّب جداً كم هو مأزوم وأناني، في الوقت ذاته. كامرأة، كان هذا يفجّر عندها إحساساً بالعجز فتثور على أقرب شخص إليها. وكأنك أنت المسؤول عن عجزها، كأنك حين تتوقع منها أن تعيش حياتها ببساطة إنما تكشف نقطة ضعفها وتعرّيها. وكان احترام كل هؤلاء لها نابعاً من انتحاريتها وخوفهم من قدرتها على تشريحهم بمنتهى الذكاء والقسوة؛ لم ير أحد أبداً إنسانيتها."

337. وقال: "لم نكن ننام تقريباً، من الحكايات. لكنك لا تستطيع أن تتخيل كم كانت رضوى وحيدة رغم كل من تكلموا عنها بعد وفاتها. أعتقد أن ماركسيتها كانت في عمقها حلماً وجودياً بالأب، ومن هنا – ربما – ذلك التعلق بعبد الناصر. في فيلم 'فورست جامب' هناك مشهد تقذف فيه إحدى الشخصيات بيت أبيها القديم بالطين. شاهدنا الفيلم سوياً. في هذه اللقطة أحسست برضوى وحين نظرت إليها كانت متأثرة جداً بالفعل. كانت هذه إحدى استعاراتها. ولهذا الشيء أحببتها، ليس لأنها أصابت أو أخطأت ولا لأنها صدقت أو كذبت ولكن لشيء آخر لا أعرف كيف أقوله. خفّة دمها... كان لها صورة وهي في المدرسة الثانوية تحت زجاج المنضدة في المطبخ. كنت أحب هذه الصورة، والشخصية الظاهرة فيها؛ أحياناً كنت أتمنى لو أنني التقيت بتلك الفتاة في بلد آخر. لا تستطيع أن تتخيل متعة الكلام.

---

1 Forest Gump، إنتاج 1994.

338. لي أكثر من عام – بينما أتخيل مخها جوار الرصيف – أسأل نفسي كيف لم نلتفت إلى انتحار رضوى عادل وقت حدوثه. ليس تزامُن الواقعة مع احتفالنا بنشأة جماعة التماسيح سبباً لعدم الالتفات، خاصة وأننا كنا قد سمعنا اسم المناضلة ونعرف بوجودها بما يكفي لنستدعيه؛ لنا أصدقاء مشتركون، أو معارف. لا شك في أننا علمنا بموتها حين ماتت، بدليل الحوار الذي دار بيني وبين نايف يوم 23/6/1997 في الطريق إلى ميدان الأوبرا. ومع ذلك... أشياء كثيرة تبقبق في رأسي من تلك الأعوام الأربعة المقطوعة نهائياً عن ما تلى 2001، بداية من شهر 6 سنة 1997. ولا شيء واضحٌ وسط البقبقة: هل رضوى عادل مرجعية مهمة في حركة الشعر السري؟ هل الشعر السري نموذج للحركات الأدبية في التسعينيات؟ هل نايف مثال مقنع على العضو المؤسس للجماعة؟

339. الثابت أن جماعتنا تكونت يوم عيد ميلاد نايف وانتحار رضوى عادل؛ أن باولو راهن نايف على أن تُطلّق نرجس من زوجها قبل يوم 1/1/2000؛ وأننا بتأسيس الجماعة – مع أن فلسفتنا كانت خروجاً عليها – إنما انضممنا رسمياً إلى دائرة المثقفين، أو عائلتهم: ذلك الكيان الأوسع انتشاراً والأعمق تجذراً من أي فئة واحدة قد ننسب أنفسنا إليها بنون الجمع ومع ذلك، بالنسبة إلى المجتمع الذي يحتويه، لا وجود له على الإطلاق. المناضلون والكُتّاب والمفكرون الكبار شأنهم شأن الخارجين على التصنيفات الكلاسيكية بوصفهم جماعة تسعينية أو أفراداً مزعومين يرفضون التوصيف: رغم الفروق ودعاوى التفرد والفردية، كلنا – هؤلاء وأولئك – عرّفنا أنفسنا بالدائرة.

340. أحياناً يخطر لي أن دائرة المثقفين في القاهرة فكرة كاملة بالمعنى الأفلاطوني، أنها مثل الله أو الشيطان موجودة من قبل وجود الكون وستبقى بعد تفتّت الكرة الأرضية. من غير المُجدي إذن محاولة الإخبار بدقة عن مكان التماسيح من الدائرة سوى أننا كغيرنا، وبدرجات متفاوتة، أصبحناها؛ وهو ما يُجرّئني على أن أقول دائرتنا وأنا لا أقصد سوى جماعتنا، كما يسمح لي بأن لا أميّز دائماً بين التماسيح وغيرهم من ورثة الحركة الطلابية وأولئك الذين سلموها ميراثهم من الدائرة ذاتها.

341. في منتصف التسعينيات كنا في العشرين من عمرنا تقريباً لكنْ كان لنا أصدقاء أكبر بعشر سنين أو بعشرين سنة و لم يكن السن عاملاً في ولاءات سنكتشف بوجع كثير أنها لم تكن متقلبة فحسب ولكن أيضاً – أكثر الوقت – زائفة.

342. هناك حكاية أخرى طبعاً: حكاية شخص غادر شقة سليمان جوهر قبل وفاة أبيه بعام. ربما لم يكن يحدث له كل ذلك أو كان يحدث بالتوازي مع أشياء، في الوقت نفسه، أهم وأتفهه: أشياء أقرب من ترهات التماسيح إلى ما يسمونه الحياة. ربما تخرج هذا الشخص وحصل على عمل في الصحافة. ربما تزوج، ربما طلّق و لم يحمل هم أولاد أنجبهم في زواجه كالمنوم. شخص من المفترض أنه كان يسكن في المنيل حين قام ذلك الذي يسمونه الثورة سنة 2011، وأنه – أكثر من مرة – وقع في الغرام... هناك حكاية أدرك عبر سبعة عشر عاماً وهي تحدث أن لا شيء فيها يخصه على الإطلاق، أن الأشياء التي تخصه قليلة وبعيدة عن الزواج والإنجاب والعمل وإن كانت تحدث

كلها في ذات المساحة من الزمن والمكان، وأنها بلا استثناء تقريباً مرتبطة بجماعة التماسيح.

343. في منتصف التسعينيات كنا في العشرين من عمرنا ولولا الدائرة – هذا ما أكتشفه الآن – لما وجدنا ما يجمعنا ويستوعب ليس كتابتنا وإنما العبث والتكلف الراكب فوقها: خيباتنا المرافقة لنا والمترتبة على تجنّب كلٍ منا لطريقة الحياة المطروحة أمامه، حتى نايف الناجح الوحيد بيننا، والتي برّرناها – أقصد الخيبات – بأننا نكتب أو أننا مثقفون. سنة 1998، قرأنا كلام أدهم اليمني "إنه لا يمكن لأحد أن يفكر في العودة إلى البيت أو السرير وإن كل ما يجب أن يتمناه رصيف صغير وأناس يقدّرون مصارع العشاق؛" ومن يومها وأنا أعلم أننا سنبقى على الأرصفة مهما فتّشنا عن بيت.

344. "السنديانة" (من نصوصي المكتوبة أثناء علاقة نايف بمون):

السنديانة التي يجب أن تُزهر خلف كتفي/ ولا أستطيع أن أراها حتى في الحلم/ ولا أعرف ماذا تعني سنديانة/ أظنني لمحتها لوهلة/ بين عادم السماء الأزرق/ والطين الرمادي الذي كان جذراً/ الطين الذي كان جذراً قبل أن تعجنه العجلات/ لتبسط أرضية أعمارنا بامتداد البصر/ لمحتها بينما أشكّ خيطاً في طحين الأبواق/ ومثل كل يوم لا يمكن التنبؤ بمنعرج الإبرة/ كانت رهيبة وخرافية الجمال/ خرافية الجمال فعلاً كما يُفترض/ في شجرة غنائية.

345. كانت 2001 سنة الانهيارات بغض النظر عن أي أحداث عالمية. وبينما مصطفى ذكري مرابط في حلوان كصخرة رخوة، يقرأ كلاسيكيات القرن العشرين وينحت جملاً مخيفة في لا جدوى دقتها، كانت الناس قد بدأت تهاجر. ومنذ منتصف التسعينيات، سواء من

خلال منح دراسية أو عقود زواج: صقر الجناييني إلى ألمانيا، وائل رجب إلى فرنسا... والآن مع ذهاب اليمني نفسه إلى إسبانيا بدا أن العالم الذي نشأتْ فيه جماعتنا أصبح مجرد رفات.

346. في الفترة نفسها مات مَن مات وذهب من ذهب عن المقاهي وجُنّ مَن جن أو أعاد اكتشاف الإسلام على الطريقة السلفية. ولأن التحولات كانت صعبة فعلاً... التحولات كانت كلها صعبة لكنّ أصعب شيء أننا، ونحن نعرف كيف تيتّم نايف قبل خمس سنين، شاهدنا ذلك القط تدهسه عجلة السيارة والشارع خالٍ. رأيناه حياً ورأيناه يندهس، ثم رأيناه يحتضر ملتصقاً بالأسفلت بينما الشمس تشرق حتى مات.

347. كان ذلك ليلة الألفية في طريق عودتنا من حفلة الهرم؛ ولم يكن قد مر أسبوع على امتثال باولو للواقع واعترافه بأنه خسر الرهان من قبل أن يجيء الموعد. امتثل بلا مبالاة مبالغة وغضب مكبوت سيتوجه كله إلى الرابح – نايف – وبالأخص إلى حياته العاطفية، إلى مون.

348. قبل الألفية بأسبوع أو أقل، طلب مني باولو أن أصطحبه إلى زيارة نايف في المعادي – كان نايف وقتها يسكن في بيت رئيسه المقيم مؤقتاً في أمريكا – فالتقينا في محطة المترو وكان يحمل مظروفاً أبيض مقوّى يتعامل معه كأنه قطعة أثرية مهرّبة، أو مسدس. بدا ممتقعاً أو مهزوماً، الأمر الذي لاحظتُه – للغرابة – من قلة الامتعاض في وجهه وليس زيادته. كان الامتعاض هو الحالة الاعتيادية لوجه باولو. وخمّنت أن للأمر صلة بنرجس مع أنني لم أجرؤ على تخيل

ما يحتويه المظروف حتى فتحه باولو أمام أعيننا جميعاً وقال، موجهاً كلامه لنايف: "امسك يا ابن المجنونة. كان معك حق." لوهلة – ونحن مشدوهان، أنا ونايف، بما ظهر أمامنا بالأبيض والأسود ومن تحته شريطا نيجاتيف مغلّفان – بدا أن باولو سيبكي، لكنه انفجر ضاحكاً ثم أخرج باكتة بانجو من جيبه وهو يغني أغنية بذيئة. أذكر أن نايف بدا حزيناً فعلاً وهو يضرب كفاً بكف، تاركاً عضو الفنانة التشكيلية داخل إطاره على المنضدة: "أنت أساساً صدقت نفسك في حكاية الرهان. أنا كنت أعبر عن وجهة نظري فقط. أنت الذي صدقت نفسك يا باولو.

349. في لقائهما الأخير – هكذا سأعرف في أعقاب زيارتنا لنايف – كان باولو قد قال لنرجس أشياء قاسية. قال إنه حين ينظر إليها بعد أربع سنين ملأها صوتها لا يرى إلاّ وعاء أجوف يُطرَق جلدٌ مشدود على فوهته ليثير جلبة في المكان، لكن نوع وعلّو الصوت الصادر لا يحدّده سوى طبّال عابر؛ إن ظروف نشأتها في المنيا والمشاكل الناتجة عن ذلك ليست أوسمة ولا مبررات؛ وإنها كان يمكن أن تكون خلفيتها فقيرة وريفية ولا تتاجر بقصة كفاح. وقال إنها لا تطلّق ولا يمكن أن تطلق لأن الأسرة التي يقيمها أشرف هي كل علاقتها بابنها؛ بمجرد أن تنحل الأسرة ستنكشف التمثيلية التي تمثلها على نفسها كما على الآخرين، بأنها أم أو أنها تعرف أمومة.

350. "وساعتها ستكون الحقيقة فوق طاقتك لأنك جبانة،" هكذا قال باولو لنرجس: "بعدما حوّلت الشخص الذي حمل خراءك وجعلك 'بني آدمة' إلى ديوث مضطر إلى أن يكون أماً

وست بيت، ظللت 'مرا' بأسوأ معنى يا نرجس.

351. وفي اللقاء نفسه قال أشياء أقسى عليه هو: إن نرجس أمضت أربع سنين ترهبه بأن حبهما سيصيبها بالانهيار العصبي وأنه لا يجب أن يضغط عليها في اتخاذ قرارات مصيرية – لو تركتني، تؤكد، سينكسر قلبي إلى الأبد – بينما الواقع أنها لم تفكر مجرد تفكير في تغيير حياتها من أجله وبذلك كسرت قلبه بالفعل؛ إنه كان يجب أن يصدقها يوم قالت إنها تتمنى لو كانت شخصاً آخر ويحب الشخص الذي تمنت أن تكونه، ليس هي؛ وإنه يكاد يتقيأ كلما تذكر أنه – الآن – ينتظرها.

352. كان نايف يستريح للأسد. لم يكن يستريح له بالضبط، لكنه كان يتعود على حضوره. بالتدريج، إثر انشغاله بمون، تعلم أن يجالسه في صمته ويطيل النظر إلى عينيه الحزينتين. الأسد نفسه لم يعد يظهر بالكثافة نفسها – ظلت تتباعد زياراته حتى شهر 9/2001، حين زادت بدرجة فظيعة – وبينما لم يتخلص نايف من هلع الشعور بأنه على حافة خبل ليس كأي شيء، بدأ يرى الأسد باعتباره مجرد إشارة إلى اقتراب اللحظة التي ليس بعدها رجوع. كان يخامره الشك في أن تعلقه المتزايد بمون – والذي لم يكن قادراً على كبح جماحه رغم العدمية التي حركته طوال عمره – هو التجلي الحقيقي لتلك اللحظة، أن الأسد ليس منه ضرر في حد ذاته، وأن تفتت حياته أمام عينيه – كتفتت الجمال في وجه مون حين تضحك ضحكتها الصفراء القبيحة – كان ليحدث بالأسد أو بدونه.

353. كان نايف يستريح للأسد ويستسلم أكثر فأكثر لحب مون،

لرغبته الموجعة في امتلاكها أو إعادة خلقها من أجله هو. وكان قد عرف منها – وقد أوثق يديها وقدميها إلى عارضتي السرير ليجلد بطنها بحزامه – أن الشاليه الذي تبيت فيه يقع على الشاطئ في الكيلو 232 بعد الإسكندرية. في الأسابيع الأولى من شهر 9/2001، قبل أن يختفي تماماً في الأسبوع الأخير، كان الأسد قد بدأ يظهر بكثافة مفزعة. لكن هلع نايف بدأ يصب كله في استحالة السيطرة على مون. أكثر من مرة فكر في الشكوى إلى الأسد، في الاستعانة به أو طلب مساعدته. لكنه، وقد نفر من جنون أن يكلم حيواناً خرافياً ظهر في بيته بلا تفسير، كان يتراجع في اللحظة الأخيرة. وفي صباح الثلاثاء 11/9/2001 حين قرر أن لا يذهب إلى عمله كما يفعل كل صباح وانطلق بسيارته إلى الطريق الصحراوي قاصداً الكيلو 232 – حين توقف في محطة البنزين ليملأ السيارة ويتأكد من صلابة العَجَل ووفرة المياه – كان قد غالب الرغبة في مداهمتها عشرة أيام كاملة، مطمئنا نفسه بكلام من قبيل أنها ستأتي بعد يوم أو يومين. لكنه، وقد سهر طوال ليل 10/9/2011، في الصباح الباكر لم يستطع أن يقاوم.

354. كان قد عرف منها مكان الشاليه إلى حيث توجه في الصباح الباكر مع أنها كانت في القاهرة منذ ظهر 10/9 كانت في القاهرة لكنها لم تخبره. يوم 10/9 هو اليوم الذي التقيت فيه صدفة بمون في الزمالك واصطحبتها إلى حيث أسكن فلم تغادر حتى ساعة متأخرة من نهار 11/9؛ لم أسمع بما حدث لنايف إلا بعد ثلاثة أيام، حين عرف باولو من شايلوك الذي تتبع أثره عبر أصدقائه في البوليس بعدما لم يجده في البيت؛ ولحسن أو سوء الحظ لم تكن مون معي لا

ساعتها ولا ساعة سمعت بانهيار البرجين. هي لم تحادثني بعد لقائنا ذاك، ولا حادثت باولو. لفترة طويلة امتنعت عن الاتصال بها وحين فعلت كان الرقم قد تغير. ليس أكيداً، إذن، أن مون عرفت أصلاً بمصير نايف؛ فقط افترضنا أنها عرفت وأن ذلك من أسباب اختفائها. ولا بد أنها عرفت فعلاً، إن لم يكن إثر محاولة الاتصال به وزيارته في الأيام التالية فمن أحد المعارف أو من خلاله.

355. **"وقد أكلني أسد في مكتبة داخل "كوزميك كامبس"، وقد جوعني أستاذي كاندينسكي** – هكذا سيكمل نايف ترجمة قصيدة "الأسد بجد"، باحثاً عن عاطفة الكلام ولا شيء سواها – **أموت في تكية لأبناء السبيل داخل سيرك للأسود. كل صباح أستيقظ وهو هناك على أرض بيتي يموت. "يا أيتها الحضرة المهيبة!" صرخت. "التهميني أو لتموتي!" حينئذ قام عصراً، مشى إلى الباب مستنداً بكفه إلى الجدار الجنوبي ليتحاشى رجفة الجسد. من أعلى فيه العميق إلى ما لا نهاية جاءت صرخة تخلع القلب. وهادراً من أرض بيتي إلى السموات وقد فاق وزنه وزن بركان مكسيكي، فتح الباب بدفعة واحدة وبنبرة كالحصى كلمني: "هذه التارة لا، ومع ذلك سأعود إليك يا صغيري طوراً." يا أسداً يفترس دماغي الآن له عشر سنين ولا يعرف إلا الجوع. سعادة رضاك يا أيها الزئير السماوي، لماذا تم اختياري؟ صدقت عهدك في هذه الحياة وأنا مستعد لأن أموت. وطالما عبدت حضورك القديم الجائع يا أيها الإله، أكون في غرفتي بانتظار رحمتك. (النهاية).1"**

356. ليلة الألفية لم يكن قد مر أسبوع على شفائي أنا من حب صبا

1 كوزميك كامبس (Cosmic Campus): إشارة إلى مقر جامعة كولومبيا حيث كان جينزبرج يدرس في نيويورك.

– الناشطة الحقوقية التي أقام معها باولو علاقة عابرة قبل أربعة أعوام؛ التقيت بها صدفة في شهر 10/1999 وعبّرتْ عن إعجاب شديد بنص قرأته لي في عدد قديم من مجلة "القاهرة"، كان قد نشر أيام أصبح عفت يس مدير تحرير هناك – مجرد امرأة أخرى من دائرتنا، على مشارف الأربعين.

357. ليلة الألفية كنت قد شُفيت من حبها، لكنني لم أُشف تماماً من مشهد "جويسيبي" زوجها الإيطالي واقفاً فوق رأسي في صالة بيتهما بينما هي منهارة بالداخل بعدما أيقنتْ أنها فقدتْ سيطرتها عليّ. هكذا وبّخني الزوج على قسوتي مع زوجته بحسب ما قال، مؤكداً أنها دعمتني ككاتب شاب بينما أنا استمرأتُ الجنس المجاني الذي وفرتْه. كنتُ مذهولاً من أنه يعرف بأمر الجنس الذي لم يكن جنساً بالضبط بعدما اعتدتُ مجالسته على أساس أن ما يحدث يحدث من وراء ظهره وأن خيانته ضرورة يمليها الغرام؛ و لم أدرك على الفور أن ذهولي الأكبر كان من تعاطفه معها ضدي بلا أي خجل أو إحساس بالإهانة.

358. عندما انشغلتْ بي صبا وتوالت مكالماتها ولقاءاتنا، لم يكن قد خطر لي أن ما يحدث معي شيء اعتيادي؛ كما سبق وذكرتُ، لم أعرف إلا لاحقاً حتى بعلاقتها مع باولو. ولفترة ظننتُ اهتمامها بريئاً بالفعل... إلى أن صرّحتْ بحبها ذات مساء ذهبي في مطعم تايلاندي في المعادي ونحن نتكلم عن الشاعرة الأمريكية المنتحرة سيلفيا بلاث.

359. عندما باحت لي صبا بحبها بدا لي أنها أكثر اتزاناً مما يجب أن

تكون في لحظة كهذه، لكنها في المرة الأولى التي اختلينا فيها ببعضنا في بيتها – وكنتُ جالساً على طاولة عالية في الظلام – حشرتْ جسدها الفارع بين فخذي وتشبثت برأسي باكية؛ وبينما أمسّد شعرها القصير المشعث، استدارت نصف دورة بحيث تواجه الشباك حيث اللون الذهبي نفسه يلمع ولا يضيء الغرفة. قالت وهي ترفع يديها وتفرد الكفّين أمامها كمَن يحاول إيقاف شيء آت في وجهه: "أريد أحداً يلم أجزائي المبعثرة. صدّقتُ أنني ذلك الأحد على الفور. ورغم مسرحية المشهد، رغم أشياء كثيرة، أحببتها.[1]

360. عندما انشغلت بي صبا لم يكن قد خطر لي شيء. وإلى أن اعترفتْ لي بأنها بدأتْ حياتها الخاصة مع صديقة طفولتها – عشقتْ كل منهما الأخرى واكتشفتا مكامن الفرحة في جسديهما معاً بلا حاجة إلى شخص ثالث ولا حاجة إلى رجال؛ لكن بينما استدلّت صديقتها بما كان جسدها يدمدم به منذ البلوغ والتزمت باختيارها المثلي بقية حياتها بالفعل (هي الأخرى – الصديقة – معروفة في الدائرة)، لم تخضع صبا للحقيقة... وحين كسرتْ قلب صديقتها تمسكاً بالهوية الجنسية الأكثر سلاسة، لم يكن ذلك لأن جسدها يدلها إلى الرجال – أنصتُ إليها تحكي لي عن اكتئابها أيضاً، محاولات انتحارها المتكررة قبل زواجها من جيوسيبي، ومركزية ذلك الصحفي الإيطالي المقيم في القاهرة له اثنا عشر عاماً حين تزوجا: الوحيد الذي يتفهم ويغفر إلى النهاية.

361. بالتدريج أدركتُ أن الجزء الأكبر من حياة صبا يدور حول

1 Sylvia Plath.

لعبة أن تَعد رجلاً بجسدها تلميحاً في مقابل اهتمام غير عادي، ثم تشكو من أنه يتحرش بها أو يحاول اغتصابها بصدد التوقعات المترتبة على الاهتمام. كان يوجعني أن أراها تتصرف هكذا مع الآخرين ممن أعرفهم بالذات، لكنني أتخطى الوجع ونحن نضحك أو نتعانق؛ أقول لنفسي إن صبا أنضج وأروع من أن تكون لعبتها هذه مقصودة، إن الناس فعلاً يسيئون فهمها ويستبيحونها رغم براءتها الساحرة.

362. وطوال سنة، بينما أقوم بدور صديق الأسرة آكلاً وشارباً ومرافقاً في السفر وأنا لا يخطر لي أن المودة مسجلة في الدفتر ولا أنني سأُعيّر لاحقاً بالضيافة، بينما أساعد صبا في عملها أو أقدّم لها خدمات، ظللتُ أنتظر أن تعطيني جسدها؛ لم تفعل. لم تكن تحرم نفسها متعة الذروة بالأصابع أو اللسان (ذروتها لوحدها) لكن التلامس يقف عند حد معين تشلّها بعده مشاعر الذنب والقلق، تماماً مثل مراهقة تقيم علاقة مع رجل للمرة الأولى في حياتها ومن ثَمّ تخون الصديقة التي تعشقها سراً من أجل شيء مشروع وإن لم يكن علنياً.

363. كانت صبا مشهورة في الدائرة والناس ترحّب بوجودها كنموذج مبهج للنساء غير التقليديات، بالذات وأنها تستمتع بالنميمة وليس لها أولاد. وبحكم عملها المتداخل في علاقات متشعبة تحرص عليها وتشكو من ضغوطها بلا تمييز، كانت تكثر من الكلام عن حقوق المرأة واستغلال الرجل لها: ضرورة أن تتحرر من نير الكراهية الذكورية. وكان الناس، عملياً، يصفّقون.

364. من مكاني الافتراضي في مستقبل كان يتدلى أمامنا ولا نراه،

يبدو لي الآن أن هذا عبث صرف. يبدو لي عبثاً – ضمن أسباب أخرى – لأنك لو تابعتَ صبا من 1990 إلى 2010، على الأقل، ستعرف أن ما حدث معي حدث بحذافيره أو على الأقل كاد يحدث مع كتاب التسعينيات جميعاً، واحداً بعد واحد (دائماً بدعوى الغرام، ودائماً بوعد جنس كامل لا يتحقق لأن شيئاً يشلّها في اللحظة الحاسمة) إضافة إلى صحفيين وفنانين وآخرين منهم أرباب جيل أصغر من الكتاب؛ وحده نايف لم تكن له قصة معها لأنه تعلّق بمون قبل أن يلتقيا، ليس لأنها لم تنتبه إليه ولا لأنه كان محصّناً ضد إغوائها.

365. ليلة الألفية، ولو بنصف وعي، كنتُ أعرف. كنت أعرف أن أجسادنا تدلّنا، تكشف لنا أسرارنا وتملي علينا هويتنا الأصدق في الحياة، وأن هذا فضلها حتى بعد أن تَفسد أو تشيخ. الآن، بينما نايف يصف السيارة إثر اندهاس سمكة الأسفلت – القط الأشقر تأكد لي أن في الدنيا أشخاصاً لا يمكنهم أن يستدلّوا بأجسادهم مهما استخدموها أو ورّطوا الآخرين معهم بواسطتها؛ وبدا لي ذلك أكثر مأساوية من أي شيء. أذكر هذه الحكاية لأن منظر نايف وهو ينهنه بلا دموع في مقعد القيادة مصحوباً بالتفكير في حبيبتي بعدما كففتُ عن حبها كان فعلاً أيقونياً.

366. واليوم يخطر لي أن هذه الناشطة الحقوقية رأت محاشمنا كلها: جيل كامل من الشعراء كشف أعضاءه الجنسية وشيئاً من شغاف قلبه بالضرورة لامرأة واحدة ليست جميلة بالذات، ونادراً ما كانت تدع عضواً من هذه الأعضاء يختفي في بطنها لأنها في سريرتها تفضّل أعضاء النساء. يخطر لي ذلك للمرة الأولى بعد عشرة أعوام فأضحك،

أموت ضحكاً وأنا أشعر بشيء كالأسى لكنه طري ومعجون بالحنين لدرجة أنني أستبقيه بعد أن أكف عن الضحك.

367. أحكي هذه الحكايات الآن لأفهم الثورة، لكن أكثر شيء يرعبني فكرة أن يكون هذا كل ما هناك، أن يكون لكل واحد فينا قصة أقل أو أكثر مأساوية تزامنت مع بداية وعيه بجسده سيظل يكرّرها إلى أن يموت – مرة بعد مرة بعد مرة: أن تقرر التواؤم مع التوجّه الجنسي الأكثر سلاسة فلا تحس بغير الذنب على هجرك لمن أحببتَه، أو أن تفرض عليك رغبة أحسستها وقفة قاسية أمام المرايا فلا تعرف ماذا تفعل بها – وبمرور السنين والأشخاص، يتضح أنك لم تحب أو تكره قدر ما استعملتَ الآخرين بحسب قابليتهم على جعل قصتك واقعاً، لأن قصتهم يمكن أن تركب على قصتك إلى حين. أكثر شيء يرعبني أن لا يكون هناك سوى ذلك الاستعمال.

368. ليلة الألفية، ولو بنصف وعي، كنت أعرف أن في الدنيا شيئاً أثمن من سواه، سواء أكان هذا الشيء قصة خاوية أو (كما يتبدى أثناء حدوثه) حقيقة فريدة لا تضاهى – وأنه أثمن ليس فقط من الطموح والتحقق ولكن أيضاً من الكتابة نفسها – لكنني عرفتُ أن حصولك على هذا الشيء، ولو مؤقتاً، متوقّف على استعدادك أن تثمّنه. أنت تثمنه وتخاطر بأن لا يثمنه الطرف الثاني بالقدر نفسه، وحين يسترخصه بما يكفي تكف؛ أقصى ما يمكن أن تفعل هو أن تحجّم نوازع الشر المتنامية تجاه شخص خيّب رجاءك في الشيء الذي يجعل لحياتك معنى، حتى لو كان هذا المعنى عبثياً وتافهاً.

369. وإلى اليوم ما زلت أشعر أنه شيء لا يعوَّض رغم الشر المترتب

عليه – أحياناً أفكر أنني أمضيتُ نصف عُمري أبحث عنه والنصف الثاني أنتحب على فقده؛ ليس واضحاً إن كنتُ قد فقدتُه كل مرة لأنني أنا الآخر مدفوع بقصة خاوية تمنعني من تثمينه أو لأنني لم أجده إلا داخل الدائرة – لكن ناشطتي الحقوقية، من قبل أن نلتقي، لم تكن مستعدة لإعطائه أي حق.

370. الليلة سيمر وقت وأنا أفكر في نايف وفي باولو. أفكر في باولو أكثر من نايف. وحين أتذكر حزنه من أفعال نرجس، حين أتذكر دموعه ليس على افتراقهما في نهاية 1999 ولكن من فرحته وهو يحكي حكايتها في بداية 1996، أجد صعوبة شديدة في التماس العذر للفنانة الطليعية تلك التي لم ألتق بها سوى مرة أو مرتين. ورغم أنني عرفت منه أن نرجس كانت صادقة أحياناً؛ أحياناً كانت نرجس تقول الحق (ولو أنها لم تجئ على نفسها بالحد الأدنى المتوقع من أيّ أم في أي ثقافة في العالم، ما الذي سيجعلها تجيء على نفسها من أجل رجل أحبته؟) لكن لأنّ الحق حزين وموجع ولأنها هي التي تقوله، كان الأسهل أن يصدق كذبها؛ وحده الكذب سيتيح لباولو التمسك بالحكاية.

371. أثناء جلسة لاحقة قبل أن تنفد قطعة الحشيش الأشقر نفسها، سيعترف لي باولو بأنه، حتى وهو يواجه نرجس بتلك الأشياء القاسية التي قالها لها في لقائهما الأخير، كان مستعداً للاستمرار في حبها. حتى وقبحها واضح في رأسه إلى هذه الدرجة، ومقابل تنازلات كان واضحاً بالدرجة نفسها كم سيجدها بشعة ومؤلمة، كان مستعداً أن يربح رهانه مع نايف. الذي جعله يقبل بالخسارة أنه اكتشف – وبعد

أربع سنين من المساومة على أشياء لا يصح أن يساوَم عليها، بعد أربع سنين من التماس العذر واختلاق المبررات – أن نرجس لا تزال تساوم.

372. "حتى اللحظة،" قالت له وهي تنتظر منه رد فعل، "كنت أرى لنا مستقبلاً معاً! ألا ترى أنني جئتُ إلى القاهرة من أجلك؟" كانت تنتظر منه رد فعل وتراجعاً أو اعتذاراً؛ هو يعلم أنها لا تقصد من كلامها أكثر من ذلك. "كم مرة يجب أن أقول لك إنني عملياً مطلقة؟ ثم ماذا تتوقع أن أفعل بابني، لو أنك لن تساعدني في الاهتمام به؟ الآن فقط أظلمت الدنيا يا باولو، لأنك أثبت لي عجزك عن التسامح؛ الآن فقط وبعد كلامك الجارح أدركتُ أنني لا يمكن أن أكون معك...

373. وسيعترف لي بأنه، بعد هذا الكلام فقط وليس قبله بثانية، أيقن أنه خسر الرهان.

374. ليلة الألفية كنتُ قد شُفيتُ. لكن خلال عام ونصف، إلى أن تنتهي حكاية نايف فتلهيني عن الدنيا كلها، سأكتشف أنك عندما تحب شخصاً تعرّف نفسك بوجوده فيصبح التخلص منه تخلصاً من نفسك: عليك أن تنتزع جزءً ضرورياً من إحساسك بذاتك لكي تتخطّى الأزمة؛ أن تعيد تكوين ذاتك بشكل ما، الأمر الذي يتطلب وقتاً وجهداً هائلاً وقطيعة؛ القطيعة، على الأقل في البداية، شرط أساسي. فهل كانت صبا تقصد تلك القطيعة أم استحالة التعاطف غير المشروط عندما تتكلم بحماستها المبالغة عن نير الكراهية الذكورية؟

375. لهذا، لأنني كنت أتعذب في إعادة تعريف نفسي بينما تتوالى

وقائع حكاية نايف مع مون، فإن روايتي لغرامهما على الأرجح أكثر حدة وعاطفية من خبرة نايف نفسه بها. في الفترة الممتدة بين خلافي مع نايف الذي أدى إلى قطيعتنا وانتهاء كل شيء – حوالى ستة أسابيع بين شهري 7 و9 سنة 2001 – تذكرتُ ما كتبه صلاح عبد الصبور من أن "**الحب مثل الشعر ميلاد بلا حسبان**"؛ وفكّرتُ، كما فكّر ولا بد آلاف قبلي، أن العامل المشترك بين الحب والشعر، الدافع عليهما وربما على الحياة عموماً، هو الفرحة. لا أقصد السعادة أو البهجة ولا حتى الامتلاء الذي يرسّبه التحقّق. لا أقصد لحظة النشوى الجماعية التي خبرناها جميعاً على غير انتظار سنة 2011.

376. الذي أقصده هو لحظة إدراك الرغبة المتبادلة التي تسمّى حباً أو لحظة بزوغ القصيدة أو المقطع في الدماغ: كلاهما محكوم – بادئ ذي بدء – بفرحة من نوع رابع لعل أهم شروطها أنها لا تدوم، لكن ذكراها تُعلّم في الإنسان أطول وتبلّغه المكان الذي يمكن له فيه أن يتغير، المكان القادر على جعله إنساناً ثانياً. من أبشع الحقائق أننا بعد زوال الحب ننسى الفرحة. وعندما ننتظره أو نستشرفه بلا طائل، لا نكون فرحين بما يكفي لاستقباله. ثم تلقي به الدنيا في سكّتنا ولا نتعرف عليه إلا لأننا فَرِحنا، ولا نحتفظ به إلا لنستبقي فرحتنا. بعد شهور أو سنين، باستمراره أو (على الأرجح) بعد أن ينتهي، نكتشف أننا أصبحنا آخرين. ولعلنا نفاجأ بأنفسنا ذات يوم – كما كتب سركون بولص أيضاً – "**نهدهد من كناه في ذراعي من أصبحنا.**"

377. سواء أفي الكتابة أم في النظر إلى الحياة، لو وُجد شيء اسمه شعر مختلف جذرياً عن ما ليس شعراً، على كل حال، فهذا الشيء

بالضرورة أكبر وأغلى من أي شخص. لو وُجد شيء اسمه شعر فإنه، بدقة، فرحة بزوغ القصيدة. ولا يمكن لتلك الفرحة أن تحدَّد بكيان له جسد وتاريخ ميلاد.

378. هل لأن الحب مثل الشعر أركّز على قصص الحب وأعيد روايتها باستفاضة؟ أظن في قصص الحب فحوى بَسْرِنا، نواة الشيء الذي كسرنا مبكراً وأفرغ بطارياتنا بلا مسؤولية قومية. ومنذ قليل تأكّد حدسي بأن التوجه السياسي والألفاظ الماركسية عند جيل السبعينات كذلك ليسا سوى قشرة تغلّف بَسْراً كان سيحدث بهما أو بدونهما كما حدث معنا بالضبط.

379. تأكد حدسي بذلك عندما لاحظتُ أنني أفهم كتاب **المبسورون** بشكل أفضل حين أستبدل كلمتي مثقف ومناضل بكلمة معتوه كلما وردت إحداهما أثناء القراءة. مثلاً: "كان هؤلاء المعتوهون الثوريون يعاملون أنفسهم كطليعة للطبقة العاملة المصرية" مثال آخر: "ومن سخريات القدر أو التاريخ إن شئتم أن جيلنا من المعتوهين... يتساقط ناسه اليوم على موائد العدم بالجملة" (ما هي موائد العدم هذه، بالمناسبة؟ وكيف يتساقط ناس الجيل؟) فكرة العته أوضح بكثير من أن تكون هناك وظيفة أخرى غير محددة المعالم وغير متصلة منطقياً بالأطروحات المجردة والصياغات المفتعلة التي تحيط بها: مثقف، مناضل، يساري؛ وكأنها مترادفات متفق على معناها مسبقاً بلا أي لبس أو احتمال ادعاء. الآن علي أن أجد بدائل لكلمة برجوازي (صغير وكبير)، ولكلمات شعب ووطن وثورة وطبقة أيضاً وعدد ليس قليلاً من الكلمات. لا شك في أن البدائل ستسهّل علي فهم الكتاب.

380. سأعود أتساءل عن الصلة بين المبسورون والتماسيح حين أنتهي من القراءة على كل حال، وما إن أفعل حتى تدفعني الذكريات إلى تأمُّل خيباتنا نحن الشعراء. من هذه الزاوية تحديداً كان نايف استثناءً للقاعدة منذ البداية، الأمر الذي جعل الكثيرين من داخل دائرتنا يحتقرونه إن لم يحاولوا استغلاله أو إيذاءه ثم، في ما بعد، يشعرون بالذنب... ولكن إلى أن تنتهي حكاية نايف.

381. أحياناً وأنا أستعيد حواراتنا ومشاجراتنا وكل السبل المعقدة التي ربطتنا ثم حلّت الرباط، يبدو لي أن الفشل كان القيمة الوحيدة المحرّكة في الدائرة – هل لهذا حرص من بقي منا في ما بعد ذلك الحرص الهستيري على الوظيفة والأسرة والاستقرار؟ – وكما تباهى السلف السبعيني والستيني من قبله بالسجن جراء ما سمّاه العمل السياسي، ناعتاً نفسه بالهزيمة إثر توقُّف ذلك العمل على غفلة وكأنه ضرطة شاردة لم تتحمّل رائحتَها الأجيالُ الجديدة – هكذا تُسمينا المناضلة في كتابها، بالمناسبة: "الأجيال الجديدة" – كنا نحس بفخر لأننا عاطلون ومتشردون، بالذات حين نصبح مقطوعين من شجرة لأننا ريفيون أو من خلفيات محافظة وأهالينا لم يتحملوا أفكارنا.

382. المشكلة أننا لم نقبل بالفشل أبداً في سريرتنا رغم إدراكنا بشكل أو بآخر أن النجاح في هذا المجتمع هو عكس ما نريد. وربما لم نتخلص من قيم أهالينا قدر ما ظننا، تلك التي أستبصرها في وجه زوجة بواب عوراء مشقوق بابتسامة ذل هي رمز ما يجعل أشياء كالتسول والاحتيال والدعارة منطق حياة. لكن الأدق أننا لم نجد لتلك القيم بدائل صالحة بعدما تخلّصنا منها فعشنا بلا قيم ونحن

غير جاهزين لذلك، غير واعين بصعوبته؛ ظل ما تخلّصنا منه يتسلل إلى المكان الذي نخبّئ فيه طموحنا وهناك يشغل مساحة أقرب إلى الوصاية أو الاعتراف. وكان احتياجنا إلى تلك المساحة يأكل أحشاءنا حيث خبأنا طموحنا.

383. اليوم لا شك عندي في أن التناقض بين اعتزازنا بالفشل وعدم قبولنا به – مثل بيوت مثقفي التسعينيات المفتوحة لضيوف لا يرحَّب بوجودهم إجمالاً كان العامل الأساسي وراء الانهيارات التي توالت خلال 2001 وأجبرتنا على تغيير حياتنا على المستوى الفردي.

384. في ربيع 2011، أتذكر وكان مجاب حرب قد انتقل من الإسكندرية حيث عمل طوال عمره مدرساً ثانوياً إلى الكويت قبل بضع سنين – التقيت به في الأيام التي قضاها في القاهرة من إجازته السنوية وجرّنا الحديث والضحك إلى شعراء التسعينيات. ليلتها لم يأت ذكر رضوى عادل ولا التماسيح (لا أعرف إن كان مجاب عمره سمع بجماعتنا)؛ لم نتحسر على شيء ولا أحد، فقط خضنا في قلق دائرة المثقفين وجنونها. قلت له إن الثورة قد تفتح دائرة المثقفين على المجتمع، وقال إنها ستزيل ستار المعارضة والاختلاف الذي يحوط الدائرة لتكشف المجتمع نفسه داخلها.

385. التقيت بمجاب وتذكرت كيف، فجأة، كبرنا.

386. فجأة هكذا، سقط منا حياؤنا ومرحنا وخوفنا أيضاً أو جانب من هذه الأشياء. لكن الأبشع أننا عرفنا أننا كبرنا، وكان دليل معرفتنا أننا انتبهنا إلى خصال في نظرائنا وربما في بعضنا أيضاً لم نكن قد انتبهنا إليها من قبل. يبدو لي الآن غريباً أن تكون العلامة الأوضح على أننا

كبرنا هي انتباهنا إلى أن الناس توافق على أشياء تراها مرفوضة بدوافع شخصية مثلاً، أو أنها تقول آراء ليس لأنها آراؤها ولكن لأنها تبدو كأنها الآراء الصحيحة.

387. فجأة بدوا مثل أكلة لحوم البشر؛ ومثل السلطة الفلسطينية، بدا أنهم يتاجرون بمشكلتهم أكثر مما يسعون إلى حلها. ونحن عرفنا أننا كبرنا حين انتبهنا إلى أنهم يختبئون داخل عائلة كبيرة هي دائرتنا، يستدفئون بأشباههم مع أنهم يتخابثون عليهم قدر ما يتخابثون على الآخرين. وعرفنا بالأكثر حين بدأ الشك يراودنا في أنهم ينتحون جانباً من المتون ليس لأنهم يكرهونها ولكن لأن الهوامش هي وسيلتهم في دخولها فاتحين بعد أن يعبروا طريقاً صعباً، يمر بالمقاهي الشعبية في وسط البلد، من القرية إلى المدينة. وعندما كبرنا عرفنا أنه حتى مع الفقر والتمرد، حتى في أقل القطاعات رسمية وأكثرها "هلهْليّة" كما يقال عن الأشياء حين تُترك على فطرتها، لم تكن هناك حياة خاصة. لم تكن هناك علاقات شخصية مهما بدت الصداقات حميمة ودائمة. لأن أحداً لم يقم علاقة حقيقة إلا مع الدائرة.

388. في ربيع 2011 التقيت بمجاب: هكذا كنت أقول حين اكتسحتني الفجيعة. لا أعرف إن كنت ممتناً للملف الذي أمامي على شاشة الحاسوب وقد جاوز مئة صفحة. ما زال لا يراودني النزول إلى معترك الأحداث، لكن وجع الفجيعة صار يأتي أكثر فأكثر. ربما بدأت فعلاً أشعر بالذنب وألم البطن لا يكاد يزايلني. لا أعرف أحداً ممن قُتلوا، لكن كأنك نمت لتصحو عارياً في الشارع. هل حقاً ليس

عندنا سوى ما نراه؟ وهل يُسأل التماسيح عن ما حاق بمصر في الستين سنة الماضية...

389. فجأة كبرنا وكان ذلك بين انفصال باولو عن نرجس والألفية، قبل اثني عشر عاماً من يوم كتب لي آخر من ارتبطت به رضوى عادل: "أنت بحاجة إلى فهم من أين جاءت العقلية المصرية تلك. لماذا الدعارة جزء أساسي من حياتنا كأنه حل نهائي ليس وراءه سوى العدم. لماذا يكون الخبث بديلاً عن الذكاء وتصبح الفكاهة مسخرة. ولماذا يفرح الناس باختلاس المتعة أكثر مما يفرحون بالمتعة نفسها، مثل خادمة ترتدي ملابس سيدتها خلسة. لماذا المتعة في سرقة الحياة بدلاً من عيشها. ولماذا نخاف من الحلول الجذرية إلى هذا الحد.

390. أغرب شيء في علاقتي بمجاب أننا كلما تكلمنا أتذكر نرجس. مع عبارة مثل "يفرح الناس باختلاس المتعة أكثر مما يفرحون بالمتعة نفسها"، مثلاً: لا أتذكر رضوى؛ لا أتذكر صبا؛ لا أتذكر نايف ولا مون ولا باولو، أو التماسيح. فقط تلك التي لا يحتفظ رأسي بغير لقاء واحد بها في المقهى المحاذي للتاونهاوس وسط ورش إصلاح السيارات المحيطة بشارع معروف، ذلك الذي كنا نسميه "ليبتون" لأن إعلانات الشاي الصفراء تغطي المشمع الذي يظلّل مقاعده بامتداد الرصيف ثم – فجأة، بعد 2005 – صار اسمه "التكعيبة" بلا سابق إنذار، والذي لم أفهم عمري سر إقبال الناس عليه.

391. كانت تبدو بريئة – خجولة ومتلجلجة قليلاً في حديثها وإن شاب عينيها المترددتين شيء من النهم المكتوم – ولغير المتمعن ربما بدت من خلفية أرستقراطية أيضاً، وهي تنظر إلى النادل و"السمكرية"

الجالسين حولنا بمزيج من التعاطف والتعالي وهم لا يقبلون حضورها إلا باعتبارها متفرنجة من طبقة أخرى، أو أجنبية.

392. أتمعن، إثر حديثي مع مجاب، في كل ما تستوجبه هذه النظرة.

393. كبرنا وخلال عام أو اثنين كان نايف يقود سيارته أسرع فأسرع على الطريق الصحراوي ويفكر في الأسد. طبعاً كان مشغولاً بمون، كما أتخيل: لا يطيق صبراً على لقائها ويختلق سيناريوهات مختلفة لمكان رئيسها الذي يبيت معها من ذلك اللقاء: أن يكون مستلقياً في غرفته، أن يكون معها في غرفة الجلوس، أن يكون فوقها على السرير... لكن مثلما يحدث في اللحظات المشحونة والمصيرية، أتخيله يفكر في شيء غير ما يشغله مباشرة: في الأسد، في أن الأسد عاد يظهر كل يوم في شهر 8 ثم اختفى تماماً في الأسبوع الأخير؛ في أن شايلوك هو الوحيد الشاهد على ظهور الأسد وأنه قد ينكر ذلك إذا ما سُئل؛ وفي أن الأسد لم يصدر صوتاً من أي نوع ولا حتى رائحة طوال تلك الشهور.

394. هذا ما حدث بالتقريب كما فصّلناه أنا وباولو، مستفيدين من كل المعلومات المتاحة: في الواحدة والنصف تقريباً بعد ظهر 11/9، كان نايف في قطاع خال نسبياً بين الكيلو 25 والكيلو 75 من طريق الإسكندرية–مطروح، يقود بسرعة هائلة رغم تعثر الرؤية نتيجة حمو الشمس والتراب، منتقلاً بلا اكتراث من حارة إلى أخرى. نحو الثانية إلا الربع بدأ الطريق – فجأة – يزدحم بالشاحنات، وقد تمكن نايف من تجنب الاصطدام بإحداها جاءت مسرعة عن يمينه في لحظة غير مواتية، إلا أن سرعة الاستدارة أدت إلى انحرافه عن

مساره لتستقر المازدا الحمراء لحظياً في عرض الطريق بعد احتكاكها بمقطورة الشاحنة؛ إثر توقفه فجأة مالت السيارة بنايف بدرجة كبيرة، لكنها لم تنقلب حتى صدمتها شاحنة ثانية كانت وراءه ثم أسرعت و لم تنتبه إليه، داهسة الجانب الذي يجلس فيه السائق قبل أن تتمكن من التوقف. (حدث ذلك، بحساباتنا، في نحو الثانية إلا الربع، مزامناً لاصطدام الطائرة الأولى بأحد برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، لكن نايف – كما علمنا من تقرير الطب الشرعي – لم يمت بنزف في المخ وتهتك في الرئتين حتى الساعة الثانية تقريباً: في موعد اصطدام الطائرة الثانية بالبرج الثاني، الساعة الثانية وثلاث دقائق بتوقيت مصر.)

395. هذا ما حدث بالضبط كما استدعيته حين أيقنت – لسبب غير معلوم – أن نايف كان فعلاً يفكر في الأسد: في الواحدة والنصف – وعينه على الطريق – انتبه نايف إلى تنفس متحشرج في السيارة وحول نظره فإذا، في المقعد المجاور، عجوز لم يره من قبل وليس واضحاً على الإطلاق كيف يمكن أن يكون قد تسلل إلى السيارة ولا متى انتقل إلى جواره. هنا بدأ اضطرابه في القيادة، والذي سيؤدي خلال ربع ساعة إلى الحادث الذي أودى بحياته بعد ربع ساعة آخر؛ بالطبع لم يكن في السيارة سوى جثته. كان العجوز الجالس جواره قصيراً بدرجة ملحوظة وله رأس ضخم بالقياس على جسده، شعره الطويل جداً هائش مثل لبدة (كما يسمى عُرف الأسد) يميل إلى الإصفرار، وأنفه ضخم مفلطح. عندما دقّق نايف في وجهه وقد فقد القدرة على النطق أو الصراخ – والعجوز يطالعه صامتاً بتعبير حزين

– لاحظ بهلع أنّ عيني العجوز صفراوان. وقبل أن يفتح العجوز فاه ليصدر صوتاً يولّد غثياناً من نوع لا يثيره أي صوت لحيوان أو لآلة مهما كان عالياً وقبيحاً، بينما نايف يتفادى الشاحنة الأولى، قال وهو لا يزال يطالعه بالتعبير الحزين نفسه: "كان أمامك تشتكي لي يا بني، لكنه مصيرك.

396. بعد عشرة أعوام أو أكثر من موت نايف، أصبحتُ أعرف أن الشر يبدأ من حيث يتعالى الإنسان على ما يحتاجه: أن ترفض الشفقة وأنت تستحقها أو تتمرغ في الفشل وأنت تتحرّق إلى النجاح، أن تُحيّد رغبتك لمصلحة مشروع اجتماعي أو أن ترى الرغبة معادية للتحقق. لعل التعالي من السمات الكونية للشعراء، مع أن عبارة كهذه كانت كفيلة بأن تُخرج من أفواهنا سخرية نابية وكنا نغضب بصدق من التصورات التقليدية عن الشاعر. ظللنا نحارب أفكارنا الدفينة عن ذواتنا، و لم يخطر لنا لحظة أننا إنما نقتل أجزاء من هذه الذوات ولا كم هي ضعيفة ويائسة، معرّضة للقفز من شرفة في الدور الحادي أو الثاني عشر. بطرق شديدة التعقيد قلقلنا الأعراف التي تربّينا على أنها ثابتة ورفضنا أن تكون لنا صلة بمؤسسات لم يكن من شأنها أن تعطينا دخلاً كبيراً بما يرضينا أو بيتاً كما يجب أن يكون البيت، ولا نسق حياة يمكّننا من إنتاج أشياء خارقة للعادة. صدقاً أو كذباً ظللنا نسمّي علاقاتنا صداقات – أيتها الصداقة، كم من الجرائم تُرتَكب باسمك! – ولعل الثوابت نفسها هي التي جعلتنا نتشبّث ببعضنا أكثر مما كنا لنفعل في ظروف أكثر اتساقاً.

397. رضوى عادل كتبت نصوصاً متكلفة ومؤدلجة ولا يختلف

كثيرون على أنها – النصوص – جديرة بالنسيان، لكن رضوى عادل نفسها ظلت امرأة منتحرة وبوصفها كذلك ظل يذكرها عدد أكبر قليلاً من الناس عبر جيل أو اثنين. يذكرونها بكلام من قبيل أنها حالة أو مأساة، ويردفون أنها كانت مناضلة – مثقفة، كاتبة، مفكرة كبيرة – من أقطاب الحركة الطلابية أو جيل السبعينات؛ قد يتكلمون في طبيعة وإخفاق ذلك الجيل، لكنهم لن يتطرقوا إلى ما كتبتْه أو أي مساهمة ملموسة قامت بها في المجالات المقرونة باسمها. المهم أنها لفتت النظر في عائلة المثقفين. ولعلّنا نُذكر نحن أيضاً أو أحدُنا بالطريقة نفسها، كأنْ يقالَ عن نايف مثلاً: "كان يكتب شعراً"؛ ولو كان المتكلم كريماً: "لم يكن شعره سيئاً" لكنه لن يقال إلا على سبيل التعليق العابر، بينما تبقى فحوى الكلام في ما جرى لنايف على المستوى الشخصي، في كونه حالة أو مأساة.

398. بعد عشرة أعوام أو أكثر – بينما حزب النور السلفي وحزب الحرية والعدالة التابع للإخوان المسلمين يربحان الانتخابات التي بدأت والأمن لا يزال يقتل وينهب في الشوارع، وفيالق الشرطة العسكرية من قواتنا المسلحة تسحل المتظاهرين وتجردهم من ملابسهم وتميتهم ضرباً ثم تجر الجثث إلى أكوام الزبالة فضلاً عن قنصهم وتعذيبهم داخل المنشآت العامة – أصبحتُ أعرف أن الشر يبدأ من حيث يتصور الإنسان أنه، بمعرفة أو عقيدة أو هوية، يمكنه أن يغيّر مجرى حياة سقطت على كتفه مثل حقيبة عليه أن يرسم لها شبكة في الوادي قبل أن يجلس داخلها ليصل.

399. بعد عشرة أعوام – وأنا أتابع من بعيد تطورات ثورة انتظرناها

ونحن لا نعرف أننا ننتظرها، وحين جاءت مارقة كقطار أخير ترتكتنا مشدوهين على رصيف المحطة – أفكر في كوننا كلنا أصبحنا حالة أو مأساة: إن بقيت لنا ذكرى، ستظل فحوى ذكرانا في فضائح الحب والموت والإنجاب. وهل كان هذا كله من أجل أن نكون مادة مناسبة لنميمة عدد أكبر قليلاً من الناس؟ أشعر بجسدي غارقاً في الحساء وأنا أتساءل: كل هذا؟

400. أقمنا عزاءً لنايف أنا وباولو، حضره عدد كبير ممن كانوا قد حضروا احتفالنا السري بإعلان الجماعة في بيت أهلي بشارع سليمان جوهر سنة 1997. أقمنا عزاءً في شقة باولو في العجوزة بلا قرآن، شربنا خلاله قهوة ودخنا بانجو وتحدثنا عن انفجارات نيويورك، عن انتقام الأمريكان المتوقع من المسلمين وعن بهجة قسم كبير من الشعب المصري بمشاهد الدمار والموت. كنا مشدوهين، أنا وباولو. لا نشارك في الحديث إلا لماماً ولا يؤثر البانجو في وعينا. وطوال أسبوع أمضيناه متلاصقين ننفجر دورياً في البكاء، ظللنا صامتين. كانت دنيانا تتحول بالدرجة التي لن يمكن لنا معها أن نبقى صديقين. وكان صعود بن لادن كبطل في حد ذاته إشارة إلى انتهاء عمر كامل ليبدأ عمر آخر ربما أفضل. مع إعدام صدام سنة 2006 وانتخاب أوباما أول رئيس أسود لأمريكا سنة 2009، أصبح كل منا شيئاً مختلفاً عن الآخر، أنا وباولو. ولم نعد تماسيح. فهل كان في حزننا على نايف حزن على جماعتنا وصداقتنا كذلك؟

401. الثابت أن نايف مات فعلاً على الكيلو 45 من طريق مطروح لحظة انفجار البرج الثاني من برجي التجارة في مانهاتن؛ ولعله

مات – في التاسعة وثلاث دقائق وثانيتين بتوقيت نيويورك – لحظة انفجاره بالضبط.

402. الثابت أنه استقر على الصياغة التالية لقصيدة ألن جينزبرج قبل مقتله بستة أسابيع وأربعة أيام تماماً (كان تاريخ آخر تدخُّل في ملف حاسوبه الشخصي الذي نقل إليه القصيدة عن كشكوله هو تاريخ شجارنا الأخير، كما اكتشفتُ: 7/7/2001): **"الأسد على حق" – كن صامتاً من أجلي، أيها الإله المتأمل – عدتُ إلى بيتي لأجد في الصالة أسداً/ وهرعتُ إلى بئر السلم أصرخ: أسد! أسد!/ السكرتيرتان الجارتان، عقصت كل منهما شعرها الأدكن. وبصفقة ارتدت نافذتهما مقفلة/ أسرعتُ إلى بيت أهلي في باتيرسون، ومكثت نهارين// هاتفت طبيبي النفسي، تلميذ "رايخ"/ كان قد حرمني من الجلسات عقاباً على التحشيش/ "حصل،" هكذا لهثتُ في أذنه: "في صالة بيتي أسد."/ "للأسف، لا مجال للمناقشة،" وضع السماعة// ذهبتُ إلى حبيب قديم وسكرنا بصحبة حبيبته/ قبّلتُه. وبومضة مخبولة في عيني أعلنت أن عندي أسداً/ انتهى بنا الأمر نتقاتل على الأرضية. جرحتُ حاجبه بأسناني فطردني/ وبت في سيارته "الجيب" المصفوفة أمام البيت أستمني متأوهاً: "أسد."// عثرتُ على "جوي" صديقي الروائي وزأرتُ في وجهه: "أسد!"/ نظر إلي مهتماً وقرأ علي أشعاره العفوية الراقية المكتوبة كما يكتب "الإيجنو" (والإيجنو بحسب جينزبرج شخص يعيش مرة وإلى الأبد. وينام في أسرة الآخرين)/ أنصت في انتظار أن أسمع الأسد. لم أسمع سوى الفيل، التيغلون – ابن النمر واللبوءة – والهبغريف، الحصان أحادي القرن، النمل/ لكنني عرفتُ أنه فهمني حين تناكحنا في حمام "إيجناز ويزدوم"// في اليوم التالي مع ذلك أرسل إليّ قصاصة من عزلته في "سموكي**

ماونتين"/ "إني أحبك يا نونو وأحب سباعك الذهبية الرقيقة/ بيد أنه لا روح ولا حجاب، إذن فإن حديقة حيوان أبيك الغالي ليس فيها أسد/ قلتَ لي إن أمك جنت قبل أن تموت، فلا تنتظر مني وحشاً خرافياً يكون عريساً لك."// حائراً ودائخاً، مرتقياً هذه الحياة كلها تذكرتُ الأسد الحقيقي يتضور جوعاً وسط نتنه في هارلم/ وفتحت باب الغرفة لأجابه انفجار قنبلة غضبته/ يزأر جائعاً في وجه جص الجدران، لكن أحداً عبر الشباك لا يسمعه. التقطتْ عيني الطرف الأحمر للعمارة السكنية المجاورة واقفة في سكون يصم/ وأطلنا النظر بعضنا إلى بعض. عينه الصفراء العنيدة وسط هالة الفرو الأحمر/ أطلقتُ أنين الروماتيزم بمفردي لكنه توقف عن الزئير وأشهر ناباً يحيي/ واستدرت أطهو البروكالي للعشاء على موقد الغاز الحديدي/ غليتُ ماءً وتحممتُ بماء ساخن في الوعاء المعدني أسفل الحوض// لم يأكلني، ورغم أنني حزنت لتضوره في وجودي/ في الأسبوع التالي كان الهزال قد جعل منه بساطاً سقيماً تملأه العظام. تتساقط سنابل شعره/ عينه المحمرة حانقة وهو مقع يتألم برأسه المشعر في كفي أسد/ وقرب المكتبة المصنوعة من صندوق بيض. المملوءة بمجلدات نحيفة لأفلاطون وبوذا// كنت أسهر جواره كل ليلة أشيح بعيني عن وجهه الجائع المعثوث/ وكففت أنا الآخر عن الأكل. يضعف ويزأر بالليل بينما تجيئني الكوابيس/ مأكولاً من جانب أسد في مكتبة الحرم الفضائي لجامعة كولومبيا، أو أسداً محروماً من الطعام من جانب البروفيسور كاندينسكي، أحتضر في نُزُل حقير داخل سيرك الأسد/ وكنت أصحو في الصباحات والأسد لا يزال مضافاً إلى وجودي يحتضر على الأرضية أمام عيني. "أيها الحضور الرهيب!" صحت. "كلني أو مت!"/ في ذلك العصر نهض وسار إلى الباب وكفه على الحائط الجنوبي يحافظ على توازن جسده المرتجف/ أطلق صريراً كليماً خلع

قلبي من سقف حلقه الذي لا قعر له/ وهدر كالرعد مغادراً أرضيتي إلى السماء، أثقل من بركان في المكسيك/ دفع الباب ليفتحه وبصوت حصبائي قال: "ليس هذه المرة يا صغيري، لكنني سأعود مرة ثانية."// يا أيها الأسد الذي يأكل عقلي الآن منذ عقد ولا يعرف سوى الجوع/ ليس فردوس رضاك يا زئير الكون كيف اصطفيتني/ لقد أنصتُ إلى وعدك في الحياة الدنيا وصرت جاهزاً للموت/ خدمت حضرتك الأزلية الميتة جوعاً. أيها الرب، أنا الآن في غرفتي أنتظر رحمتك. – باريس، 1958[1]

403. يوم 28/1/2011 بعد غروب الشمس في شارع قصر العيني – وقد بدأ المحتجون يدقون بقطع الحجارة على عواميد النور ليصدروا نفيراً لم تسمع مثله في عمرك، والشارع فارغ من السيارات ولا مشاة سوى المحتجين بعدما تقهقرت قوات الأمن إلى ميدان التحرير لتضرب غازاً وخرطوشاً ورصاصاً مطاطياً من هناك... وقد خلع المحتجون أسوار الصفيح المحيطة بمحطة البنزين ليصنعوا منها متاريس يقذفون الأمن من خلفها بزجاجات المولوتوف المحمولة في صناديق فوارغ المياه الغازية، ولا كلام سوى تعليمات المتظاهرين لبعضهم والنفير الفضائي ذاك: لا تعرف مما يحذرك وإن كنت تعرف أنه إشارة خطب جلل لأن واحداً أو أكثر قد قُتل أمام عينيك سواء بالقذائف أو لأن سيارة تقول أرقامها إنها "هيئة سياسية" دهسته وانطلقت إلى

1 التضمين عن قصيدة Rapsodie du Sourd للشاعر الفرنسي تريستان كوربيير Tristan Corbière سموكي ماونتينSmoky Mountain: جبال على حدود ولايتي تينيسي ونورث كارولاينا. Ignu كلمة من اختراع جينزبرج وعنوان إحدى قصائده، عن ignoramus أو الجاهل وهو العالم روحيا كالدرويش أو رجل الدين الطاوي أو أبله دوستويفسكي؛ وقد شرحها نايف، عن قصيدة أخرى لجينزبرج، في متن الترجمة.

مرمى البصر، كأنه إنذار بقيام القيامة والأفق أسود بالدخان والحياة كما تعرفها توقفت، صوت الحجر يدق عواميد النور؛ والمحتجون يحملون الزجاجات المليئة بالبنزين متمترسين خلف الصفيح في تشكيلات بدأت مع هستيريا الغضب الصامتة تنتظم – الثابت أن المحتجين في الصفوف الأمامية كانوا مراهقين كلهم إلا واحداً وسيماً يشبه عمر الشريف في منتصف الثلاثينيات من عمره، شوهد ينقل ألواح الصفيح وينظم الصفوف الأمامية بحماس بالغ، وقال أكثر من مثقف لمح ذلك الرجل الذي لم يظهر في الاحتجاجات لا قبلها ولا بعدها إنه طبق الأصل من شاعر مغمور مات في الخامسة والعشرين من عمره في حادث سيارة على طريق الساحل الشمالي. فيما بعد، أثناء ما عُرف ب"موقعة الجمل" يوم 2/2/2011، حين أرسل القائمون على الأمور في مصر أعداداً من حاملي الأسلحة البيضاء – بعضهم على ظهور الجمال والأحصنة – ليفضوا الاعتصام في التحرير، قيل إن "جمال مبارك" ابن الرئيس الموعود بوراثة الحكم قاد مخططاً لإطلاق الحيوانات المفترسة من أقفاصها في حديقة حيوان الجيزة (كما أُطلق مجرمو الجنايات لإثارة الرعب في الأحياء السكنية بدءً من ليل 28/1) وتوجيهها إلى التحرير؛ لم يُنفذ المخطط، لكن أحدهم قال إنه رأى وسط الصراع بين المتظاهرين والبلطجية الذين انقلبوا على أعقابهم وقد فشلوا ليسلموا الساحة إلى القناصة في جُنح الليل أسداً يزأر مذعوراً ولا يقوى على مهاجمة أحد.

404. الآن بينما أجلس خارج كل الملاعب منتظراً قيام الثورة مرة أخرى يوم 25/1/2012 ولا أصدق جدواها، بينما أنتظر ظهور الله

ثانيةً وقد كفرتُ حتى بالشعر، أفكر في مون من حيث تصلني أخبار الأحداث وأحس أن الخبل النهائي الذي كان نايف يتمايل على حافته سنة 2001 أصاب البلد كلها بعد عشر سنين؛ وأحس أنه – هو نفسه – خبل رضوى عادل لحظة انتحارها. في الفترة التي بدا فيها أن تحركاً عفوياً سيمحو عبث الحياة في المجتمع المصري، بالفعل عاد المعنى إلى كلمات مثل شعب ووطن وثورة وحتى، ربما، برجوازي؛ ورغم أن تلك الفترة لم تدم واختفى المعنى من جديد بمجرد انتهائها، تأكد لي من وقتها أن رضوى عادل كانت قد انتحرت من أجلنا بالفعل؛ انتحرت وهي لا تعرف من أجل أن يعود المعنى إلى الكلمات.

405. أنا يوسف أو الفتيس أو أي شخص آخر: العضو المؤسس في الجماعة الوحيدة لحركة الشعر المصري السري. والثابت أنني، بهذه الكلمات في مستقبل يتدلى منذ منتصف التسعينيات، أنهيت الملف الأول من حاوية التماسيح.

نسبت نصوص أو أجزاء منها إلى مؤلفين افتراضيين ومؤلفوها الحقيقيون هم: أحمد يماني، أروى صالح، مهاب نصر، هشام قشطة، هيثم الورداني، ياسر عبد اللطيف. أما بقية النصوص فإما للمؤلف أو للمؤلفين الحقيقيين الواردة أسماؤهم. شكر خاص لمهاب وياسر

الثورة بجد

عن قصيدة "الأسد على حق" لألن جينسبرج:
"ليس فردوس رضاك يا زئير الكون كيف اصطفيتني

***

أرجع من الإسكندرية عبر طنطا لأجد الثورة أسفل سريري
ومَثنيّ الجذع على ضوء أبجورة الكومودينو، وجهي بمحاذاة المُلّة
أتبين الملايين تركض وتدافع عن نفسها بالحجارة، كل واحد
عقب سيجارة لا يزال مشتعلاً
يرفعون لافتات كالطوابع ويحفرون شعارات أكبر من أجسادهم
على الباركيه، أتسمّع هتافهم

***

وكأس الفودكا الأخيرة لم تتبخر من جمجمتي منذ واحد
سكندري لم يُعمَل في رشدي
عظمي المخمور يقرقع وأنا أغالب البكاء ممزّقاً ملابسي في الشباك:
الثورة حصلت يا أولاد القحبة، الثورة حصلت بجد!

***

وقد تركتُ حبيبتي في شارع بن الفارض عند بتاع المخلل
تستقبل الفلول
مفتقداً لا الواحد ولا البحر، لا وجه أمها المترمل منذ ساعات
ولا أباي الميت قبل عشر سنين
ولا خلف مقهى الأحمدية ولياً كان ذَكَرُه – ضمن الكرامات
– أكبر من هراوات الشرطة العسكرية
بل أذني التي ابتلت في الأظاريطة لأن دموعها كانت تقطر من
سماعة الموبايل

***

ألطّخ ملابسي بالحبر الأحمر وأُسرع إلى العمل لأرقد على عتبة
المدير
لم تكن الثورة مع الزملاء ولا في المترو ولا حتى في حناجر
شهداء يُبعَثون بلطجيةَ أمنٍ مركزي
هائماً في ملكوت سككٍ حديد مصر كيف لم أضبطها حتى
هربتْ إلى غرفتي؟

***

مضعضعاً بعدما نمت ليلتي في حمام المصلحة أوشوش عامل
البوفيه: بلا ثورة، الحياة لا تُحتَمَل
هل تعرف أن ابن الفارض قال إن موت العاشق حياة والقتل
أفضل من الهجر

المؤسف أنه كما أن لا تغيير بلا مذابح كذلك لا زمن بلا انتظار،
هل تعرف الملائكة...
الملائكة؟ يسألني متهكماً وهو يتحسس صلعة كالجلمود
ويطالعني بشفقة، يقرضني خمسة جنيه

***

أسعى إلى إحدى اللبؤات أسداً يحمل كشكولاً لأخبرها بأن
الثورة ليست في ميدان التحرير
ومحتسياً فرابيه من مؤخرة سموذي بعد ثالث دابل إسبريسو في
أحد فروع سيلانترو
أزعق في كاتوليكي مراهق من فوق شاشة اللابتوب: لا شيء
اسمه الغيرة القضيبية!

***

من الدقي إلى التحرير مرات عديدة صحبة شاعر شاب هو
الآخر من طنطا
أتأكد من فشل الجهود حين لا ترد حبيبتي على الموبايل وهي
ثكلى
وإذ جلس زيزو مع فتاة أردنية ليلة جاءني التليفون، هل كان
مصابها المفاجئ عقد ارتباطنا؟

***

عندما ترد أخيراً أقنع صاحبي الشاعر أن اعتصاماً بجد في غرفتي، ننطلق بلا سلاح
وزاحفاً ورائي على ركبتيه من جنب الكومودينو بشورته البرميودا كمندسّ يتلصّص
جموع المحتجين حول كعكة حجرية هي عبارة عن نعل قديم، مثلما كنا تماماً
الدبابات علب ثقاب والإف – 16 كالدبابيس وغوغائيون سفلة، بين المُلّة والمرتبة قناصون بالليل

***

نضاجع المخدات بعد أن أقول لصاحبي إن الله في القضبان والثورة بلا واي–فاي
أتخيل حبيبتي راكعة أمامي ببلوزتها السوداء، فجيعتنا الفردوسية وأنا أقذف في حلقها
وحين توقظنا أمي في الصباح لا أقاوم، أرى الخادمة ومكنستها الكهربائية عليها ختم النسر
أرى العَلَم يرفرف في أيدي مخلوقات فضائية وأعرف أننا لن نهزم إسرائيل
يغتاظ صاحبي والقذى في عينه حين يمتد خرطوم المكنسة تحت السرير
مع ظهور الخيش والصابون أمنعه عن الخادمة بصعوبة: لا فائدة من اغتصابها!
الآن ليس سوى صوت المكنسة وهو يبكي، لا دم ولا حديد

يعود باركيه الغرفة نظيفاً وخالياً
وحيث كانت الدواوين على الرفوف زجاجات ديتول وبليدج، إسفنجات وخرق منمقة
فجأة يشهق سريري على صوت السرينة، تشتعل الملاءات وتنفجر المرتبة
يتفصد الكومودينو عن أسد هصور يزأر ويختفي صاحبي والكتابة على الحيطان:
سنوري حين يمارس الجنس يقذف كل عشرين دقيقة ولسانه أخشن من ورق الصنفرة

***

أيتها الحبيبة المنتحبة يا مانحتي الأورجازم النهائي لقد انعقدت حياتانا بالموت
لقد رأيتُ الآتين والغادين قبّلت ذوي اللحى وجريت من شاهري السنجة على سلالم المترو
حملتُ سيدي مجاهد إلى ظلمة القبر لأُطمئن أباك ونعست مقرفصاً بين مقصورتين
لقد وجدتُك أسفل سريري وجيش أمي في الغرفة، سلّمت رقبتي لفم الأسد.

نوفمبر 2011

مصر ٢٠١١، سنة الثورة.

يتذكّر أحد ثلاثة شعراء مغمورين من «جيل التسعينات» المصري الجماعة الأدبية التي جمعته ورفيقيه سنة ١٩٩٧. وللمرّة الأولى ينتبه إلى أن لحظة تأسيس «جماعة التماسيح للشعر المصري السرّي» كانت أيضاً لحظة انتحار رمز من رموز «جيل السبعينات» من المثقّفين الذين حمل جيله إرثهم: المناضلة رضوى عادل. من هنا، يبدأ الراوي في التساؤل عمّا يربط الحدثين، مسترجعاً السنوات الأربع التي مارس التماسيح فيها نشاطهم بكلّ ما فيها: الجنس والمخدرات والتمرّد... هل يمكن أن يكون تأسيس الجماعة الأدبية وانتحار المناضلة هو ما أدّى - خلال خمسة عشر عاماً - إلى «ثورة انتظرناها ونحن لا نعرف أننا ننتظرها، وحين جاءت مارقة كقطار أخير تركتنا مشدوهين على رصيف المحطة؟»

إنه تاريخ العقد الأول من الألفية الثانية في القاهرة، لكنّها رواية الشعر لذلك التاريخ: رواية الهوس والخيال وطاقة التجاوز.

يوسف رخا كاتب مصري. يعمل في الصحافة الثقافية باللغة الإنكليزية منذ ١٩٩٨. صدرت له رواية «كتاب الطغرى» وبضع مجموعات في الشعر والقصة وأدب المكان. له موقع أدبي - فوتوغرافي بالعربية والإنكليزية (الرابط: yrakha.com).

ISBN 978-1-85516-878-7

DAR AL SAQI

دار الساقي